ابداعات عالمية

رواية

كارلوس فوينتس

الغرينغو العجوز

ترجمة

الياس فركوح

@ketab_n
30.4.2015

الأهلية

رواية

كارلوس فوينتس

الغرينغو العجوز

ترجمة

الياس فركوح

@ketab_n

الأهلية

Twitter: @ketab_n

الغرينغو العجوز

Twitter: @ketab_n

رقم التصنيف : ٨١٣
المؤلف ومن هو في حكمه :كارلوس فوينتس، ترجمة الياس فركوح
عنوان المصنف : الغرينغو العجوز: رواية
الموضوع الرئيسي : ١ـ الآداب
٢ـ الرواية المترجمة
رقم الإيداع : (١٨٣٢/١٢/١٩٩٧)
بيانات النشر : عمان: دار أزمنة .
*ـ تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية
ISBN 9957-09-007-0 (ردمك)

هذه هي الترجمة الكاملة للكتاب
THE OLD GRINGO
Carlos Fuentes

☐ الغرينغو العجوز : كارلوس فوينتس
☐ الطبعة الأولى : منارات ، ١٩٩٠
☐ الإصدار الثاني: أزمنة® ١٩٩٩

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق وعقد

أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤
ص.ب : ٩٥٠٢٥٢
عمّان ١١١٩٥ الأردن
شارع وادي صقرة، عمارة الدوحة، ط ٤

All rights reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in all retrieval system or trasmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

لوحة الغلاف : خوسيه كليمنت أورزكو(المكسيك)
تصميم الغلاف : أزمنة (الياس فركوح)
فرز وسحب الأفلام: الشروق
الطباعة: شركة الشرق الأوسط للطباعة
تاريخ الصدور : كانون الثاني ١٩٩٩

Twitter: @ketab_n

ملاحظات المترجم :

أُنوِّهُ بالمساعدة التي قدمتها لي شقيقتي، سعاد، وخاصةً في مجال متابعتها لفصول الرواية فصلاً فصلاً، وتدقيقها المثابر لغاية مُقاربة الترجمة للنصّ بلغته الانكليزية.

كما أُشير الى ملاحظات الصديقين الشاعرين، زهير أبوشايب وطاهر رياض، المتعلقة ببناء بعض الجُمَل ذات المنحى الشعري الذي تتسمُ به كتابة رفة كارلوس فوينتس؛ والتي عملتُ على تنقيتي للترجمةِ، بناءً عليها، ما أمكنني ذلك.

كذلك أود الإفصاح بأنني لم أُقْدم، إبتداءً، على «مغامرة» ترجمة نص هذه الرواية الى العربية لولا إفتتاني به، كعملٍ متكامل، من ناحية. ولولا انني وجدتُ أن الكاتب نفسه (فوينتس) قد شاركَ مارغاريت س. بيدين Margaret Sayers Peden في ترجمته الى الانكليزية، من ناحية ثانية. وبذا، يكون النص الانكليزي، كنصٍ وسيط، أقرب ما يكون الى أصله الاسباني.

نقطة أخيرة: أرجو أن أنال عُذر القُرّاء لعملي على «إعادة تشكيل» بعض الجُمَل والكلمات في بعض المشاهد (وهي قليلة ونادرة لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة)، مُراعياً في ذلك تحفظ الرقابات، صاحبة القول الفصل في السماح بمرور الكتاب اليهم، مؤكداً ان ذلك لم يمسّ، على الإطلاق، جوهرها أو روحيتها.

إلياس فركوح

١٧/ ١٠/ ١٩٨٩

عمّان

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كارلوس فوينتس

ولد كارلوس فوينتس في ١١ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٢٨ في بنما، حيث كان والده يشغل منصب القنصل في البعثة المكسيكية هناك. عاش سني طفولته وصباه الأولى في واشنطن، إذ استمر والده في عمله الدبلوماسي كقنصل، أيضاً، في السفارة المكسيكية لدى الولايات المتحدة الأميركية. ولقد أدّت تلك السنين الى تشكيل بذرة وعيه الأولى على الفارق الجوهري بين الولايات المتحدة وبلده المكسيك، حضارياً، وثقافياً، وتاريخياً، وسياسياً، إذ تفجرت حينذاك الأزمة بين البلدين، بعدما قام رئيس المكسيك لازارو كارديناس في الثامن عشر من آذار/مارس عام ١٩٣٨ بتأميم ممتلكات شركات النفط الأجنبية. ويمكن اعتبار تلك الفترة مرحلة التأسيس في شخصية فوينتس الوطنية، إذ عملت ردة الفعل الأميركية الهستيرية التي انعكست في المسلكيات العامة ـ في الشارع والصحافة ـ، وفي كيفية التعامل معه كمكسيكي ـ في المدرسة حيث كان جسماً غريباً وسط الطلبة الاميركيين ـ، على توجهه نحو اكتشاف هويته والتعرف على ما يميزها عن كل ما هو أميركي.

تنقل كثيراً في بلدان أميركا اللاتينية (تشيلي، البرازيل، الأرجنتين) قبل أن يتوجه، لأول مرة، الى وطنه المكسيك، ويقف على أرضها، مشكّلاً خلال ذلك علاقاته مع بعض الكتّاب والشعراء الأميركيين ـ اللاتينيين، ومن بينهم بابلو نيرودا، ومتحسساً ضرورة الكتابة بالاسبانية على انها احدى وجوه الحرية للقارة، شريطة العمل على تثويرها وتجديدها لتحمل هموم شعوبها والتعبير عنها.

بالاضافة الى كون كارلوس فوينتس واحداً من أهم الروائيين الطليعيين في المكسيك وفي أميركا اللاتينية (اشتهر برواياته التجريبية ونقده الاجتماعي)، ووقوفه في الصف الأمامي مع زملاء روائيين معاصرين مثل: غابرييل غارسيا ماركيز، وماريو فارغاس جوسا، وخوان كارلوس أونيتي، وجورج أمادو، وخوليو كورتاثار، وجييرمو كابريرا إنفانتي، وليثاما ليما.. الخ، ليعمل معهم على الإرتقاء بالفن الروائي، فإن له، كذلك، اهتمامات واسعة أخرى تمثلت بكتابته لمسرحيتين، وللعديد من المقالات التي تناول فيها بالدراسة كلاً من الكتابة والفن المكسيكيين والأميركيين، نشرها في كتابين متتاليين، هما: «منزل ذو بابين» (١٩٧٠)، و «الزمن المكسيكي» (١٩٧١). كما انه كتب عدة سيناريوهات للسينما، وتعاون مع المخرج الاسباني لويس بانويل، وأهداه روايته

Twitter: @ketab_n

«الضمير الحي» على النحو التالي: «الى لويس بانويل. فنان زماننا العظيم. الهادم العظيم للضمائر الرخوة. الخالق العظيم للأمل الانساني».

نشر كارلوس فوينتس أول عمل له عام ١٩٥٤ بعنوان «الأيام المقنّعة»، وهو عبارة عن مجموعة قصص سوريالية. ثم أتبع هذا بروايته الأولى «أكثر الأقاليم شفافية» عام ١٩٥٨، مصوراً فيها نموذجاً عينياً من سكان مدينة مكسيكو العاصمة، والأحداث التي عاشوها ومرّوا بها منذ ثورة ١٩١٠.

قام في روايته التالية «الضمير الحي» (١٩٥٩) بالغوص في الخلفية القروية لشخصية من شخصيات روايته السابقة، وذلك باسلوب قصصي أكثر مباشرة. ثم توالت رواياته وكتبه، وكانت على التوالي:

- «آورا» (١٩٦٢)، وهي رواية قصيرة Novella، كتبها وفقاً لاسلوب هنري جيمس. (نُشِرَتْ كاملة بالعربية في مجلة الكرمل. العدد المزدوج ٢١/٢٢، ١٩٨٦. ترجمة صالح علماني).

- «موت أرتيميو كروز» (١٩٦٢)، وهي الرواية التي أكسبته شهرة وسمعة عالميتين. (نُشِرَتْ بالعربية عن مؤسسة الأبحاث العربية، سلسلة ذاكرة الشعوب، رقم ١٤، ١٩٨٤. ترجمة محمد عيتاني).

- «تغيير الجلد» (١٩٦٧). و «أيام ميلاد» (١٩٦٩). روايتان رمزيتان آلف فيهما بين الأسطورة والتاريخ، وهما الموضوعتان اللتان ظلتا تتكرران في أعمال فوينتس.

- «تِرّا نوسترا/أرضنا»، (١٩٧٥). ولقد نال عليها جائزة روموولا غاليغوس.

- «رأس هيدرا»، (١٩٧٨).

- «صلات قُربى»، (١٩٨٢).

- «ماء محترق».

يعد البعض كارلوس فوينتس مفكراً سياسياً ذا نزعة فلسفية، متأثراً بمواطنه الشاعر/ الناقد/ الفيلسوف: أوكتافيو باث، وكذلك بالشاعر خوزيه غوروستيزا. ولقد تبدّى هذا التأثر عبر تركيزه على مسألة خيانة مبادىء ومُثُل الثورة المكسيكية، كما تجلّتْ في أعماله الأخيرة قضايا تمسّ الشرط الانساني للفرد على إتساع الكون.

تتميز أعمال كارلوس فوينتس، بوجه عام، باستخدامه لمرحلة ما بعد الثورة المكسيكية، كخلفية تتحرك عليها شخوصه، وترتسم فيها أحداثه.

كما تسبر أعماله الصدمة التي أحدثتها الثورة على الصعيد الاجتماعي، وتستوحي، كذلك، ماضي الشعب المكسيكي عبر تاريخه وموروثه الميثولوجي.

هذا ولقد حاز فوينتس على «جائزة سرفانتس» للأدب للعام ١٩٨٧ تقديراً لمجمل أعماله. وتعتبر هذه الجائزة أعلى تقدير يُمنح لكاتب باللغة الاسبانية.

Twitter: @ketab_n

الى وليم ستايرون
الذي جعلني والده أحد أحلامه
عن الحرب الأهلية الاميركية

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ولكن، مَن يعرف مصير رفاته،
أو كَم من المرات سوف يُدفن؟

سير توماس براون

إن ما يدعونه الموت
انما هو الألم الأخير فحسب.

أمبروس بيرس

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

وحيدةً تجلس الآن وتتذكر.

ترى، على التتابع، أطياف توماس أرويو، والمرأة ذات الوجه القمري، والغرينغو(*) العجوز، يمرّون عبر نافذتها. لكنهم ليسوا بأشباح. لقد حشدوا، ببساطة، ماضيهم القديم، آملين في أنها ستقوم بالشيء نفسه وتنضم اليهم.

غير أن هذا استغرق منها وقتاً طويلاً.

أولاً، عليها أن تكفّ عن كراهية توماس أرّويو لأنه جعلها ترى ماذا يمكن أن تكون، ثم لم يسمح لها أبداً ان تتحول الى ما يُحتمل أن تكون.

وكان يعرف أنها لا يمكن أن تكون كذلك، لكنه على الرغم من معرفته بهذا، تركها تراه.

كان يعرف دائماً بانها سوف تعود الى بلدها.

لكنه تركها ترى ما سيكون من شأنها ان هي بقيت.

كان عليها أن تطّهر نفسها من هذه الكراهية. تطلبَ ذلك منها سنين طويلة. لم يعد الغرينغو العجوز موجوداً هناك ليساعدها. أرّويو ليس هناك. توم بروك. كان من المحتمل أن يمنحها طفلاً بهذا الاسم. ليس من حقها أن تفكر هكذا. لقد اخذته المرأة ذات الوجه القمري معها صوبَ مصيرهما غير المسمّى. انتهى توماس أرّويو.

لذا، كانت اللحظة الوحيدة المتبقية لها هي عندما عبرت الحدود والتفتت الى الرجلين، الجندي اينوسنسيو والصبي بيدريتو. ومن خلفهما اعتقدت الآن انها رأت

(*) Gringo : لقب يطلقه سكان اميركا اللاتينية عادة على الأجنبي، وخاصة على الانكليزي أو الاميركي الشمالي ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

الغبار يسير مشكلاً ذاته ومقسماً الزمن الى فتراتٍ صامتة، مما دفعها الى التذكر بأنها قد عادت الى وطنها بلا ذاكرة، وبأن المكسيك ما عادت هناك. اختفت المكسيك الى الأبد. ولكن، عبر ذاك الجسر، على الجانب الآخر من النهر، يُصَرُّ غبار الذكريات على تسيير نفسه لأجلها، وعلى عبور الحدود وكنس الشجيرات وحقول القمح، السهول والجبال ذات الدخان، الأنهر الطويلة العميقة الخضراء التي انحلت العجوز شوقاً، والتي قادتها حتى عتبة شقتها في واشنطن العاصمة، والسير على شواطىء البوتوماك، الاطلسي، مركز العالم.

هبَّ الغبار وأخبرها بأنها وحيدة.

انها تتذكر.

وحيدة.

Twitter: @ketab_n

«جاء الغرينغو العجوز الى المكسيك لكي يموت».

وجّه الكولونيل فروتوس غارسيّا اوامره لتثبت المصابيح على شكل دائرة حول الركام. قبض جنود عرقون، عُراة حتى وسطهم وبرقاب عرقة، على معاولهم، وبدأوا يحفرون بجد، دافعين برفوشهم بين نبات المسكيت الشائك.

الغرينغو العجوز: هذا ما أطلقوه على الرجل الذي كان الكولونيل يتذكره، الآن،بينما تابع الصبي بيدرو كل حركة للرجال العاملين في ليل الصحراء. ومرةً اخرى، رأى الصبي رصاصةً تثقب قطعة بيزو(*) فضيّة وهي في الهواء.

«كان محض صدفة ان التقينا ذاك الصباح في تشايهواهوا. لم يخبرنا قط، لكننا جميعاً عرفنا لماذا أتى. أرادنا ان نقتله، نحن المكسيكيين. هذا هو سبب وجوده هنا. هذا ما جعله يعبر الحدود، في تلك الأيام الماضية عندما ترك القليلون جداً منا مسقط رؤوسهم».

كانت القاذورات التي أثارتها الرفوش مثل غيوم حمراء تناثرت من السماء: واطئة جداً، وقريبة جداً من نور المصباح. لقد عبروا، قال الكولونيل غارسيّا، أجل، لقد عبَر الغرينغوويون. لقد امضوا حياتهم يعبرون الحدود، حدودهم وحدود غيرهم، وها قد عبر العجوز الآن الى الجنوب لأنه لم يبق لديه من حدود في بلده ليعبرها.

«على مهلك انت هناك».

(*) بيزو: عملة مكسيكية ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

«والحدود التي هنا؟»، سألتْ الاميركية الشمالية، ناقرةً على جبينها.
«والحدود التي هنا؟»، استجابَ الجنرال أرّويو، لامساً قلبه. «ثمة حدود وحيدة نجرؤ على اجتيازها في الليل»، قال الغوينغو العجوز: «حدود خلافاتنا مع الآخرين. ومعاركنا مع أنفسنا».

«مات الغرينغو العجوز في المكسيك. وكل هذا بسبب عبوره للحدود. ألم يكن هذا سبباً كافياً؟» سأل الكولونيل فروتوس غارسيّا.

«هل تذكر كيف كان يرتجف اذا جرح وجهه وهو يحلق؟» سأل اينوسنسيو مانسالفو، وما كانت عيناه الضيقتان الخضراوان غير شقين رفيعين.

«أو كم كان يخاف الكلاب المسعورة؟»، أضاف الكولونيل.

«هذا ليس صحيحاً،» قال الصبي بيدرو «كان شجاعاً».

«حسناً، كنت أعتقد على الدوام بأنه كان قديساً قالت لاغاردونيا ضاحكة.

«لا. ان كل ما كان يريده هو أن يُذكر كما كان»، قالت هارييت وينسلو.

«على مهلك أنت هناك، على مهلك».

«وبعد وقت طويل، عندما صار بامكاننا تجميع قطع حياته الى بعضها تدريجياً، فهمنا لماذا جاء الغرينغو العجوز الى المكسيك. لقد فعل الشيء الصواب، كما أعتقد. اذ انه ما أن جاء حتى جعل كل واحد يعرف أنه مُتعب. ان الأشياء ما عادت كما هي أبداً. لكننا احترمناه لأننا لم نره أبداً مُتعباً هنا، وأثبت على انه شجاع مثل أي رجل. أنت على حق أيها الصبي. كان شجاعاً جداً الى حدٍ أضرَّ به».

«على مهلك».

اصطدمت الرفوش بخشب وتوقفت الجنود لدقيقة، ماسحين العَرقَ من على جباههم.

اعتاد الغرينغو العجوز أن يمزح: «أريد أن اذهب لارى ان كان بمقدور هؤلاء المكسيكيين ان يطلقوا النار بشكلٍ صحيح. لقد انتهى عملي، وكذلك انا». أحبُ اللعبة، قال، أحبُ القتال، وأريد ان أراه.

«أجل يا سيدي، كان بامكانك ان ترى «الوداع» في عينيه».

«لم يكن له أية عائلة».

«لقد تقاعد وتجوّل بعدها في أراضي شبابه ـ كاليفورنيا، حيث عمل هناك صحفياً، جنوب الولايات المتحدة، حيث قاتل اثناء الحرب الاهلية، نيو أورليانز،

Twitter: @ketab_n

حيث رغب ان يسكر ويعاشر النساء ويشعر بأنه كان الشيطان نفسه».

«آه، انه الكولونيل الذي يعرف كل شيء».

«كن حذراً مع كولونيلنا، فهو يجعلك تعتقد بأنه ميّتٌ من السُكر غير انه ينصتُ تماماً.»

«والمكسيك الآن: ذاكرة عائلة. كان والده هنا، أيضاً، كجندي، عندما قاموا بغزونا قبل اكثر من نصف قرن».

«كان جندياً، قاتل ضد متوحشين عُراة ولحقَ بعلم بلاده حتى عاصمة الجنس المتحضر بعيداً الى الجنوب».

مزَح الغرينغو العجوز: أريد أن أرى ان كان بمقدور هؤلاء المكسيكيين ان يطلقوا النار بشكلٍ صحيح. «لقد انتهى عملي، وكذلك أنا».

«هذا شيء لم نفهمه لأن الذي رأيناه كان عجوزاً منتصباً، صلداً مثل مِدَك البندقية،(*) بيدين ثابتتين كصخرة. اجل، فان كان قد التحق بقوات الجنرال اوّرويو فان السبب هو انت، يا بيدريتو. أنت منحته الفرصة واستحقها هو بمسدس كولت ٤٤».

ركع الرجال حول القبر المفتوح وأزاحوا التراب من على حواف خشب الصندوق الصنوبري.

«لكنه قال أيضاً بأن الوقوف الى جدارٍ مكسيكي حجري وان تُعدم حتى التمزق انما هي الطريقة الجميلة الجيدة لانهاء هذه الحياة، اعتاد أن يبتسم ويقول: «إن في هذا لهزيمة للشيخوخة، والمرض، أو السقوط من فوق درجات القبو».

كان الكولونيل صامتاً لبعض الوقت: تملكه شعورٌ جليٌ غير مشكوكٍ فيه بانه سمعَ قطرات المطر وهي تسقط في وسط الصحراء. نظر الى الأفق الصافي. خبا صوت المحيط بعيداً.

«لم نعرف أبداً اسمه الحقيقي»، أضاف، ناظراً الى اينوسنسيو مانسالفو، نصف عارٍ وراشحاً بالعَرَق، وهو على ركبتيه امام النعش الثقيل المتماسك بتشبثٍ بالصحراء، وكأنه قد اكتسبَ جذراً في مثل هذا الوقت القصير. «نحن نواجه مشكلة

(*) قضيب تنظيف البندقية ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

مع اسماء الغرينغوويين، تماماً مثل وجوههم، انهم يبدون متشابهين، ولغتهم تبدو مثل اللغة الصينية».

ما كان للاغاردونيا ان تتفوه بأي شيء حيال استخراج جثمان من قبره، وهي التي لم تفتها عملية دفنٍ مقابل أي شيء في هذا العالم، لذا جأرت بضحكتها. «ان وجوههم الضبابية هي صينية بالنسبة لنا. كلهم متشابهون تماماً».

خلع اينوسنسيو مانسالفو نصف لوحٍ نتن من خشب النعش، ورأوا وجه الغرينغو العجوز، مُباداً بالليل اكثر مما هو مُبادٌ بالموت: مُبادٌ، فكرٌ الكولونيل فروتوس غارسيّا، بالطبيعة. كان وجهاً مخضراً يبتسم على نحوٍ غريب وقد نالته قسوة الطبيعة؛ لقد كشف فمُ الموت عن لثةٍ واسنان طويلة ـ أسنان غرينغو أو حصان ـ مشكلاً تكشيرة سخرية أبدية.

وقف كل واحد لدقيقة ناظراً الى ما أظهرته اضواء الليل، الى ضوئي العينين الغائرتين انما المفتوحتين للجثة. وكان الذي شدّ انتباه الصبي هو شعر الغرينغو، اذ بدا، وهو ميت، مُسرحاً ببراعة. كل خصلة شعر بيضاء في مكانها، وكأن هناك في الاسفل شيطاناً صغيراً مسؤولاً عن الشعر قد تحمل مهمة تزيينه كي يبدو منتظماً مثل حقلٍ محصود للتو عندما يجد الموتى انفسهم وجهاً لوجه أمام الحاصد المتجهم.

«الحاصد المتجهم!» قهقهت المرأة التي تدعى لاغاردونيا.

«هيا أسرعوا، اسرعوا الآن»، أمر فروتوس غارسيّا. «فلنخرجه من هنا. يُفترض ان نوصل ابن الزنا العجوز هذا الى كامارغو غداً في الصباح الباكر». كان صوته متوتراً. «اسرعوا الآن، امامنا طريق طويل مغُبَّر، واذا ما هبَّت الريح فسيضيع الغرينغو العجوز الى الأبد...».

والحقيقة انهم كادوا يضيّعوه بالفعل، اذ هبَّت الريحُ عابرةً أراضي يباباً مالحة سبخيّة، هذه الأرض العائدة الى هنود لا يمكن قهرهم واسبانيين مرتدين عن الدين، لصوص المواشي في المنحدرات الشديدة وعمال المناجم المهجورين المتهتكين حتى فيضانات الجحيم المعتمة. الحقيقة أن جثة الغرينغو العجوز قد تلاشت تقريباً في ريح الصحراء، وكأن الحدود التي عبرها ذات يوم كانت الهواء، وليست التراب، وانها شملت كافة الأزمنة التي بمقدور الجميع تذكرها، وانها علقت في الهواء هناك، مع جسدٍ مستخرج من القبر بين اذرعهم: كانت لاغاردونيا، وهي تزيل القذارة عن

Twitter: @ketab_n

جسد الغرينغو العجوز، تنتحب متعجلة للانتهاء من ذلك. والصبي لا يجرؤ على لمس الرجل الميت. والآخرون، يتذكرون المسافات الطويلة والفضاءات الفسيحة على كلا جانبي الجرح المفتوح على الشمال مثل نهر الريوغراندي(١) نفسه، هابطاً من الوديان الضيقة شديدة الانحدار والعلو، وشاهقاً في البعد كما هي جبال السانجر دي كريستو، جُزرٌ في صحارى الشمال، أراضٍ قديمة لقبائل الييبلو، والنافاجو والأباتشي، صيادون وفلاحون نصف خاضعين للاسبان المغامرين في العالم الجديد؛ انهم، من اراضي تشايهواهوا والريوغراندي، يبدوان معاً (الجانبان)(٢) انهما سيموتان هنا، فوق هذا السهل المرتفع حيث توقفت مجموعة من الجنود لثوانٍ قليلة يتأملون البييتا، منبهرين بما فعلوا وبعاطفة مصاحبة، الى ان كسر الكولونيل جمود الصمت: اسرعوا، ايها الشباب، علينا ان نعيد الغرينغو الى بلده، هذه هي أوامر جنرالنا.

وعندها رأى العينين الغائرتين الزرقاوين للرجل الميت، وكان خائفاً، لأنهما ولوهلة افتقرتا الى ما يريده الرجال البعيدون من الموت. ولأنهما بدتا حيتين خاطب الكولونيل هاتين العينين: «الم تفكروا قط، انتم ايها الغرينغويون، بان كل هذه الأراضي كانت لنا؟ آه، ان غيظنا وذاكرتنا يمضيان معاً».

حدّق انيوسنسيو مانسالفو بقائده الكولونيل وارتدى قميصه المُغطى بالقذارة. مشى نحو حصانه، نافضاً الغبار عن قبعته، وتسارعت الاشياء بعد ذلك، الأفعال، الأوامر، الحركات: كان ثمة منظر واحد، يبتعد شيئاً فشيئاً ثم يخبو حتى تراجعت المجموعة عن المشهد: الكولونيل فروتوس غارسيّا والصبي بيدرو، الغاردونيا المقهقهة وانيوسنسيو مانسالفو المرهق، الجنود وجثة الغرينغو العجوز المتخشبة وقد لُفّت ببطانية وربطت الى مزلجة الصحراء ـ محفة من الاغصان، والسيور الجلدية ـ مجرورة بحصانين معصوبي العينين.

«ان تكون غرينغو في المكسيك؟». ابتسم الكولونيل. «آه، ان هذا هو القتل الرحيم(٣). هذا ما قاله الغرينغو العجوز».

---

(١) النهر الذي يرسم الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك، ويُطلق عليه أيضاً اسم الريوبرافو ـ المترجم ـ.

(٢) اضافة مني الى سياق الجملة كي يتضح المعنى بسبب الطول والتكثيف لجُمل فوينتس الاستطرادية. ـ المترجم ـ.

(٣) قتل من يشكو مرضاً عضالاً بطريقة خالية من الألم. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

ما أن عبرَ الريوغراندي حتى سمع الانفجار والتفت ليرى الجسر تلتهمه النيران.

هبط من القطار في ألـ باسو حاملاً حقيبته الخفيفة السوداء، والتي أُطلقَ عليها آنذاك اسم غلادستون، مرتدياً الأسود بالكامل ما عدا كُميّه الأبيضين الممتدين وصدر القميص. كان قد حدّثَ نفسه بأنه لن يحتاج الى كثير من الأمتعة في هذه الرحلة. سار متخطياً عدة بنايات في البلدة الحدودية. كان قد تخيّلها اكثر جفافاً وكآبةً وقِدَماً عمّا هي عليه، وانها، أيضاً، تعاني بسبب الثورة والغضب الفائر الآتي من وراء النهر. وبدلاً من ذلك، كانت بلدة سيارات لامعة جديدة، ومحلات تبيع أشياء رخيصة الثمن، وشُبّان في أعمار طازجة من الصعب أن يكونوا قد ولدوا في القرن التاسع عشر. وبحث بلا جدوى عن فكرته عن الحدود الأميركية. لم يكن سهلاً شراء حصان دون التعرض الى أسئلة في غير محلها عن غاية الفارس.

كان بامكانه اجتياز الحدود وشراء حصان في المكسيك. لكن العجوز أراد أن يجعل الحياة صعبةً عليه. بالاضافة الى أنه قد رسّخَ في ذهنه انه بحاجة الى حصانٍ أميركي. وفي حالة فتحهم لحقيبته عند الجمارك، فان كل ما سيجدونه هو بضع ساندويتشات لحم خنزير، موس حلاقة، فرشاة أسنان، نسختان من كتبه هو، نسخة من **دون كيخوت**، قميص نظيف، ومسدس كولت ٤٤ ملفوف بملابسه الداخلية. لم يكن يريد أن يفسّر لماذا يسافر بمؤنٍ احتياطية خفيفة كهذه، وإن كانت قليلة ومرتبة.

«تقصدتُ أن اكون جثة جميلة».

«والكتب، سنيور؟».

«انها كتبي».

Twitter: @ketab_n

«لم يتهمك احد بسرقتها».

وباستسلام، ما كان العجوز ليقدّم ايضاحات اكثر من هذه. «أردت طوال حياتي أن أقرأ الكيخوته. أحب أن أقرأه قبل أن أموت. توقفتُ عن الكتابة للأبد.».

تخيّل المشهد، وأخبر الرجل الذي باعه الحصان بأنه ينوي البحث عن أرضٍ شمال المدينة ليقوم باستصلاحها، وأن الحصان ما يزال أكثر نفعاً، رغم تعب العناية به، من تلك الآلات الجهنمية. قال البائع بأن هذا صحيح، وأنه يتمنّى لو أن الجميع يفكرون مثله، لأن أحداً لا يشتري الخيول هذه الأيام خلا عملاء المتمردين المكسيكيين. وهذا هو سبب ارتفاع السعر قليلاً؛ اذ ثمة ثورة على الجانب الآخر من الحدود، والثورات مفيدة للتجارة.

«أجل. ثمة فائدة ما تزال لحصانٍ جيد»، قال العجوز، وامتطى صهوة مهرة بيضاء ستكون ظاهرة في الليل وستجعل الحياة صعبة لصاحبها حين يريد لحياته أن تكون صعبة.

والآن، عليه أن يحتفظ باحساسه بالاتجاه لأنه، ومع أن الحدود مرسومة بفساحة ووضوح بواسطة النهر الجّار لـ ال باسو من سيواداد خواريز، الاّ أنه ليس من علامة خلف البلدة المكسيكية سوى الخط في البعيد حيث تلتقي السماء بسهل جاف وسخ.

استمر الأفق بالتراجع كلما مضى العجوز قدماً. تأرجحت ساقاه الطويلتان تحت بطن المهرة. اهتزت حقيبته السوداء في حضنه. وعلى بُعد عشرين كيلومتراً غرب ال باسو خاض في النهر من أضيق نقاطه في الوقت الذي شُدَّتْ فيه أنظار الجميع نحو الانفجار على الجسر. وفي تلك اللحظة ذابت في عيني العجوز الصافيتين جميع مدن الذهب، والبعثات التي لم ترجع أبداً، والرهبان التائهون، وقبائل التوبوسو واللاغونير والهائمة على وجهها والمحتضرة والتي نجت من أوبئة الأوروبيين ونزحت عن المدن الاسبانية لتروّض الحصان، وتستخدم القوس والمسدس في فترة لاحقة، وذلك عبر جَزْرٍ ومدٍّ لا متناهيين من النشوءات والانحلالات، استخراج كُتل الذهب الضخمة من المناجم ومن ثم الكساد، الابادات الجماعية وسع الأراضي نفسها والمنسيّة نَسْيَ أسى رجالها ومراراتهم المكدسة.

تمردٌ وقمع، بلاءٌ ومجاعة ـ عرف العجوز انه يدخل أراضي تشايهواهوا والريو غراندي المُتعبة، مخلّفاً في الوراء ملاذ ومأوى ال باسو الذي تكوّن من مئة وثلاثين مستوطناً وسبعة آلاف رأس من الماشية. كان يتوغل في الملاذ المقدس للهائمين الذين وفدوا من الشمال ومن الجنوب: ملاذٌ مهلهل متقلقل في أراضٍ صحراوية جافة: شارع رئيسي واحد، فندق وآلة بيانولا، نوافير مياه غازية وسيارات فورد تجار، وجواب الشمال الغازي لسراييات الصحراء: جسرٌ حديدي مُعَلّق، محطة قطار، غيمٌ أزرق مستورد من شيكاغو وفيلادلفيا.

Twitter: @ketab_n

بات هو الآن لاجئاً باختياره. لاجئاً بالقدر الذي كان عليه الناجون القدماء من هجمات الكونشوس والاباتشي، والذين دفعتهم الحاجة الضرورية القاسية، والأوبئة، والغُبن، والتحرر من الوهم، الى أن يهيموا من جديد: كل هذا كان محفوراً في رأس الغرينغو العجوز عندما اجتاز الحدود بين المكسيك والولايات المتحدة. ولا غرابة اذن في انهم جميعاً قد تعبوا من الطيران المتواصل وانهم لأكثر من مائة سنه ظلوا متورطين في شرك أشواك نظام المزرعة الكبيرة.

ولكن ربما كان يحمل خوفاً مختلفاً، ذاك الذي عبّر عنه عندما اجتاز الحدود: «أخشى أن كل واحدٍ منا يحمل في داخله الحدود الحقيقية».

تفجر الجسر في البعيد وتوّجه هو يميناً باتجاه الجنوب، شاعراً بالثقة بقدرته على الاحتمال (صار الآن في المكسيك، وهذا كافٍ له) حين شم عند الغَسَق نكهة التورتيلا(*) والفاصولياء.

اقترب من الكوخ الطيني الرمادي، وسأل، بلهجته الاسبانية الخاصة، إن كان بامكانهم أن يوفروا له وجبة وبطانية لينام عليها. قال السمينون أصحاب البيت الصاعد منه الدخان، نعم، ايستا اي سوكاسا، سنيور. esta es succasa Señor(١).

كان يعرف جملة المجاملة لدى المكسيكيين هذه، ولكنه توّقع أنه بعد أن وفّر له المكان، سوف يشعر مضيفه بأنه حُرّ في إخضاعه لجميع صنوف الاهانات وضروب الاذلال، وخاصة تلك التي تنم عن شكٍ مبعثه الغيرة. لكنه شكمَ رغبته في إثارة شجار، لم يحن الوقت، حدّث نفسه، لم يحن الوقت. تلك الليلة، شاعراً بالنعاس فوق حصيرة القش ومرتدياً ثيابه السوداء، مُنصتاً الى تنفس مضيفيه الثقيل وكلابهما، شامّاً رائحة الزوجين الحادة، رائحة مختلفة عن رائحته لأنهم يأكلون على نحوٍ مختلف ويفكرون ويحبون ويخافون على نحوٍ مختلف، أحسّ بالسعادة لأنها قدما له بيتهما. ماذا خسر في أربع إصابات متتالية لا يمكن اصلاحها، سوى ذلك الاطمئنان؟ وفي النهاية، هل من سبب آخر يملكه، اعترف، مقاوماً سِنَة نومه الماكرة، لكي يخب بمهرته صوب الجنوب، الحدود الوحيدة المتبقية له بعد الارهاق لسنيه الاحدى والسبعين، غير التخوم الثلاثة الأخرى للقارة الأميركية الشمالية، وحتى الحدود السوداء التي حاول الفدراليون تأسيسها في الـ ٦١؟. والآن كل ما تبقى هو الجنوب المفتوح، الباب المُشرع الوحيد لتصادمه مع عَصْف القدر الخامس الأعمى والقاتل.

(*) تورتيللا: خبز الذرة. ـ المترجم ـ.

(١) هذا البيت بيتك، يا سيدي.

Twitter: @ketab_n

إرتفَع الفجر فوق حافة الجبل.

«أهذا هو الطريق الى تشايهواهوا؟»، سأل مضيفه السمين.

هزَّ المكسيكي رأسه، وسأل بدوره وقد نظر بغيرةٍ صوب باب بيته المُغلق: «وما الذي يأخذكَ الى تشايهواهوا، أيها السيد؟».

واذ تكلم بالاسبانية، أضاف المكسيكي حرف ee الى كلمة mister (السيد) بحيث بدت misteree، وفكّر العجوز كيف يكون، دائماً، التأثير الأول للغرينغو على المكسيكي، اذ تُخلق حالة التباس. حالة لا يعرف كيف يفهمها: صديق هو أم عدو؟. وعلى العموم فهما لم يبرّئاه رغم فقدانهما لما يدّل على إدانته.

استطرد المكسيكي: «ان القتال كثيف هناك. انها منطقة نفوذ بانشو فيللا(*)».

كانت نظرته اكثر بلاغة من كلماته. شكره العجوز وامتطى المهرة. ومن خلفه سمع. المكسيكي يوبّخ المرأة التي تجرأت الآن فقط على استراق النظر خارج البيت. فكر العجوز في ان بمقدوره تخيّل كآبة عينيها؛ فالرحيل مؤلم للذي عليه أن يبقى، ولكنه اكثر متعةً للمسافر مما يمكن أن يكون عليه. حاول الغرينغو العجوز أن يبعد الفكرة المطمئنة عنه والتي يمكن أن تثير الغيرة لدى الآخر.

بدت الجبال مثل قبضات مُتعَبة سمراء الجلد، وتخيّل العجوز جسد المكسيك كجثةٍ عملاقة بعظامٍ من فضة، وعيونٍ من ذهب، ولحمٍ من حجر، وخصيتين صلبتين كالنحاس.

كانت الجبال هي القبضات. كان ينوي أن يفتحها، واحدةً إثر أخرى، آملاً في أنه عاجلاً أو آجلاً، مثل نملةٍ تنطلق بسرعة فوق أخدودٍ من الرمل، سوف يعثر على ما يسعى اليه.

ربط حصانه في تلك الليلة الى شجيرة صبّار ضخمة، وغَطَّ في نومٍ تعطش اليه كثيراً، ممتناً لشبابه الداخلية الصوفية. حلم بالذي رآه قبل أن ينام: نجومٌ جديدة مُزّرقة وأخرى ميتة صفراء. حاول أن ينسى أطفاله الميتين، متساءلاً مَن من النجوم تلك التي خمدت اللحظة، وأن نورها ليس اكثر مما هو عليه وهمه: ميراثٌ من النجوم الميتة للعيون الآدمية التي ستواصل تمجيدها لقرونٍ بعد انطفائها في مأساةٍ قديمة من غبارٍ ودخان.

(*) بانشوفيللا: قائد ثوري مكسيكي. أنظر ثبت الشخصيات التاريخية رقم (١). ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

حلم انه يعبر على جسرٍ يبتلعه الدخان. استيقظ، لم يكن يحلم. لقد رأى الجسر ذاك الصباح حين عبر الى المكسيك. لكنه الآن، وهو يحدّق بالنجوم، حدّث العجوز نفسه: «إن عينيّ تشعان بضياء اكثر من أي نجم. لن يراني أحد عجوزاً وعاجزاً قط. سأبقى شاباً دائماً لأنني تجرأت اليوم أن اكون شاباً من جديد. سأظل أُذكر دائماً كما كنت».

عينان معدنيّتا الزرقة تحت حاجبين ارمشين أشقرين تقريباً. لم تكن تلك الجفون خير وسيلة تقيه الريح الجافّة والشمس الملتهبة، التي دفعته في اليوم التالي نحو قلب الصحراء، قاضماً برفق، بين الحين والآخر، قطعة من ساندويتش جاف، مكوّناً حافة بلا شكل لقبعة سوداء محنّية على سقف شعره الفضي. شعر بأنه مثل وحش عملاق أمهق(*) في عالم أبقته الشمسُ كاحتياطٍ للمفضّلين لديها. بَشَرُ الظلال المحميّون بالظلمة. خمدت الريح بينما واصلت الشمس سعيرها. وعند الظهيرة سوف يتسلخ جلده. كان في العمق من الصحراء المكسيكية، أُخت الصحراء الكبرى وصحراء جوبي، امتدادٌ لصحاري أريزونا ويوما، مرآةً لحزام العَظَمَة العقيمة التي تطوّق الكرة الأرضية كأنما ليذّكرها بأن الرمال الباردة، والسماوات المحترقة، والجمال العاقر، ينتظرون بصبرٍ وتيقظ قهر الأرض من جديد من رحمها الحميم ذاته: الصحراء.

«جاء الغرينغو العجوز الى المكسيك لكي يموت.».

ومع ذلك فلقد شعر، متهادياً بثبات وماضياً قُدماً فوق المهرة البيضاء، بأن رغبته بالموت انما كانت مدعاة للتهكم. جال ببصره في الصحراء من حوله. نبتَ الصبّار الأميركي على نحوٍ وتريّ وحادٍّ مثل رأس سيف. وعلى كل فرع من فروع شجرة الخشب الشمعي حَمَتْ الأشواك الجمال غير الملموس للوردة المتوحشة الحمراء. وركزّتْ صفصافة الصحراء في وردةٍ وحيدة شاحبة ضاربة الى لون الأرجوان كل حلاوة عطرها الباعث على الغثيان. ونما نبات Choya متحلقاً وطويلاً ليقي زهراته الصفراء. ربما جاء الغرينغو باحثاً عن فيللا وعن الثورة، لكن الصحراء كانت هي رمز الحرب: حربٌ اسبانية، حربٌ مثل ريش الأباتشي، وأشواك معقوفة كالكلاليب لنباتات باهتة الاخضرار وعدوانية. كانت صفوف الأعشاب الملتّفة هي حارس الصحراء الأمامي.. الأخوة النباتيون لقطعان الذئاب الليلية.

حلّقتْ الصقور على شكل دوائر، فرفع العجوز رأسه ونظر، بحَذَر، نحو الأرض. ففي الصحراء تلسع العقارب والأفاعي الغرباء فقط. والمسافر غريبٌ دائماً. نظر بانبهار الى

(*) الأمهق: شخص أو حيوان لَبَنيّ البشرة أبيض الشعر قرنفلي العينين. ـ المورد ـ

Twitter: @ketab_n

الأعلى، ثم الى الأسفل. لقد سمع غناء اليمام الحزين، سريعاً كالسهام، إذ أربكته الصقور الجوّالة بطيرانها. وفي العلو البعيد تذوي أصوات الطيور مثل حفيف عشبٍ يابس.

أغلقَ عينيه لكنه لم ينخس حصانه.

عندها أخبرته الصحراء بأن الموت ليس اكثر من استنزاف لقوانين الطبيعة: الحياة هي قانون اللعبة، وليست الاستثناء، حتى وإن كانت الصحراء الميّتة، على ما يبدو، تخفي كلمة الحياة الدقيقة التي تُنشيء، وتُطيل، وتحاكي قوانين الوجود الانساني. لم يستطع تحرير نفسه ـ حتى وإن أراد ذلك ـ من الالزام القاتل للاجدوى الذي جاء من أجلها مدفوعاً بارادته الحرّة، بلا أي أمرٍ من أحد: أيها الغرينغو العجوز، إمضِ الى الصحراء.

غَطّتْ الرمال نبات المسكيت الشائك. ومضَ الأفقُ وشعّ أمام العينين. دثّرتْ الأرضَ خيالاتُ غيومٍ لا تنقشع على هيئة حُجُب منقطة. عبأت رائحةُ الأرض الهواء. تناثر قوسُ قزح في مرآةٍ من ذاته. طبقات متلوّية إتقدت على شكل كُتل صفراء متعنقدة. كلُ شيء دمّرته ريحٌ قلوّية.

سعلَ الغرينغو العجوز مغطياً وجهه بوشاحٍ أسود. انحسرَ تنفسه مثلما تراجعت المياه عن الأرض منذ زمن بعيد لتخلق الصحراء. تاقَ للهواء توقَ أشجار الأرزِ المالحة، النامية على ضفاف جدولٍ شققها الجفاف، الى الرطوبة والندى.

كان عليه أن يتوقف، وقد هزّتهنوبةُ ربو، وترجّل متألماً، مجاهداً ليأخذ نَفَساً، ودافناً رأسه بخشوع في شعر المهرة. ورغم كل شيء، قال: «انني أتحكم بمصيري».

Twitter: @ketab_n

قال اينوسنسيو مانسالفو حالما رأى الغرينغو يدخل المعسكر: «جاء ذلك الرجل الى هنا ليموت»..

ولأن بيدرو كان في الحادية عشرة من عمره فقط، وما يزال أمامه شوط طويل ليصبح على قدم المساواة مع رجل عصابات شجاع مثل ذاك الذي من تورّينيون، كواهويلا، فانه لم يفهم تماماً ما عناه اينوسنسيو. لكن الغرينغو حظي منذ تلك اللحظة بكامل احترامه. ربّما كان مانسالفو أسداً في المعركة، غير انه كان أشد فتكاً حين بلغ به الأمر أن يتنبأ بمصير شخص. وثبت في النهاية أن الغرينغو العجوز كان أشجع من أي واحد في المعارك التي نشبت في تشايهواهوا. وربما أحسّ مانسالفو بشجاعة الغرينغو الانتحارية لحظة رآه، ولهذا قال ما قاله.

«لقد جاء ذلك الغرينغو الى هنا ممتطياً حصانه كما لو كان مستعداً لمعركة، كما لو أنه أراد أن يتحدّانا جميعاً، حتى وان عنى ذلك أن ننقضّ عليه ونقطعه قطعاً صغيرة».

«تستطيع أن ترى انه رجل يتحلى بالشرف. لقد جاء بلا أغراض سيئة». قال الكولونيل فروتوس غارسيا، الذي كان والده ذا أصلٍ إسباني «تستطيع أن ترى ذلك على الفور».

«أقول لك، جاء ليموت»..، أصرَّ اينوسنسيو.

«ولكن بشرف»، كرر الكولونيل قائلاً.

«أنا لا أعرف شيئاً عن «بشرف» ما دام انه غرينغو. أما كونه جاء ليموت، فنعم».

قال مانسالفو مرة أخرى. «ماذا يتوقع منا غرينغو غير ذلك، الموت؟».

«لماذا يجب أن يكون الأمر على هذا النحو؟».

Twitter: @ketab_n

تكشفتْ أسنان اينوسنسيو لامعةً الى درجة أن برقت عيناه اخضراراً «لأنه اجتاز الحدود. أليس هذا سبباً كافياً؟».

«بربي، هذا ليس كافياً»، قالت لاغاردونيا، ضاحكةً ـ تلك البغى المرعبة من دورانجو التي ربطت نفسها بالقوات، تلك البغي الوحيدة المحترفة بين النساء العديدات الشريفات المواكبات لقوات جنرالنا أرّوبو. «إن ما يقوم به لصلاةٌ. لا بد أنه قدّيس».

وضحكت بعنف الى درجة أن المساحيق على خدّيها السمينين تشقّقت مثل الورنيش الذي جففته الشمس. دفنت أنفها في باقة ورود ميتة كانت تثبتها دائماً على صدرها بالدبابيس.

فيما بعد، خلال الأيام القليلة من ارتحاله مع قوات فيللا، تبيّن لكل من اينوسنسيو والكولونيل أن الغرينغو العجوز كان حريصاً على مظهره مثل صبية تتهيأ لرقصتها الأولى. كان يمتلك موس حلاقته الخاصة ويحرص على ابقائها مشحوذة. فتّش المعسكر بدقة حتى عثر على ماءٍ مغليّ ليحصل على أنعم حلاقة. حتى انه ـ الطاووس العجوز! ـ ذهب الى حيث توّقع العثور على منشفة دافئة. لكن آه، لو انه سَها وجرح نفسه! ـ رغم انه يملك مرآة جيدة تحت تصرفه في مقطورة الجنرال أرّوبو. لم يسبق أبداً لأحدٍ منا أن حلق ذقنه مستعيناً بمرآة، بل بالاحساس فقط، وعلى أحسن الأحوال عبر المرآة المتخلقة من النهر. ولكن ماذا سيحصل إن حزَّ ذاك العجوز نفسه، أي تصرف أحمق كان سيقوم به: يشحب اكثر؛ ويمسح على الجرح برفق كأنه سينزف حتى الموت؛ ينتشل بضع أوراق رفيعة بيضاء ويغطي الجرح بسرعة، وكأنه لا يكترث للنزف أو التلوث بقدر ما يكترث لمظهره.

«كل ما في المسألة أنه لم يسبق له ان مات من قبل طوال حياته»، صرختْ لاغاردونيا، غير بادٍ عليها انها قدمت من مبغى في دورانجو بقدر ما تبدو كأنها جاءت من الأرض المقدسة حيث يرفض الرهبان دفن امرأة على شاكلتها.

«كلكم تقولون بأن الموت بعثَ به»، قالت وهي تعطس، وكأنما ورودها ما زالت يانعة، «أنا أقول بأن الشيطان أرسله لأنه، وهو الشيطان، لم يقبل به. ماذا يفعل هنا؟ عليه أن يكون فقيراً مثلكم جميعاً أو ابن حرام مثلي أو بخيلاً مثل... مثل نفسه».

«يبدو كأنه يصلي، أو باحثاً عن شيء ما»، قال مانسالفو عن بُعد.

«ثمة حزن في عينيه»، قالت لاغاردونيا فجأةً، وبدأ احترامها له منذ تلك اللحظة.

وصل الى هناك أخيراً، على مشارف السهل، بعد أربعة أيام من ارتحاله، وحيداً،

Twitter: @ketab_n

شاقاً طريقه بصعوبة، في الأرض القاسية: سهلٌ نُقِطَ بالخيام التي يتصاعد منها الدخان والتي انتثرتْ مثل ضربة فرشاة الكريوسوت(*) حول قطار مشلول رابض على قضبان السكة. وما إن راحَ يخبّ الآن بحصانه عبر الفرشاة الناعمة حتى ترامى المشهد أمام ناظريه: عربات قطار مثل بيوت متنقلة على عجلات لنساء وأطفال الجنود المستريحين فوق أسطح المركبات يدخنون سجائر ملفوفة بتراخٍ ومُصفّرة الورق.

لقد فعلها.

لقد وصل أخيراً. سأل نفسه، وهو يخبّ بفرسه، فيما اذا كان يعرف، حقاً، اي شيء عن هذا البلد، ومثلما البرق، لمعتْ في عينيه الزرقاوين الصورة البعيدة لغرفة التحرير في احداثيات سان فرانسيسكو، حيث كانت تتردد بكسل أخبار المكسيك عبر الهواء، لاكما الاشارات التي أبقتْ الصحفيين يأملون: فضائح محلية، أحداث وطنية؛ كان صحافيو امبراطورية ويليام راندولف هيرست(١) أخيليين(٢) أميركيين فعّالين، لا سلاحف مكسيكية، وكانوا رشيقين في مسابقة الأخبار، ويلفقونها عند الضرورة. قصص اخبارية، غنائم الصيد تنفجر فجأة للعيان من خلال نوافذ غرفة تحرير هيرست: في ويسكونسن تم انتخاب لافوليت وفق برنامج شعبي، أبتون سنكلير(٣) ينشر الغاب، وُلِّيَ تافت واعداً بإعادة النظر في التعرفة؛ وفرعون قديم(*) اختفى في قصر تشابلتيبيك، مصرّحاً مساءً بعد مساء «اقتلوهم وهُم ساخنون!» ومحتفظاً بنفسه حيًّا بمجرد تصويبه عيناً يقظة وعدائية على الصقور المُحلقة حول قصور المكسيك وكنائسها. عجوزٌ يقظ، بهجة للصحفيين، طاغية طاعنٌ في السن وعبقري في نشر عبارات: «يا للمكسيك التعسة، قصية جداً عن الله وقريبة جداً من الولايات المتحدة». عناوين أخبار مبتذلة ومهيّجة، أنباء مثل ذباب سمين أخضر في ظهيرة صيف، تطّن في غرفة الأخبار لـ احداثيات سان فرانسيسكو، حيث تجاهد مراوح

(*) Creosote: سائل زيتي يُستحضر بتقطير القطران ويستخدم لصيانة الخشب ومعالجة السعال. ـ المورد ـ.

(١) ويليام راندولف هيرست: انظر ثبت الشخصيات التاريخية، رقم (٢). ـ المترجم ـ.

(٢) من أخيل، البطل الأسطوري في ملحمة الالياذة لهوميروس، الذي يرمز الى السرعة، والذي مات نتيجة اصابته بسهم في كاحله. ـ المترجم ـ.

(٣) Upton Sinclair: روائي اميركي ولد عام ١٨٧٨. اشتهر بروايته «الغاب» (١٩٠٦) التي فضح فيها الشروط المرعبة لسوق أسهم شيكاغو والسطوة الرهيبة لصناعة تعليب اللحوم. (ترجم الرواية الى العربية عبد الكريم ناصيف، صدرت في دمشق). كان صاحب نزعة اشتراكية واشتهر بأنه باحث عن فضائح الصناعيين، والسياسيين، ورجال الدين، والمرابين، وبنشرها على الجميع. نال جائزة بوليتزر للرواية عام ١٩٤٣ على روايته «سن التنين» التي صور فيها صعود هتلر الى السلطة. ـ المترجم ـ.

(*) المقصود هو فيكتوريانو هويرتا. انظر الشخصيات التاريخية، رقم (٧). ـ. المترجم ـ

Twitter: @ketab_n

بليدة كبيرة بنيّة بلا جدوى لطرد الهواء شديد الحرارة والرطوبة. قدّمتْ جامعة برينستون مستر ويلسون؛ إنشّقَ تيدي روزفلت ليشكّل حزب البُل موس؛ وفي المكسيك، ثمة قُطّاع طُرق يُسّمونَ كارانزا(٤)، أوبريغون(٥)، فيللا، وزاباتا(٦)، امتشقوا السلاح لهدف ثانوي هو الثأر لمقتل مادیرو(٧) والاطاحة بذاك الطاغية السكير فيكتوريانوهويرتا(٨)؛ انما الهدف الأساسي يتمثل في سلب أراضي هيرست. تحدث ويلسون(٩) عن الحرية الجديدة وقال بأنه ينوي تعليم المكسيكيين الديمقراطية. وطالب هيرست: تدخلوا في مجريات الأحداث، إنها الحرب، نريد تعويضات عن الأضرار.

«ما كان عليكَ أن تأتي الى المكسيك لتُقتَل، يا بني»، خاطبهُ ظِّلُ أبيه. «هل تذكر عندما بدأت بالكتابة؟ كان هناك مَن راهنوا على مثابرتك».

«إن ما يفعله هو انه يصّلي»، قالت لاغاردونيا. «لا بد أنه قدّيس.».

«لن يدفنوكِ في أرض مقدسة»، قال اينوسنسيو ضاحكاً.

«أتعتقد ذلك؟»، قالت لاغاردونيا، «لقد رتبت كل شيء مع عائلتي في دورانجو. عندما أموت سيقولون بأنني عمتي جوزيفا أرّيولو. لقد أمضت كل حياتها عذراء، طاهرة الى حد أن لا أحد يتذكر عنها شيئاً. إنّ الرهبان يتذكرون الخُطاة فقط..».

«حسن، سوف نرى الى أي جانب يقف الغرينغو، الى جانب القدّيسين أم الخُطاة».

«ماذا يمكن أن تكون بغية غرينغو منا؟».

كان الغرينغو العجوز يعلم بوجود حشود مندفعة من الصحفيين مثله، أتوا من جانبيّ الشاطئين، يحومون حول جيش بانشو فيللا؛ ولذا لم يوقفه أحد عند تقدمه ممتطياً حصانه عبر المعسكر. غير أنهم نظروا اليه بتشكك: فهو لم يبد كصحفي، اعتاد الكولونيل فروتوس غارسياً قول ذلك، وليس من المستغرب والحالة هذه أن ينظروا باستهجان الى عجوز طويل، نحيل، أبيض الشعر أزرق العينين، ببشرة وردية حززتها تغضنات مثل الأثلام في حقل ذُرة، وساقين متدليين الى ما تحت ركابه. ولأن أباه كان من أصلٍ أسباني ورجل أعمال في سالامنكا وغوان غواتا، فقد قال فروتوس غارسيًا إنّ رعاة الماعز والخادمات الفظّات قد نظروا بهذه الطريقة الى دون كيخوت عندما جاء داساً أنفه في قراهم دون دعوة، ممتطياً ظهر فرسٍ عظميّة هرمة، ومحارباً برمحه جيوشاً من السحرة.

(٤، ٥، ٦، ٧، ٨) شخصيات سياسية مكسيكية لعبت دوراً في مجريات الثورة المكسيكية. انظر ثبت الشخصيات التاريخية، من رقم ٣ حتى رقم ٧. ـ المترجم ـ.

(٩) وودرو ويلسون: انظر ثبت الشخصيات التاريخية، رقم (٨). ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

«أيها الطبيب! أيها الطبيب!»، هتفوا به من العربات المكتظة حين لمحوا بتلصص الحقيبة السوداء.

«لا. لستُ طبيباً. فيللا. أنا أبحث عن بانشو فيللا»، هتف العجوز يرّد عليهم.

«فيللا! فيللا! فيفا فيللا!» هتفوا بصوتٍ واحد، الى أن زعق جندي يعتمر قبعة مكسيكية مُقّلمة وقذرة جفَّ عليها العرق ضاحكاً من فوق سطح عربة بضائع «كلنا فيللا!».

أحسَّ الغرينغو العجوز بأن أحدهم يشدّه من ساق بنطاله فحدّقَ الى أسفل. كان صبياً في الحادية عشرة بعينين مثل رخامتين سوداوين وحزامي رصاص تدليا على صدره. قال: «أتريد أن تلتقي ببانشوفيللا؟ سيجتمع به الجنرال هذه الليلة. تعال وقابل الجنرال، سنيور.».

أمسكَ الصبي بسيري لجام حصان العجوز وقاده باتجاه احدى عربات السكة الحديدية، حيث كان رجل بفكين قويين، وشارب خفيف، وعينين ضيقتين صفراوين؛ يأكل شريحة خبز، وينفخ خصلة شعرٍ نحاسي سبط ليبعدها عن عينيه.

«من أنتَ، أيها الغرينغو؟ صحفي آخر؟»، سأل الرجل ذو العينين الضيقتين، مؤرجحاً ساقيه الملفوفتين بغطء الساق الجلدي من الباب المفتوح لعربة تحويل القطار. «أم انكَ أتيت لتبيعنا ذخائر؟».

«هذا الرجل جاء الى هنا باحثاً عن الموت»، أراد اينوسنسيو مانسالفو أن يخبر رئيسه، غير أن لاغاردونيا أطبقت على فمه بيدها في الوقت المناسب: أرادت أن تعرف فيما اذا كان صحيحاً ما فكرّ به أصدقاؤها الثلاثة ذاك الصباح. قاد الصبي ذو الاحدى عشرة سنة حصان الغريب.

هز العجوز رأسه وقال بأنه جاء لينضّم الى جيش فيللا. «أريد أن أقاتل».

تفتحتْ العينان الضيقتان عن شقٍ صغير، وانفتحَ القناعُ المُغبر عن مَرَحٍ. رددت لاغاردونيا صدى الضحكة، وانضمّت الى المرأة ذات التنورة البالية الطويلة والتي قدمت من المطبخ في نهاية عربة البضائع البعيدة، ملتفةً معها بدثارها، ووقفتا لتعرفا ما الذي دفع الجنرال الى الضحك بهذا الضجيج.

«أيها العجوز! أيها العجوز!»، قال الجنرال الشاب، ضاحكاً «أنتَ عجوزٌ جداً! اذهبْ واسق حديقتك، أيها العجوز! ما الذي تفعله هنا؟ نحن لسنا بحاجة الى ثِقلٍ ميّت.

Twitter: @ketab_n

نحن نطلق الرصاص على أسرانا كي لا نسوقهم معنا طوال الطريق. هذا جيش من مقاتلي العصابات، أتفهم طبيعة هذا؟».

«جئتُ لأقاتل»، قال الغرينغو.

«جاء ليموت»، قال اينوسنسيو مانسالفو.

«نحن نتحرك بسرعة ولا نحدثُ صوتاً؛ وشعرك سيتوهج في الليل مثل اضاءة الاشارة البيضاء، أيها العجوز. ابتعد، ولا تقترب منا. هذا جيش، وليس مأوىً للعجزة.».

«جرّبني»، قال العجوز. قالها ببرود، وهذا ما يذكره الكولونيل.

كانت النسوة يتحدثن ويصدرن أصواتاً كسقسقة العصافير، ولكنهن صمتنَ عندما نظر الجنرال الى العجوز بالبرود ذاته الذي تكلم به الأخير. سحبَ الجنرال مسدساً طويلاً من طراز كولت ٤٤. لم يهتز العجوز على سرجه، عندها رمى اليه الجنرال بالمسدس والتقطه العجوز وهو في الهواء.

انتظروا من جديد. دسّ الجنرال يده في عمق جيب بنطاله الأبيض الفلاّحي، وأخرج قطعة بيزو فضيّة لامعة، كبيرة مثل بيضة ومسطحة كساعة اليد، وقذف بها عالياً وباستقامة في الهواء. انتظر العجوز بلا حراك الى أن هوت القطعة الى مسافة قدم من أنف الجنرال، وأطلق النار عند ذلك، وصرخت النسوة؛ نظرت لاغاردونيا الى بقية النساء، ونظر الكولونيل واينوسنسيو صوب رئيسهما، ووحده الصبي نظر الى الغرينغو.

بالكاد حرّك الجنرال رأسه. ركض الصبي باحثاً عن القطعة؛ التقطها من الغبار، مسحَ سطحها الذي انثنى قليلا بحزام رصاصه، وأعادها الى الجنرال. ثمة ثقب كامل شطرَ جسم النسر.

«احتفظ بالقطعة يا بيدريتو، فأنتَ الذي جئتنا به»، قال الجنرال، مبتسماً، وكادت القطعة الفضية أن تحرق أصابعه. «لا أعتقد أن شيئاً غير الكولت ٤٤ بامكانه خرق قطعة بيزو بهذه الدِقة. كانت ثروتي الأولى. وأنتَ ربحتها، يا بيدريتو، فاحتفظْ بها.».

«هذا الرجل جاء ليموت»، قال مانسالفو.

«لستُ متأكدة الآن من انه قدّيس.»، قالت لاغاردونيا، وهي تتشمم ورودها.

ماذا يفعل غرينغو في المكسيك، سأل الكولونيل نفسه.

«كانت عيناه مليئتين بالصلوات» ـ وحيدة تجلس الآن وتتذكر ـ واذا لم يكن الغرينغو

Twitter: @ketab_n

العجوز قد قرأ أفكار هؤلاء الذين راقبوه وهو ينحدر من الجبال المعدنية نحو الصحراء، فانه أعاد عليهم من بعيد كلماته المكتوبة. «هذه الكسرة من الانسانية، هذا الطراز والمثال من الحساسية الحادة، هذا المُنجَز اليدوي للانسان والوحش، هذا القهر، بروميثيوس غير البطولي، يأتي مُصّلياً، أجل، مناشداً كل شيء من أجل تعاظم النسيان.

«الى الأرض والسماء على السواء، الى نباتات الصحراء، الى أي شيء يتخذ شكلاً في الحس أو الادراك، إن هذه المعاناة المُجسَدة تعنون ذاك الالتماس الصامت: «جئتُ لأموت. امنحني طلقة الرحمة».

Twitter: @ketab_n

ابتسم الغرينغو العجوز عندما نفخ الجنرال توماس أرّوبو على خصلة الشعر النحاسية التي سقطت على عينيه ومطّ شفته السفلى ليأخذ نفَساً من الهواء قبل ان يقفز الى الأرض وينتصب في وضع استعداد عسكري، أمام الغريب: «أنا الجنرال توماس أرّوبو».

لفظ الاسم حادّاً، لكن التشديد على اللقب العسكري كان الهدف الشخصي، وعرف الغرينغو منذ تلك اللحظة بأن جملة الطبائع المحركة المشتركة للمكسيكيين سوف تنهال على رأسه الأبيض، الواحدة تلو الأخرى، الى ان يجدوا الى أي مدى يمكنهم احتماله؛ يختبرونه، أجل، لكنهم، بالاضافة الى هذا، يُقنّعون أنفسهم حياله، رافضين ان يُروه وجوههم الحقيقية.

هللوا له بعد استخدامه الفذ للكولت ٤٤، وأعطوه قبعة جديدة بحافة عريضة. ضغطوا عليه بتقديمهم خبز التاكوس وصلصة فلفل حار لاهبة وساخنة مع قطعة سجق تحتوي على نسبة كبيرة من الدم. أروه زجاجة المسْكَل(*) بالدودة الثخينة وقد استقرت في قعر السائل الكحولي، مبتغين بذلك امتحان معدته و قدرتها على مقاومة الغثيان.

«إذن فان غرينغو برتبة جنرال يجلس معنا».

«مهندس طوبوغرافيا»، قال العجوز. «الفوج التاسع من متطوعي انديانا. خلال حرب أميركا الشمالية الأهلية».

«الحرب الأهلية! لكن هذه قد انتهت قبل خمسين سنة، حين كنا منشغلين بالدفاع عن أنفسنا ضد الفرنسيين».

(*) Mescal : مُسكر مكسيكي يُستقطر من أوراق المسكل الداخلية. ـ المورد ـ .

Twitter: @ketab_n

«ماذا تحتوي هذه الأرغفة؟».

«خُصى ثيران ودم، أيها الجنرال الانديانى. ستحتاجها ان التحقت بجيش بانشو فيللا».

«وماذا في الكحول؟».

«لا تقلق، أيها الجنرال الانديانى. الدودة الصغيرة ليست حيّة. انها لاطالة أمد المَسْكَل فقط».

كانت النساء يقدّمن الخبز. تبادل أرّويو ورجاله النظرات وقد شحبت وجوههم باندهاش تام. أكل الغرينغو العجوز بصمت ورشف كل صلصة الفلفل الحار. لم تدمع عيناه ولم يحمرّ وجهه. اعتاد الغرينغويون على الشكوى من انهم يمرضون في المكسيك. لكن أحداً من المكسيكيين لم يمت بالاسهال نتيجة الأكل او الشرب في بلده. فالأمر مثل هذه الزجاجة، قال أرّويو. فاذا حملت انت او الزجاجة الدودة الصغيرة طوال حياتك فستشيخان معاً كرفيقين جيدين. تأكل الدودة شيئاً وتأكل أنت شيئاً آخر. ولكنك اذا أكلت، كما رأيتك في ال باسو، طعاماً ملفوفاً بالورق ومُحكم الاغلاق الى درجة ان لا تستطيع ذبابة ان تمسّه، عندها سوف تهاجمك الدودة لأنك لا تعرفها وهي لا تعرفك، أيها الجنرال الانديانى.

قرر الغرينغو العجوز ان بامكانه ان ينتظر بكل الصبر المتوفر في العالم ـ كل صبر أسلافه البروتستانتيين الهادئين الواثقين من الخلاص من الخطيئة عبر الايمان ـ الى ان يمنحه الجنرال توماس أرّويو الوجه الذي لم يعرفه العالم.

كانا في عربة الجنرال الخاصة، والتي ذكّرتْ الغرينغو بما في داخل أحد المباغي الذي كان يجب التردد عليه في نيو اورليانز. غاص في كنبة عميقة من المخمل الأحمر وأخذ يُمسّد ساخراً على شرّابات الستائر مذهبة النسيج. تراقصت الثريا المعلقة بتقلقل فوق رأسيهما عندما بدأ القطار يصلصل على خط السكة. كرعَ الجنرال الشاب كأسه كاملاً من المَسْكَل، وبلا أي كلمة، قام العجوز بالمثل.

لم تَفتْ على أرّويو نظرة الغرينغو العجوز الهازئة عندما تفحّص العربة المُترفة بجدرانها المدهونة بالفرنيش وسقفها المُبطّن بالتفتا. كان الغرينغو العجوز يكبح مزاجه الطبيعي وسخريته بصرامة، مذكراً نفسه باستمرار: «ليس بعد».

والغريب في الأمر انه، ومنذ البداية، شعر بالحاجة الى السيطرة على عاطفة مختلفة ـ عاطفة أبويّة تجاه أرّويو. لقد أراد كبح العاطفتين، لكن أرّويو، بعينيه المختفيتين خلف

Twitter: @ketab_n

شقيها الضيقين، لم يرَ سوى (أو لم يرد أن يرى سوى) النظرة المفعمة بالهزء. بدا ان القطار مصمم على ان هذه ليست لحظة التوقف. سار بسرعة ثابتة شاقاً طريقه عبر غَسَق الصحراء المهجورة، مبتعداً عن الجبال التي ما تزال تشهد على الصراع الهائل الذي ولّد بعضُها بعضاً، تميلُ باتجاه بعضها لتستقيم وتنهض، متذمرة في بعض الأوقات، مُعليةً في الغَسَق أبراجاً بتيجان عملاقة حمراء وذهبية، وقد تخططت أجسادها الضخمة بتدرجات الأزرق والأخضر. وارتمى الآن صمتُ بحر الصحراء عند قدم الجبال ومن نافذة العربة استطاع العجوز ان يتبيّن وان يُسمّي ثمرة شجرة الدخان المُختَلسة.

أخبرهُ أرّويو ان القطار كان يعود الى أسرة غنية جداً، الى مالكين لنصف ولاية تشايهواهوا وأجزاء من دورانجو وكواهويلا أيضاً. هل نظر الغرينغو حقاً الى القوات التي رحّبت بقدومه؟ مثلاً، رجلٌ تبدو عليه البراءة متسخُ الملابس، وبغي زرية؟ لا بد انه لاحظ الصبي الذي قاده الى هنا، ذاك الذي قال له ان باستطاعته الاحتفاظ بقطعة البيزو المثنيّة بالنسر المشطور؟ حسناً، إن هذا القطار بات ملكاً لهؤلاء الآن. قال أرّويو انه قادرٌ على فهم لماذا كانت الحاجة الى القطار ـ قالها بنوعٍ من كشرةٍ صفراوية ـ طالما ان اجتياز منطقة أسرة ميراندا يستغرق يومين وليلة.

«المالكون؟» سأل العجوز بوجهٍ متخشب.

«أثبت ذلك!» عوى أرّويو.

هزّ العجوز كتفيه. «أنت قلت هذا الآن. هذه أراضيهم».

«لكنها ليست ملكيتهم».

أن تأخذ ما ليس لك، مثلما هي الطريقة التي أخذت بها عائلة ميراندا أراضي الرعي هذه في الشمال والمُحاطة بصحراءٍ أرادوها جدباء وقاسية لغاية حمايتهم هم، جدارٍ من الشمس ونبات المسكيت يسيّج الأرض التي اغتصبوها، فتلك مسألة، قال أرّويو. أما ان تكون المالك الحقيقي للأرض لأنك عملت من أجلها، فان هذا مسألة أخرى و مختلفة. أفلت يده عن الستارة المذهبة، وطلب من العجوز ان يتقرى الجلد الميت فيها. قال الغرينغو ان بإمكانه التعاطف لأن الجنرال كان عاملاً كادحاً بلا أرض، يعمل في مزرعة ميراندا، وانه بات الآن طليقاً متحرراً، يركب ويتجوّل في عربة القطار الخاصة اللامعة والتي كانت تعود لأسياده. أليست المسألة هكذا؟

«أنت لا تفهم، أيها الغرينغو»، قال أرّويو بصوتٍ غليظ ومتشكك. «أنت حقاً لا تفهم. إن أوراقنا أقدم من أوراقهم».

Twitter: @ketab_n

خطا نحو صندوق صلب مُخبّأ خلف صفٍ من وسائد دمقس ناعمة، فتحه، وأخرج صندوقاً طويلاً مسطّحاً من المخمل الأخضر البالي وخشب الورد المتشقق. فتحه أمام عيني العجوز.

نظر الجنرال والغرينغو الى الأوراق الهشّة مثل حرير عتيق.

نظر الجنرال والغرينغو نحو بعضها بصمت، آخذين بالتواصل من الطرفين المتقابلين لهوّة عميقة: كانت النظرات كلماتهما، وحكت الأرض التي تدفقت عبر نوافذ القطار المجاورة لكل منهما قصة الأوراق، التي هي قصة أرّويو، وكذلك التاريخ في الكتب، والذي هو قصة الغرينغو. (فكر العجوز بابتسامة ساخرة: ان الأوراق لهما الاثنين في النهاية، لكن كيفية معرفتها او عدم معرفتها، الحفاظ عليها وصيانتها، كان مختلفاً للغاية: ان أرشيف الصحراء هذا آخذٌ بالتدفق وأنا لا أعرف أين سيتوقف، أنا لا أعرف، ارتضى الغرينغو العجوز وقبل بهذا القدر الكبير، لكنني أعرف ماذا أريد). رأى في عينيّ أرّويو ما كان يخبره به أرّويو بكلمات مختلفة، رأى في طبيعة تشايهواهوا العابرة، في ايماءة مأساة ضياعها ما هو أقل مما يستطيع أرّويو أن يخبره به لكن اكثر مما يعرفه هو. كان هذا الغرينغو لا يضع قدماً في أرض قبل أن يعرف تاريخ هذه الأرض؛ كان بود هذا الغرينغو ان يعرف آخر تفصيل عن الأرض التي اختارها لتستقبل سنيه الأحدى والسبعين من العظام ولتخفيها. وكأنما استمرت القصة بالتدفق دون ان تقاطع ايقاع القطار، او ايقاع ذاكرة أرّويو (عرف الغرينغو ان أرّويو يتذكر، لكنه كان يعرف فقط: ربّت المكسيكي على الأوراق مثلما يمكن ان يربت على خدّ أمه، او على انحناء ورك حبيبته)، راقب كلٌ منهما الاندفاعات، التراجعات، والحركات في عينيّ الآخر: الفرار من الاسبان، الفرار من الهنود، الفرار من العمل العبودي، القبول بمزارع الماشية الكبيرة على أنها أقل الشرور، صيانة الأراضي المشاع القليلة وكأنها جُزُر نفيسة، الحقوق بامتلاك الأرض وريّها بضمانات من التاج الاسباني في نويفافيزكايا، إلغاء العمل الاجباري القهري والبحث، للقليل منهم، عن سُبل للمحافظة على الملكية المشاعية بضمانة من الملك، مقاومة أن يكونوا إما سارقي مواشٍ أو عبيداً أو متمردين أو هنوداً مُرحّلين، ولكن أخيراً، حتى هُم، الأقوى، الأكثر شرفاً، الأكثر ذُلاً وفي الوقت نفسه الأكثر فخراً، تم قهرهم بهزيمة قدرية: عبيدٌ وسارقو مواشٍ؛ ليسوا بأحرار أبداً، سوى بتحولهم الى متمردين. تلك كانت قصة هذه الأرض وكان قارئ كتب المكتبات الأميركية العجوز يعرفها، ونظر في عيني أرّويو ليكتشف ان الجنرال يعرفها، أيضاً: عبيد أو سارقو مواشٍ، ليسوا بأحرار أبداً، ورغم هذا فهم المالكون للحق الذي أتاح لهم أن يكونوا أحراراً: تمردهم.

Twitter: @ketab_n

«أترى، أيها الغرينغو الجنرال؟ أترى ما هو مكتوب هنا؟ أترى الكتابة؟ أترى الختم الأنيق جداً؟ هذه الأراضي كانت لنا دائماً، لنـــا، رجالُ أشغالٍ شاقة بعدد أصابع اليد خُوّلوا بالتصدي لنظام العبودية ولهجمات هنود التوبوسو. قال هذا ملك اسبانيا ذاته. حتى هو أعلن انها لنا. هذا ما هو مُبيّن هنا. مكتوبٌ بيده هو. هذا هو توقيعه. أنا حافظ هذه الأوراق. تثبت الأوراق أن لا أحد غيرنا يملك حقاً في هذه الاراضي».

«يا عزيزي الجنرال، هل تعرف القراءة؟»، سأل الغرينغو وابتسامة تبرق في نظرته. كان المَسْكَل مادة لاهبة أثارت غرائزه الأسوأ، لكنها أثارت، أيضاً، مشاعره الأبوية. قبض أرّويو على يد الغرينغو بقوة، ولكن بغير تهديد. كانت حركة تقارب التربيت على اليد، وكانت تجيش بعاطفةٍ تلقفتْ ألم العجوز لتجنبه بعض تأذيه، ولتأتي بأفكار، وليباغته وجَعٌ أصابه بالدوار على ولديه. قال الجنرال، أنظر الى الخارج قبل ان تغيب الشمس، انظر الى الأرض التي كانوا يخلّفونها وراءهم، وهياكل النباتات الملتوية العطشة التي تجاهد لتحفظ الماء، وكأنما لتقول لبقية الصحراء الميتة إن ثمة أملاً موجوداً، وانهم رغم مجمل المظهر الخارجي لم يموتوا بعد.

«أتعتقد أن نبتة الصبّار تستطيع القراءة وأنا لا أستطيع؟ أنت مجنون أيها الغرينغو. ربما لستُ بقادر على القراءة، لكنني قادرٌ على التذكر. أنا لا أستطيع قراءة الأوراق التي أحتفظ بها أمانةً لشعبي؛ كولونيلنا فروتوس غارسيّا صنع معي معروف قراءتها لي. لكنني أعرف ماذا تعنيه أوراقي أفضل من أي واحد يعرف القراءة. هل تفهم؟».

أجاب العجوز بأن قانون عالم التجارة فقط هو الذي يقضي بأن على الملكية تغيير الأيدي. ليس من ثراءٍ يمكن تطويره من ملكية راكدة. ومن الجانب القريب من النافذة شعر بوهج يسقط على خدّيه، واعتقد لمدة دقيقة بان الدفء انما هو ردة فعله على الفظاعة التي توقدها الشمس كل مساء وتُبهرنا: فظاعتها وفظاعتنا. حدّق في عيني توماس أرّويو الناريتين الصفراوين، وأخذ الجنرال يمسّد حاجبيه بأصبعيه: كل القصص، كل التواريخ، كلها هنا في رأسي، مكتبة كاملة من الكلمات، تاريخ شعبي، قريتي، أوجاعنا: كلها هنا في رأسي.

«أنا أعرف من أنا، أيها العجوز. هل تعرف أنت؟».

لم تكن أشعة الشمس المتلاشية ما أحرق خدّي الغرينغو عبر النافذة. بل تلك النار على السهل. استُبْدِلتْ الشمس المتلاشية بنار.

«آه، هؤلاء من رجالي». تنهد الجنرال أرّويو بنوعٍ من الفخر. ركض باتجاه المنصة

Twitter: @ketab_n

القريبة. تبعه العجوز بكل ما قدر على حشده من سمو.

«آه، هؤلاء الرجال. لقد سبقوني الى هنا». أشار صوب النار وقال، انظر، أيها العجوز، إن مجد أسرة ميراندا يتصاعد محترقاً بالدخان. كان قد أخبر رجاله بأنه سيكون هناك عند الغَسَق. لقد سبقوه الى هناك. غير انهم لم يكونوا لينهبوا منه فرحته؛ كانوا يعرفون ان هذه هي فرحته، وبأنه ينبغي ان يصل حين تكون المزرعة الكبيرة قد شبّتْ فيها النيران.

«تخطيطٌ جيد، أيها الغرينغو».

«عملٌ سيء، أيها الجنرال».

وما إن دخل القطار محطة مزرعة ميراندا، حتى كانت جوقة تعزف مارش ال زاكاتيكاس. لم يستطع الغرينغو تمييز رائحة احتراق المزرعة من رائحة تورتيللا محترقة. كان سديمٌ كثيف ورمادي يغلّف الرجال والنساء، والأطفال والمطابخ المُعدة ارتجالاً، الخيول والمواشي الشاردة، القطارات والعربات المُنتهكة. أُمكن سماع صرخات أوامر الكولونيل غارسيّا واينوسنسيو مانسالفو ترتفع على أصوات الآخرين غير المميزة، والتي كانت مهتاجة بالفطرة.

«أيها الحارس، قفْ!».

«الذُرة لحصان جنرالنا!».

«اللواء، انتباه!».

«ولسوف نحييها ليلةً ليلاء!».

كانت الكلاب تنبح عندما هبط الجنرال أرّويو من عربة توجيه القطار، وكانت قبعته الهائلة المُطرزة بأوراق عنب فضيّة قد ربضت مثل تاج حربٍ فوق وجهه المُظلل. نظر الى أعلى ورأى، للمرة الأولى، الخوف على وجه الغرينغو العجوز. كان نباح الكلاب على الغريب الذي تردد بالتقدم خطوة أخرى والقفز الى الأرض.

«أنتَ يا مانسالفو»، أصدر أمره «أبعدْ هذه الكلاب عن الغرينغو الجنرال». ثم ابتسم «أوه، يا الغرينغو الشجاع. إن الجنود الفدراليون لأكثر وحشية من هؤلاء الهجينين الممروضين».

لم يكن من فرح في وجه أرّويو عندما تبعه الغرينغو العجوز بقامته الطويلة، وجسمه غير اللين مُشكّلاً النقيض لجسم الجنرال القصير، الاصغر سناً، والأكثر تمثيلاً للقوة العضلية، والذي كان يسير عبر المنبسط المُغبّر وراء المحطة باتجاه مجموعة البيت الرئيسي

Twitter: @ketab_n

والمباني الغارقة في الدخان، بين قعقعة المهاميز المعدنية والسيور والمسدسات و سكون المدفعية السريع وتصاعد الحفيف لنسيم الصحراء متلاعباً بأوراق الشجر الوحيدة ـ أوراق العنب الفضية في قبعة الجنرال.

هيمن صوت صفير على كل شيء حين خطا الغرينغو العجوز بخوفٍ غريزي نحو صف من الرجال المشنوقين على أعمدة التلغراف، بأفواه فاغرة، والسنة بارزة. كانوا جميعهم يصدرون صفيراً، ويتأرجحون في نسيم الصحراء الرقيق، على طول الشارع المؤدي الى المزرعة المحترقة.

Twitter: @ketab_n

كانت هناك. في وسط الزحام، تجاهد وتدفع وتحاول أن تجد لنفسها مكاناً، وتحدّق في الوجوه التي تضببت لتستحيل وجهاً واحداً، وتريد أن تكون شاهدةً على المشهد. بزغت تانكَ العينان الرماديتان، من وسط الازدحام الصامت للقبعات والشالات، لتقاتلا من أجل الاحتفاظ بشعورٍ ما بهويتها الخاصة، وبالكرامة الشخصية والشجاعة في قلب الرعب المدوِّخ للحدث المفاجيء.

رآها العجوز لأول مرة، وحدّثَ نفسه: من المُفترَض انها حُذِّرَتْ.

ورغم هذا ها هي، عنيدة لا بد مثل بغل، وليست بواقعية تماماً؛ ولقد استرعت انتباهه، بينما كان ينظر إليها، تشابهها مع كثيرٍ من الفتيات اللواتي عرفهن في حياته، ومن بينهن زوجته حين كانت صبية، وابنته الجميلة. سأل نفسه بماذا كان يمكن أن ترتبط بذهنه لو أنه التقاها في مكان آخر، وكان «مكان آخر» يعني: المكان المناسب، الظروف الطبيعية بالنسبة لها. بالنسبة الى سيدة شابة حقيقية. لا، بل أكثر من ذلك، سيدة شابة بأخلاق سوّية تحاول تطبيق توجيهات أمها وتعمل على ان تكون امرأة مهذبة. مدّبرة شابة قبل الأوان. لم تحقق ذلك بعد، لكنها ما عادت تعتمد على مصروف الجيب.

ماذا عساها أن تقول؟ ماذا يمكن أن يتوقعه منها؟ ما هي أماكنها العامة، مثل سجق الجنرال كثيرة الدم والدودة الثخينة الصغيرة؟ «أنا مواطنة أميركية. أطالب برؤية قنصلي. أملك حقوقاً دستورية معينة. لا يمكنك أن تحتجزني هنا. أنت لا تعرف مع من تتعامل». لا. ليس من شيءٍ من هذه الجُمَل. كانوا يحتجزونها رغماً عنهم لأن المزرعة الكبيرة تحترق، وربما أحسّوا في عظامهم أن شيئاً يقول لهم بانها أتت الى هنا لتعمل وتعيش وتستقر ولم يكن من أحد ينوي تبخيرها مثل حشرة عامة وطردها من المكان الذي تم توظيفها فيه، والذي من أجله قبضت راتباً شهرياً مقدماً.

Twitter: @ketab_n

كان هذا ما تقوله، بتأثر، وبلهجة حدّد العجوز انها من الشرق، على الساحل الأطلسي، نيويورك على الأغلب، ولكنه سرعان ما انجرف نحو الجنوب ـ ترنيمة فيرجينيا الأكثر نعومة المركّبة فوق مانهاتن. على أية حال، بدا أنه الوحيد الذي استوعب ماذا تقول، وربما فعل الجنرال مثله، على نحوٍ أقل، فلقد كان في أل باسو، قال، ربما في المنفى، وربما يهرّب البنادق.

«لقد استلمت راتبي ولسوف أبقى هنا حتى رجوع العائلة وانني مؤهلة لأن أُعلّم الأطفال اللغة الانكليزية لأستحق راتبي. فاصمتْ!».

نظر أرويو اليها بكشرة بدا واضحاً أنه تقصدها لغرس الذعر فيها، غير انها تحولت فوراً الى قهقهة، قهقهة غبية، لكنها قوية، عفية، تشربتْ بتجربة عميقة للغباء الانساني؛ ولسوف يقول العجوز دائماً بأن أرويو ذكّره في تلك اللحظة بمهرّج مأساوي ـ مضحك كان ينبغي أخذه على محمل الجد. نقل أرويو كلمات المرأة الى قومه. ضحك الرجال على نحوٍ واضح، وأصدرت النساء اصوات طيور مكتومة خلف شالاتهن. تقول بأنها ستعلّم اطفال ميراندا اللغة الانكليزية، هل سمعتم هذا؟ تظن بأنهم سيعودون، هل تسمعون؟ تعال يا اينوسنسيو، قُلْ لها الحقيقة، لن يعودوا أبداً، سنيوريتا، لقد غادروا الى باريس في الوقت المناسب، فرنسا، في الدقيقة التي شعروا فيها باقتراب النيران اكثر باعوا المزرعة واشتروا بيتاً كبيراً هناك، لن يعودوا أبداً، زعقت لاغاردونيا، وهي تهز ثدييها المكسوين بالورود الذابلة راضيةً عن نفسها، لقد كانوا يضحكون عليكِ، سنيوريتا، لقد جاؤوا بكِ الى هنا لا لشيء بل ليجعلوننا نصدّق بانهم لن يرحلوا فحسب، قال الكولونيل فروتوس غارسيّا بنبرة أكثر اتزاناً ـ وكذلك لاغاردونيا. «لقد تركونا جميعاً نُصفّر على التلة، سنيورررريتا!».

«أي في أعلى الجدول»، قال العجوز بالانكليزية. نظرت اليه. كان صعباً رؤية أيٍ كان في فوضى الدخان والنيران والوجوه الغريبة، لكنها نظرت باتجاهه.

«ساعدني»، تمتمت.

عرف العجوز انه لم يكن سهلاً عليها قول هذا، أن تطلب المساعدة من أي انسان؛ رأى هذا متمثلاً في ذقنها، في عينيها، في ارتفاع نهديها وانخفاضهما. لقد عرف منذ ذلك الحين ان عليه هو النظر من خلال حركات هذه الفتاة وكلماتها، وان يحترمهما، غير انها لم تكن تحاول خداع أحد، كانت تحاول ان تجد تصالحاً مع نفسها وحسب، بالمجاهدة التي أمكنه معاينتها عبر شفافيتها الأنثوية. نظر اليها وفكّر: أنا اعرف عنها كل شيء، لكن لها كل الحق في إخفاء مَن هي عليه عني، وعليّ احترام ذلك. فتاةٌ مستقلة، ليست غنية، ليست

Twitter: @ketab_n

مرتاحة؛ وليست بحاجة لمصروف الجيب، أو تربية عائلية. ليست في راحة لأنها هنا مثلي، تقاتل من أجل وجودها أصلاً. كانت شفافة، وحدّثَ الغرينغو نفسه، ما إن نظر اليها، بأنه ربما هو شفافٌ، كذلك، بالرغم من كل شيء. ثمة أناس تكون حقيقتهم الظاهرة أكثر إفصاحاً لانها شفافة، لأنك تستطيع ان تقرأ كل شيء، أن تقبل كل شيء، أن تفهم عنهم كل شيء: أناسٌ يحملون معهم شموسهم الخاصة.

نظر أرّويو اليهما من طرف شقيّ عينيه. الى الغرينغو أولاً، ثم الى المرأة الغرينغو. كان أرّويو مُبَهماً؛ وكان ابهامه فضيلته ومصدر تأثيره، فكرّ العجوز حالما تفحصه. كان كرمه لغزه: فلكي يُفَهم او تُكشَف شخصيته، عليكَ ان تسبر عميقاً تحت السطح. ان نصف العالم شفاف، ونصفه الآخر كثيف. أرّويو: ثمة ما هو سريع ومُحبّا خلف قناع الراكون(*)، ثمة ما يجري سريعاً عميقاً في دماغه.

«حسنٌ. اعتن بها، أيها الجنرال الانديانى. اعمل على ان لا تصاب بأذى».

حُمِلَ أرّويو بعيداً فوق هامات قومه وظلاّ وحدهما، شخصان يحدّقان ببعضهما بتركيز ـ العجوز باحتراس، متخوفاً من نزعته الصحفية ان تُشكّل قوالب طباعية آنيّة من المتعذر على الحشود الغبية فهمها في ومضة من الوقت والشعور بتباهٍ بسببها؛ سِمَةٌ لكل شيء، كان هذا انجيل رئيسه، السيد هيرست. سار بضعة إنشات خلف المرأة، متظاهراً بأنه يفعل ذلك لاشعارها بالحماية، لكنه كان في الحقيقة يتفحصها، يتفحّص طريقة مشيها، طريقتها في النهوض بجسمها، وتفحص ايماءاتها الصغيرة المُفشية للكبرياء المجروح، والمتبوعة بنوبات مصممة على توكيد الذات. كان بامكانه الكتابة لصحيفته، منتقياً تعبيرات متطرفة من تلك التي تُبهج هيرست، امرأة مُنحلّة تتنكر على انها مُعلّمة، أو مُعلّمة تبحث عن مغامرة حياتها الحقيقية الأولى. مع أن بامكانه، أيضاً، ان يتبنى وجهة نظر سيد مهذب من مناطق القطن ومساءلة نفسه ببساطة ان كانت هذه الفتاة الشمالية تعرف ما هي الشهامة.

توقفت، وترددت أمام باب زجاجي مغلق. خطا العجوز سابقاً أيّاها حين وصلت الى قبضة الباب لتفتحه.

«اسمحي لي، يا سيدتي»، قال العجوز، ورضيت هي. كانت مسرورة؛ اذ هي، أيضاً، كانت لديها أهواؤها. ولم تعد، كما يقولون، في ربيع حياتها.

وجدا نفسهما يقفان في قاعة للرقص. لم ينظر العجوز الى أرجاء القاعة. نظر اليها،

(*) Raccoon حيوان شمالأميركي ثديي من اللواحم. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

وطهّرَ ذهنه من حُمّى هذا الادراك الحسّي الحاد. وهي، برباطة جأش اكثر، نظرت حواليها واقترحت ركناً حيث يمكنها الجلوس وتبادل المعلومات والاسماء ـ انها هاربيت وينسلو، من واشنطن العاصمة. لم يقل اسمه؛ لم يقل غير: أنا من سان فرانسيسكو، كاليفورنيا ـ وأعادت هي رواية قصتها: جاءت لتعلّم اللغة الانكليزية لاطفال عائلة ميراندا الثلاثة.

الآن، وهو ينظر اليها، رآها حقيقةً للمرة الأولى، ليست بشفافة ومثالية فحسب، لكنها مبهمة أيضاً، بسبب من الظرف المحيط. سَوَّتْ هاربيت وينسلو ربطة عنقها وملّستْ تغضنات تنورتها المثناة وكأنما هي امرأة منفصلة على نحوٍ ما عن نفسها، امرأة ترتدي زي العاملات الاميركيات: من طراز Gibson Girl(*). لا، انها ليست تماما في ربيع عمرها، لكنها ما تزال فتية، جميلة، وها قد ادركتْ الآن، انها مستقلة، وليسَ مُقدَّراً لها ان تعبرَ من مهد امها الهزاز الى ذاك السرير الخاص بزوجها. لم تكن حياتها مبهجة، لم تكن مُدللة ولا هي كذلك الآن. ربما في وقتٍ ما، اذا لم تكن تلك السمات الفريدة قد اكتسبتها بل تعلمتها على صدر أمها. الاناقة الخاطفة، الواثقة لأمرأة جميلة في الثلاثينات.

لم يتحدثا عن نفسيهما. لم تحدثه عن الظروف التي أتت بها الى المكسيك. لم يقل لها انه جاء الى هنا ليموت لان كل شيء احبه كان قد مات قبله. لم يقولا حتى ما كان على لسان كل واحد منهما. لم يتفوها بكلمة «الفرار» لانهما لم يريدا الاعتراف بانهما سجينان.

قال العجوز فقط: «لاشيء يبقيكِ هنا، كما تعرفين. لستِ مسؤولة عن ثورة او عن هرب مستخدميك. النقود نقودك.».

«لكنني لا استحقها، يا سيدي.».

بدت كلماتها مكتومة. ما كان لاحدٍ ان يقول لهما بانهما سجينان حتى يشعرا بشرك غرابة المكان، الروائح، الأصوات، الاحتفال الثمل الأهوج الذي يبدو الآن اكثر قرباً؛ قبضة الصحراء المضمومة.

«أنا متأكد من أن الجنرال سيساعدك في ايجاد وسيلة نقل، يا سيدتي.».

«اي جنرال؟».

«أنتِ تعرفين. الرجل الذي طلب مني العناية بكِ».

(*) لقب يُطلق على الفتيات الاميركيات اللواتي يرقصن في الشوارع احتفالاً بالاعياد، او ينزلن الى الملاعب ليشجعن الفرق الرياضية المتنافسة. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

«جنرال؟»، تفتحتْ عينا هارييت الكبيرتان على وسعهما. «انه لا يبدو مثل أي جنرال عرفته في حياتي.».

«تعنين أنه لا يبدو مثل جنتلمان».

«كما تشاء، لكنه لا يشبه جنرالاً، جنتلماناً او غير جنتلمان. من عيّنه جنرالاً؟ أنا متأكدة انه عيّنَ نفسه.».

«يحدث هذا احياناً، في ظروف غير عادية. لكنكِ تبدين وكأنكِ أُهنتِ حقاً، يا سيدتي.».

نظرتْ اليه نصف باسمة «انا آسفة. لست ارغب ان يُعتَقَد بانني متحاملة. كل ما هنالك انني متوترة. فالجيش يعني لي الشيء الكثير.».

«حسناً، وانا ايضاً لا اريد ان ابدو فضولياً، ولكن كان من الصعب عليّ، عند اللحظة الأولى، ان اجد الصلة بينكِ وبين...»

«أوه، حتى انا شخصياً. انت تفهم. ان ابي... لقد اختفى خلال الحرب الاسبانية ـ الاميركية. اضفى الجيش الشرف عليه وعلينا ايضاً. فلولا الجيش لكان من المحتمل ان يعتمد على الصَدَقة. وكذلك نحن. اعني، امي وانا.».

عندئذٍ، هزّتْ هذه المعلمة التي اتت الى مزرعة ما عادت موجودة، هذه المُدّرسة لأطفالٍ لم تلتقيهم ابداً ولم تعرف عنهم اي شيء، حتى وان وُجِدوا؛ هزّتْ رأسها مثل طائرٍ جريح، واندفعت جموع المحتفلين الى قاعة الرقص حيث التجأ الأميركيان. كان ثمة شهيقٌ ذئبي والضحكة الهادئة للهنود الذين لم يضحكوا بصخب أبداً، كما يفعل المتحدرون من اصل اسباني، او بغيظٍ واستياء، كما يفعل الهجينون.

ضحكةٌ سرّيةٌ وصوت بوقٍ ذي لحنٍ نشاز. ثم حلّ صمتٌ مفاجيء.

«لقد رأونا»، تمتمت هارييت، واقتربت اكثر من العجوز.

لقد رأوا أنفسهم.

كانت قاعة رقص عائلة ميراندا قصر فرساي مُصَغّراً. والجدران عبارة عن صفّين طويلين من المرايا، من السقف الى الأرض: معرض للمرايا المتباعدة، وذلك لتعيد عكس الخطوات الرشيقة والحركات الناعمة لكل زوج في دورات من المَسَّرات المستمرة للذين أتوا من تشايهواهوا، وال باسو، ومزارع أخرى، لرقص الفالس والكوادريل(١) فوق أرضية

(١) رقصة الكوادريل: رقصة لأربعة أزواج من الراقصين. ـ المورد ـ ـ.

Twitter: @ketab_n

الباركيه(٢) الأنيقة التي جلبها السنيور ميراندا من فرنسا.

كان رجال أرّويو ونساؤه ينظرون الى أنفسهم. مشلولين بصورهم، بالانعكاس كامل الطول لوجودهم، باكتمال أجسامهم. استداروا ببطء، كأنما للتأكد من أن هذا ليس وهماً آخر. لقد باتوا في قبضة متاهة من المرايا. استدرك العجوز بأنه والآنسة هاريت لم يلاحظا حتى المرايا عندما دخلا، فكلاهما معتادٌ على قاعات الرقص وواثق من نفسه؛ هو معتادٌ على الفنادق الواسعة الحديثة المبنيّة في سان فرانسيسكو إثر حدوث الزلزال الكبير؛ وهي معتادة على بعض قاعات الرقص التابعة للجيش في واشنطن بدعوة أنيقة من مُحبها.

هزَّ العجوز رأسه نافياً؛ لا، انه لم يرَ المرايا عندما دخل، لأنه كان يملك عينين من أجل الآنسة هاريت فقط.

صوّبَ أحد جنود أرّويو يده نحو المرآة. «انظرْ، إنه أنتَ».

وأشار رفيقه باتجاه الانعكاس في المرآة الأخرى «إنه أنا».

«إنهم نحن».

أحدثتْ الكلمات الصدى الدائري ـ إنهم نحن، إنهم نحن ـ وتبعه صوت غيتار صاحبته عدة أصوات، ودخلت مجموعات الفرسان، ومرة أخرى أُحييت الحفلة والرقص والمَرح ـ غير عابئين بوجود الغرينغويين ـ في مزرعة عائلة ميراندا الكبيرة. وبعد ذلك عزفت موسيقى البولكا(٣) بآلة الأكورديون، وبينما هُم يرقصون، خدشتْ مهاميز الفرسان أرضية الباركيه الرائعة وشقتها. كبحَ العجوز ايماءة هاريت العفوية.

«انها حفلتهم»، قال العجوز. «لا تتدخلي».

سحبت يدها، غاضبة، من يده. «انهم يمزقون الباركيه».

أمسك بذراعها مهتاجاً. «انتِ لم تدفعي ثمنها. أقول لكِ، لا تتدخلي وتتورطي».

«أنا مسؤولة» قالت هاريت وينسلو مفسّرةً، متصلبةً بكبرياء. «دفع لي السنيور ميراندا راتب الشهر مقدماً. سأكون مسؤولة على أن تُحترَم أملاكه أثناء غيابه. أقول لك بأنني مسؤولة».

«اذن أنتِ لا تخططين للعودة الى بلدك، يا سيدتي؟».

ابتسمت كما يمكن أن يبتسم هو، لو لم يحدد الآن أسباب عدم رجوعه الى بلده.

---

(٢) الباركيه Parquet: أرضية مفروشة بقطع خشبية مزخرفة. ـ المورد ـ.

(٣) البولكا Polka: رقصة بوهيمية الأصل مفعمة بالحيوية. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

«بالطبع لا! بعد كل ما رأيته الليلة هنا!».

أخذتْ نَفَساً عميقاً عميقاً. أخبرته بأنها تخرجتْ من مدرسة عاديّة بعلامات عالية، ولكنها اكتشفت حينذاك انها لا تحب اعطاء دروس لأطفال كانوا قد فكروا بالأشياء التي علمتهم إياها. كانت تفتقد التحدي، والحافز. إن بقاءها في الولايات المتحدة كان سيؤدي الى خضوعها واستسلامها للروتين. شعرت أن من واجبها أن تأتي الى المكسيك.

«طالما أن الأطفال الذين أتيت لتعليمهم قد ذهبوا، فلسوف أبقى هنا وأعلّم هؤلاء الأطفال»، قالت بنبرة صوتٍ تفشّى فيها العار والفخر بدرجة متساوية.

اختلط رجال الجيش ونساؤه برجالٍ ونساء من القرية، رقصوا، وتبادلوا القبلات المسروقة؛ إذ باتوا بعيدين الآن عن الاحساس المزعج لذاك الحضور الآخر: أنفسهم في المرايا.

«أنتِ لا تعرفينهم. أنتِ لا تعرفينهم على الاطلاق»، قال العجوز، محاولاً احتواء شعور حيالها لا يريد الشعور به: سخرية شفوقة، تذكيرٌ بذاته الماضية، قبل قراره المجيء الى المكسيك.

نثرَ فكرةً أخرى على هذه الفكرة، مثلما الزبدة على قطعة خبز محمصة: هل نظرت هاريت وينسلو، عندما دخلا قاعة الرقص، الى نفسها في المرايا؟ لكنها كانت تجيب على اصراره، وقد استعادت ثقتها بنفسها كاملةً: **وهُم أيضاً لا يعرفونني!**

«انظرْ اليهم، إن ما يحتاجه هؤلاء القوم هو التعليم، وليس المسدسات. إن عملية دعك جيد بالفرشاة، تتبعها عدة دروس عن كيفية فعل الأشياء في الولايات المتحدة، لسوف تضع نهايةً لهذا الهيولى».

«أتعتزمين تحضيرهم؟» سألها العجوز بجفاف.

«بالضبط. وسأبدأ غداً».

«انتظري قليلاً»، قال العجوز. «في الاسبانية يقولون مانيانا Mánana (غداً)، وبغض النظر عما تريدين القيام به، عليك أن تنامي الليلة في مكانٍ ما».

«لقد قلتُ لكَ ذلك سابقاً، لقد انتويت العناية بهذا المكان حتى يرجع اليه مالكوه الشرعيون. ألا تفعل أنت الشيء نفسه؟».

«هذا ليس «مكاناً»، لقد احترق حتى الأرض. والمالكون لن يعودوا. وأنتِ لن تظلّي لتعلمي أحداً. والأرجح أنهم سيقومون بتعليمك أنتِ أولاً، آنسة وينسلو، وبأسلوبٍ ليس

Twitter: @ketab_n

مفرحاً جداً».

نظرت اليه باندهاش. «ظننتكَ جنتلماناً، يا سيدي».

«انني كذلك، يا سيدتي. أقسم لكِ انني كذلك، ولهذا أنوي العناية بك».

أقامها بسرعة ورشاقة وكأنها دُمية، ورفعها من على أرضية الباركيه الممزقة فوق كتفيه العجوزين إنما اللذين ما يزالا قويين، وحملها الى الخارج، وقد خنقتها المفاجأة وضاعفت تأثيرها وكأنها في حُلمٍ فضيّ وامض في غابةٍ من المرايا؛ حملها من فقاعة الموسيقى والزجاج شديدة الاحترام الغامض، والتي نجت من النيران التي أضرمتها أوامر الجنرال، غرينغوان ينسحبان وسط الملاحظات الساخرة وصراخ المحتفلين: صيحات النصر: وهي، تجاهد وترفس في هواء الصحراء البارد بينما اتخذ طريقه بين النار المُضرمة في الخلاء ودخان الروث وأقراص التورتيللا.

«إعتنِ بها، أيها الجنرال الانديانى».

وأدرك فجأةً أن ملاذه الوحيد هو الحماية التي وفرها الظلام والجنرال المتغطرس. لقد وقع الغرينغو في شرك الثائر الشاب. كاد أن يحمل هارييت وينسلو الى تلك العربة الباذخة، الى الماخور الخاص لمحارب عصابات أُميّ، والذي قد يكون رأسه محشواً بذكريات الغبن ولكن الذي كان رغم كل شيء رجلاً لا يعرف حتى أن يقرأ ويكتب. نظر الى هارييت وينسلو، سائلاً إيّاها ما كان يتساءل عنه. أكانت المرأة على صواب؟

وبحذر، أنزلها الى الأرض وضمّها قليلاً من الوقت قبل أن يلتفت حواليه نحو رجال ونساء جيش تشاپيواهوا الثوري، المغلفين بأرديتهم والمتحلقين حول نيران المعسكر.

حدّقتْ هارييت والغرينغو ببعضهما، مفعمين بالغمّ، وكل واحد منهما يعكس التوحد والأسى في عينيّ الآخر. الصحراء في الليل قبة هائلة مفتوحة على الهواء، وأكبر غرفة نومٍ في العالم. وشعرا، بينما اذرع بعضهما حول بعض، كأنهما يغوصان في قعر سريرٍ عظيم: سرير المحيط الذي غزا في مرةٍ هذا الطبق الكبير للرمال الخشنة وتراجعَ بعد ذلك، مخلّفاً أرضاً يباباً آهلةً بكل أشباح المياه: البحار، المحيطات، وجميع الأنهر الموجودة أو الممكنة.

«هارييت، حين دخلنا قاعة الرقص، هل نظرتِ الى نفسك في المرآة؟».

«لست أدري، لماذا؟».

أرادت أن تسأله: أأنتَ منخرطٌ في هذا القتال، أيضاً؟ ما موقعكَ في هذا؟ لقد أخبرها كل واحد هنا، قبل أن يحرقوا المزرعة تماماً، بأن هذه حملة عسكرية حرجة، وبأن

Twitter: @ketab_n

عليهم التحرك بسرعة، بجرأة وجسارة، وإلّا فستضيع الثورة. لقد شنقوا جميع الجنود الفدراليين، الذين وجدوهم، على أعمدة التلغراف. كانوا يصفّرون، هل سمعتهم؟ هذا فظيع. أأنتَ واحدٌ منهم؟ هل تقاتل معهم؟ أمعرضٌ أنتَ لخطر الموت هنا؟

كرر العجوز سؤاله وحسب: «هل نظرتِ الى نفسكِ في المرآة».

لم تُجب لأن امرأة صغيرة ملتفة بشالٍ أزرق، بوجهٍ مستدير مثل قمرٍ منطفيء، وعينين كلوزتين حزينتين، قد خرجت من عربة الجنرال وقالت أن على السنيوريتا أن تنام معها. كان الجنرال في انتظار العجوز. انهم سيقاتلون في الغد.

Twitter: @ketab_n

«ماذا تفعل الآن؟».

«وحيدة تجلس الآن وتتذكر».

«لا. انها تنام الآن».

«انها تحلم، وهي في أحلامها دائمة الشباب».

«انها تعتقد عندما تحلم بأن حلمها سيكون مصيرها».

«انها تحلم بأن عجوزاً (أباها) سوف يقبّلها بينما هي نائمة، قبل ذهابه الى الحرب».

«لم يعد من كوبا أبداً».

«هناك قبرٌ فارغ في أرلنغتون».

«عندما أموت، أريد أن أتحرر من الخزي، والامتعاض، والشعور بالذنب، أو الشك؛ سيدة نفسي، مالكة لوجهات نظري ولكن دون ان أكون منافقة أو مرائية».

«ذهب أبوكِ الى كوبا وها أنتِ الآن تذهبين الى المكسيك. يا لهَوَس آل وينسلو بالزرائب الخلفية».

«انظري الى خريطة زرائبنا الخلفية: هنا كوبا. هنا المكسيك. هنا سانتو دومينغو. هنا هوندوراس. هنا نيكاراغوا».

«لن يكون بمقدوري فهم جيراننا. دعوناهم على العشاء ورفضوا بعد ذلك البقاء وغسل الصحون».

«انظروا الى الخريطة أيها الأطفال. تعلموا».

«الوحدة هي غياب الزمن».

«استيقظي يا هارييت، استيقظي. لقد تأخرتِ».

اعتادت أمها أن تقول هذا حين كانت فتاة حروناً مثل بغل، ولكنها ليست واقعية

Twitter: @ketab_n

تماماً، بل خليط رديء لامرأة يافعة لا تملك دوطة، خاصةً اذا كان سلوكها ليس هو الأشد برودة أو الأكثر خلواً من الأخطاء او الإثم.

شرع قلبها بالخفقان عندما قرأت الاعلان في جريدة الواشنطن ستار. ولم لا؟. فتدريسها للصفوف الابتدائية بات أمراً روتينياً، كترددها الى الكنيسة مع أمها كل يوم أحد، أو خروجها خلال السنوات الثمان الأخيرة برفقة محبها المتأنق ذي الاثنين والأربعين عاماً.

«بعد سن معينة يتقبلك المجتمع مهما كنت، حين لا شيء يتغير ولا مفاجآت تقع».

لم لا! سألت نفسها، قاضمةً برفق ربطة عنق ثوبها الـ Gibson Girl: بلوزة نسائية بيضاء بكمين كفخذيّ خاروف وياقة عالية؛ ربطةعنق؛ وتنورة صوفية طويلة؛ وجزمة مرتفعة الأزرار. لم لا! فرغم كل شيء، وبسببها، كانت أمها سعيدة، اذ شعرت بانها ليست مهملة في شيخوختها وقدّرت حقيقة كون ابنتها الوحيدة ما تزال تنام تحت السقف نفسه مثلها وتصحبها كل أحد الى القداسات في كنيسة الميثودست* في الشارع الخامس عشر، وكان ديلاني، عشيقها، مسروراً لأنه لم يُجبَر على التخلي عن امتيازاته المريحة في ناديه، بكل الخدمات المعتاد عليها والنفقات الأقل لحياة العزوبية، او المخاطرة بالاستقلال الضروري لرجلٍ دخل دهاليز السياسة في حكومة الولايات المتحدة من أجل طموحات خاصة.

«ليس من مكان آمن في العالم»، هذا ما كان سيقوله ديلاني ما ان يقرأ العناوين اليومية عن سُحب الحرب المتجمعة فوق اوروبا.

«لماذا ما تزالين تسكنين معي هنا؟»، تسألها أمها بابتسامة مكرٍ عذبة. «أنتِ في الحادية والثلاثين. ألا تُحسّين بالملل؟».

عندها تقوم بتقبيل وجنتيّ ابنتها، مجبرةً اياها على إحناء رأسها الى ان تلامس بشرة الأم الذابلة. وهكذا، بانحباسها في العناق الأمومي، كان عليها ان تسمع نواح أمها، أجل، كان بامكانها تصور أسى فتاة يافعة كان من المحتمل ان تنشأ ثرية في نيويورك لكنها بدلاً من هذا توجب عليها الاستمرار بالانتظار مثل أمها؛ انتظار أنباء لم تأت أبداً، طوال حياتها. اني لأتساءل ان كنا سنلقى إرثاً؟ اني لأتساءل ان كان بابا قد مات في كوبا؟ اني لأتساءل هل سيأتي شاب ليطلب الخروج معك؟ لا، لم يكن ذاك بالشيء الهيّن الحدوث،

---

* Methodist : الميثودي، المنهجي: أتباع الحركة الدينية الاصلاحية التي قادها في اكسفورد (عام ١٧٢٩) تشارلز وجون ويزلي محاولين فيها احياء كنيسة انكلتره ـ المورد.

Twitter: @ketab_n

لأنهم ما كانوا ليتقبلوا الاحسان، أليس هذا صحيحاً، أيتها الابنة؟ وليس من شاب سيأتي طالباً الابنة المعدمة لأرملة نقيب في جيش الولايات المتحدة، اضطرت لأن تترك نيويورك للدراسة في مدرسة عادية في واشنطن العاصمة لتكون قريبة من ـ الله يعلم لماذا! ـ مصدر معاشات تقاعد الجيش، من ذكرى الأب الذي تمركز هناك كل تلك السنين، ومن مقبرة ارلنغتون حيث كان يجب ان يُدفن مع كامل التقديرات، غير ان لا أحد عرف أين هو، وأين سقط في الحملة الكوبية.

مُحاصرة في أحد أصياف واشنطن، حيث سينمو الدغل قوياً اذا ما أُهمِل نمو النبات للحظة، مبتلعاً داخل المدينة تحت النباتات المدارية وافرة النماء، والكروم المتسلقة المعترشة، وأشجار الماجنوليا(١) النتنة.

«كانت الاستجابة البشرية لدغل واشنطن المداري تتمثل بتشييد بانثيون(٢) اكثر ثراء من ذاك الذي في اليونان وروما».

تناولت يد أمها، عندما قررت أن تسافر، وتمتمت أمها: سيدة يافعة مهذبة، انما عنيدة مثل بغل وغير واقعية كذلك. ورغم كل شيء قالت، متنهدة، أتمنّى ان تكون سعيدة رغم كل شيء، كررت القول، رغم اختلاف وجهات نظرنا.

«ماما، انك لا تصغين لما أقول».

«بالطبع انني أصغي، يا ابنتي. أنا أعرف كل شيء. هاكِ. لقد وصلتكِ هذه الرسالة».

كان على المغلف طابع بريد المكسيك. وكان واضحاً عليه: **الآنسة هاريت وينسلو، ٢٤٠٠ الشارع الرابع عشر، واشنطن العاصمة، الولايات المتحدة الأميركية.**

«لماذا فتحته، يا ماما؟ من...؟».

لم تكن تريد تكملة الجملة، لم تكن تريد أن تجادل. قررت قبول عرض عائلة ميراندا قبل أن يطرأ أي شيء، قبل أن تموت أمها، أو يعود أبوها، أو يحاكم ديلاني بتهمة احتيال على الحكومة الفدرالية، لقد أقسمت بذلك، أقسمت لنفسها. كانت قد عقدت العزم على

---

(١) الماجنوليا: نبات من الفصيلة المغنولية جميل الورق والزهر. المورد. ينمو في شمال أميركا كأشجار وكذلك في منطقة حوض البحر الابيض المتوسط. له أوراق عريضة، ويُطلق زهوراً قصيرة العمر، بيضاء ووردية اللون. المترجم.

(٢) البانثيون: هيكل مكرس لجميع الآلهة. مدفن عظماء الأمة ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

الذهاب الى المكسيك لأنها شعرت كما لو أنها قامت بتعليم الأولاد والبنات الأميركيين الصغار كل شيء تستطيعه. قرأت الاعلان في جريدة النجم Star وفكرت كيف بامكانها في المكسيك تعليم كل شيء تعرفه للأطفال المكسيكيين. كان هذا هو التحدي الذي احتاجته، قررت ذات يوم حين قذفت بقبعتها الصقيلة القش، ذات الشريط الأسود. كانت معرفتها باللغة الاسبانية معرفة تأهيل مدرسي عادي وفي حدّه الأدنى لمعلمة، وذلك اجلالاً لأب سقط في كوبا. ان هذا سوف يساعدها في تعليم اللغة الانكليزية لأطفال عائلة ميراندا المقيمين في مزرعة في تشاپيواهوا.

«لا تذهبي، يا هارييت. لا تتخلي عني الآن».

«لقد اتخذت قراري قبل ان أعرف عن التهمة»، قالت لعشيقها السيد ديلاني.

«لماذا تركنا نيويورك؟»، كانت تقول لأمها حين ذكّرتهم بأن جذور العائلة كلها انما كانت هناك عند نهر هدسن، وليست هنا بجانب نهر بوتوماك.

عند هذا ضحكت وأخبرتها بأنهم لم يتركوا نيويورك، انما نيويورك هي التي تركتهم. ولذا فان العديد من الأمور تُرِكَت بلا اجابات عندما توجّه أبوها الى كوبا وكانت في السادسة عشرة ولم يعد أبداً.

كانت تجلس كل صباح أمام المرآة في غرفة نومها الصغيرة في الشارع الرابع عشر، الى ان جاءيوم اعترفت فيه بأن وجهها كان يحكي قصة لم تبعث بها السرور.

كانت في الحادية والثلاثين فقط، غير ان القسمات التي ارتسمت بنعومة في المرآة قبل ان تلمس صدغها الجليدي بالأصبع نفسه لم تبدُ اكبر عمراً ولكن اكثر خواءً، وأقل وضوحاً عمّا كانت عليه قبل عشر سنوات ـ أو حتى سنتين ـ : مثل الصفحات الشاحبة لكتابٍ ما إثر اختفاء الكلمات.

كانت امرأة حلمت كثيراً. واذا لم تكن روحها مختلفة عن أحلامها، فان بمقدورها القبول بأن الاثنين كانا آنيين. لقد تجلّت روحها كاشفةً عن نفسها، مثل حلم، على شكل التماعات. لا، الروح ليست هكذا، تجادلت مع نفسها في أحلامها، اذ تسربت تعاليم دينها الى أعمق زاوية للحلم؛ الروح ليست هكذا، عنّفت نفسها على أفكار كهذه، فروح المرء ليست بالشيء الذي ينتمي الى الآني، انها تنتمي الى الله، وهي أبدية.

كانت تستيقظ لتفكر بالذي قد تكون قد قالته لكنها لم تقله، بالآثام والفجوات الطيفية في كلماتها وحركات استيقاظها، والتي طاردتها طوال الليل.

تلك كانت دنيا الظلال، لكن الضوء كان عذابها الأسوأ. لقد غاصت، في عتمة

Twitter: @ketab_n

الحلم، بين مياه المدّ الساخنة الصيفية، مثلما غاصت في حرارة جسدها النائم نفسه. كانت رطوبتها هي رطوبة ضفاف البوتوماك وبلل المدينة ونمو نباتاتها المتدلية، التي لم تُدجَّن الاّ ظاهرياً فقط، اذ في الحقيقة كانت تغزو أقصى زوايا الحدائق المنسيّة والبرك الجافة، بينما الفناءات الخلفية مُظللة تحت السقوف الخضراء المتقطرة ومفروشة بالزهرات المثمرة للقرانيا(١)، ورائحة عرق الزنوج الحامضي التي اندفعت من خلال سديم أيام الشُعْرى(٢) ـ أجساد عرقة ووجوه مغطاة بمساحيق تجميل غير متقنة.

في منتصف الطريق بين واشنطن والمكسيك، كان لها ان تتخيل بان لواشنطن صيفاً لكن للمكسيك ضوءاً. ومُعَلقةً في تخيلاتها بين الذكرى ورؤيا المستقبل قام كلا الاشراقين بتعرية الفضاء المحيط وتجريده. فبمقدور شمس المكسيك ان تترك المنظر الطبيعي عارياً تحت نيرانها. بينما بمقدور شمس بوتوماك ان تتحول الى غشاوة منيرة تفترس الخطوط المحيطة للأماكن الداخلية، غُرف الجلوس، مخادع النوم، الفضاءات الرطبة والفارغة للأقبية المنتنة حيث إنسلّت القطط لتلد صغارها هناك، وحيث الحضور المُتعب للسجاجيد والبُسط، الأثاث، والثياب العتيقة التي تبقت في واشنطن بينما وصل الناس وغادروا بصناديق ثيابهم، وكلهم تجمعوا معاً مثل أشباح مستترة، هادئة وسط رائحة الطحلب الثقيلة وكرات العُثّ(٣).

سألت نفسها في بعض الأحيان: «متى كنت أكثر سعادة؟».

وكانت تعرف الجواب: عندما رحل والدها الموقّر وشعرت بقدرتها على ان تكون المسؤولة. هي المسؤولة الآن. لقد أمضت طفولتها لائذة بالضوء المتألق الأصفر الذي راقبته وهو يتحرك ببطء من طابق الى آخر في القصر حديث البناء انما المتداعي الآن في الشارع السادس عشر. مختبأةً خلف شجيرات الصيف القاسية فوق تلةٍ طُمِرَتْ على نحوٍ فجائي وخطر من ملعب تنس مهجور الى رواقٍ مُغطّى بأشجار المغنوليا الميتة، كانت تحدّق بالضوء بالبطء الذي يجيء فيه ويذهب، مذوّباً ما كان يُفترض ان يكون المدخل الناعم، وفجوات غرفة الخزين الموضوعة في جدار خلف واجهة المبنى منحوت الحجر، والذي قُطّع ورُكّب ليشبه قصر الامبراطورية الثانية، الفخم وبالغ الرطوبة.

من كان يحمل ذاك المصباح؟ لماذا شعرت بان ضوءه كان يناديها؟ من كان يعيش

---

(١) القرانيا Doywood: شجرة من الفصيلة القرانية ـ المورد ـ

(٢) ايام الشُعرى Dog Days: الفترة بين اوائل يوليو واوائل سبتمبر، وتتميز بجوها القائظ الشديد الرطوبة في نصف الكرة الشمالي ـ المورد ـ .

(٣) كرات العُثّ: حبّات النفتالين المضادة لعث الثياب. المترجم.

Twitter: @ketab_n

هناك؟ لم ترَ أي وجهٍ على الاطلاق.

تحدّق الآن بالضوء في زاوية طاولة أمها المُفضلة، طاولة بسطحٍ رخامي كان والدها يستخدمها كل ليلة لعمله الكتابي وتدقيق الفواتير، والعائلة تستخدمها للأكل، وها أمها تستخدمها الآن للغرض الأخير. حدّقت بالوهج الأليف وتنبّهت الى انها استغلت هـذا الغرض المنزلي، هذه الحاجة الضرورية اليوميـة، هذا الضـوء المُظلَل بـالأخضر، بكـل التخيلات المرتعشة، بكل الرغبة المتقـدة للضوء التي تتـذكرهـا من ذاك القصر الصيفي الرطب.

مدّت يدها وامسكت بيد أمها لتقول لها بأنها راحلة. كانت أمها قد عرفت ذلك. كانت قد فتحت رسالة عائلة ميراندا، دون ان تطلب الاذن منها وقتذاك او قبول الاعتذار الآن.

الآنسة هاريت وينسلو، ٢٤٠٠ الشارع الرابع عشر..

«سيدة صغيرة ومهذبة، لكنها عنيدة وكثيرة الأوهام...».

ليس هذا بمهم، لن تستمع بعد الآن لكلام أمها.

لم تلحظ ذلك، غير ان وعد الابنة بالسعادة والصحة ما كان واضحاً الّا على وجه الأم. لقد صنع الضوء هذا الانعكاس، هذه الهدية المُقدمة من الابنة. ضوء. ربما هو الضوء نفسه الذي تبعته مثل شبح عبر القصر المتفسخ؛ لقد جاء نفس ذاك الضوء الى هنا، الى هذه الشقة الصغيرة، ليحقق رغبة الآنسة وينسلو: بأن أمها تعكس ضوء طفولتها المتألق؛ بان الابنة ما عادت تعكس الظل الفاجع لأمها.

حلمت: توقف الضوءعند عتبة درجات الخدمة بجانب القبو الذي كان آخر المتاهة وأشـدها إظـلاماً في الهيكـل المتداعي للواجهـة المخيفة وسـريعة الـزوال لثراء واشنـطن واحترامها، الشاهد الصارم على بانثيون المدينة وآبارها السوداء، ثم إزدادت الرائحة قوة. تنبهتْ في البداية الى نصف الآخر، رائحة حشيات قديمة ويُسط رطبة، وبعد ذلك تنبهت الى النصف الآخر، رائحة الاثنين المستلقيين هناك، رائحة العرق الحامضي لفعل الحب، رائحة الأباط المُخضّلة والتشنجات الجسديةعندما امتلك والدها الزنجية المعتزلة التي تعيش هناك، التي قد تكون في خدمة الأسياد الغائبين، والتي قد تكون هي سيدة البيت غير الـمُعترف بها.

«أيها النقيب وينسلو، انني جد وحيدة. لك ان تنالني كما يحلو لك».

فاحت من السيد ديلاني، الذي كان مُحبّاً لها لمدة ثماني سنوات، رائحة مثل رائحة

Twitter: @ketab_n

الغسيل عندما سرق قبلةً منها خلال مشاويرهم في أمسيات الصيف، وبعد ذلك، عند انتهاءالقبلة، ادركت انه بدون ياقته المُنشاة ماركة السهم Arrow فانه عجوز ومُتعب ليس إلا، ولقد قال لها: حسناً، ماذا يمكن للنساء ان يكنّ سوى فاسقات او عذارى.

«ألستِ سعيدة بأنني اخترتكِ لتكوني فتاتي المثالية، يا هاربيت؟».

Twitter: @ketab_n

وعند الفجر، أخبر الجنرال أرّويو الغرينغو بأن مهمتهم هي تطهير الريف، والاجهاز على ما تبقى من مقاومة في المنطقة. بعض جيوب من جنود الجيش الفدرالي كانت تحاول حفر معاقل لها في تلال جبل السييرا مادري، آملة أن تقتنص عدداً منهم وأن تثبتهم في الأسفل الى ما لا نهاية، في الوقت الذي كان فيه الجزء الأكبر من فيلق فيللا بعيداً في الجنوب وقد استولى على قرى منطقة لاغونا. علينا أن نتحرك الى الأمام، قال الجنرال بصوتٍ حاد عميق، وأن ننضم الى فيللا، ولكن ينبغي في البداية أن نطّهر المنطقة هنا.

اذن، هم ليسوا في طريقهم الآن للانضمام الى فيللا؟ سأل العجوز بصعوبة. لا، أجاب أرّويو. سنلتقي بالجنرال فيللا فيما بعد، في المكان الذي يقرره، ومن ثم سنتوجه معاً لاسقاط مدينة زاكاتيكاس وبعدها مكسيكوسيتي. هذه هي مكافأة الحملة. علينا أن نكون هناك قبل أن يصلها رجال أوبريغون وكارانزا. يقول بانشو فيللا ان هذا مهم لصالح الثورة. نحن نمثّل الجماهير؛ انهم ليسوا غير مجموعة من أولاد ظرفاء. إن فيللا يتقدم هناك؛ ونحن علينا أن نطّهر قوات المؤخرة لئلا يفاجؤوننا من الخلف، قال أرّويو، الآن، مبتسماً. «نحن مَن تُطلق عليهم صفة «اللواء العائم». ليس هذا بالعمل الأكثر مجداً...».

لم يرَ العجوز سبباً لأن يبتسم. لقد حان الوقت وما يزال بانشو فيللا بعيداً. قال بأنه سيكون جاهزاً بعد خمس دقائق. سار نحو مؤخرة العربة، حيث استلقت المرأة ذات الوجه القمري نائمة على الأرض. كانت قد منحت سريرها للآنسة وينسلو. استيقظت المرأة المكسيكية عندما دخل العجوز. أشار لها بأن تصمت. لم تكن منزعجة، وعادت لتغلق عينيها. وقف العجوز لبرهة يتأمل الوجه النائم للأميركية الجميلة. مسّدَ على شعرها اللامع الأصحر(١)؛ ومرر الشال فوق صدر صغير، مُكوَّر، نصف مكشوف؛ ومسَحَ بنعومة

(١) الأصحر Auburn: الشعر الأسمر المحمّر. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

الوجنةَ الدافئة بشفتيه. ربما فهمت المراة ذات الوجه القمري (أو هذا ما تمنـاه الغرينغـو العجوز) رقته هذه.

إن الحلم هو اسطورتنا الشخصية، حدّثَ الغرينغو العجوز نفسه عندما قبّل هارييت النائمة، راغباً في ان يستمر حلمها وأن يصمد الى ما بعد الحرب، أن ينتصر على الحرب ذاتها، وذلك الى أن يعود اليها، ميتاً أو حياً، لتستقبله في هذا الحلم غير المُقاطع والذي بمقدوره هو ـ بفعل قوة رغبته والمُستَحث بالرغبة ـ أن يراه وأن يفهمه خلال الأمد القصير لأيما حلم، والـذي ستختزنـه الذاكـرة، أو بقية ذاكـرة، كأنمـا حبكة روايـة محكمة محتشـدة بالتفاصيل، والتركيبات، والأحداث. ربما أراد أن يدعوها الى حلمه هو، لكنه كان حلماً بموتٍ لا يمكن لأحدٍ أن يشاركه فيه. على أية حال، طالما انهما ما يزالان حيين، وبغض النظر عن المسافة الهائلة بينهما، فان باستطاعتهما النفاذ الى أحلام بعضهما بعضاً، والمشاركة فيها. قام بجهدٍ خارق، وكأنما هذا قد يكون فعل حياته الأخير، وللحظة حلم بعينين مفتوحتين وشفتين مطبقتين بحلم هارييت الداخلي كاملاً: الأب المفقود؛ الأم، سجينة الخيالات؛ تنقل الضوء الثابت على الطاولة والضوء المتلاشي في المنزل المهجور.

«انني جد وحيدة».

«بامكانك ان تنالني كما يحلو لكَ».

«... هل نظرتِ الى نفسك في المرآة...؟».

«هل رأيتَ كيف نظروا الى أنفسهم في المرايا يوم أمس؟»، تساءل أروّيو حين امتطى صهوة حصانه الأسود الى جانب الغرينغو فوق مهرته البيضاء. حدّق العجوز من خلال رموشه البيضاء. لم تحجب القبعة المائلة النظرة الجليدية الزرقاء. هزّ رأسه بالايجاب.

«لم يسبق لهم أن رأوا كامل أجسامهم من قبل. لم تتعدَ معرفتهم بأجسامهم اكثر من كونها قطعة من تخيلاتهم أو انعكاس مكسور في نهر. الآن يعرفون».

«أهذا السبب أُبقيَ على قاعة الرقص؟».

«لقد أصبت، أيها الغرينغو. لهذا السبب بالذات».

«لماذا تم تدمير كل شيء سواها؟ ماذا استفدت من هذا؟».

«انظرْ الى هذه الحقول، أيها الجنرال الانديانى». أشار أروّيو بحركة مفاجئة وضجرة من ذراعه دفعت بقبعته الى كتفيه. «لا شيء يُذكَر ينمو هنا. ما عدا الذكرى والمرارة».

«وهل تؤمن بأن الاستياء والعدالة هما الشيء نفسه، أيها الجنرال»، قال العجوز، مبتسماً.

Twitter: @ketab_n

كان جواب أروّيو الوحيد: «نحن نقترب من السفوح».

وعندها كانوا هناك. شاهد العجوز جبلاً مرتفعاً تتلّمَ بصخورٍ بازلتية صفراء. نهضت الجبال مثل وحوشٍ قديمة، مُنهَكَة، وقد دُفِعَتْ من رحم سلسلة الجبال المحايدة بغير حدود والخالدة بذاتها. أجبرَ العجوز نفسه على التذكر بأن الجنود الفدراليون المختبؤون هناك ليسوا بمُنهكين على الاطلاق. عليه أن يأخذ حذره، تماماً مثلما فعل، عندما قام المتطوعون الانديانيون بمساعدة شيرمان(١) بابادة ما تبقى من جيش جونستون(٢) المتمرد إثر سقوط فاي تيفيل(٣). امتلأ رأس الغرينغو العجوز، في ذلك الحين، بفراغٍ رهيب، قريب من السلوان؛ وقتها كان شاباً أراد أن يقاتل الى جانب الزُرق(٤)، مع الاتحاديين، ضد الرماديين(٥)، المتمردين، لأنه ببساطة حلم بأن والده كان يعمل في جيش الكونفدرالية(٦)، ضد لينكولن. لقد أراد تحقيق ما حلم به: الدراما(٧) الثورية لابنٍ ضد أبيه.

«اذا كانوا يريدون الهجوم، فهذا هو الوقت والاّ فلن يفعلوا». قال العجوز، عائداً الى الواقع مثل انقضاض الصقر على فريسته. «نحن في وضعٍ مكشوف الآن».

«اذا قاموا بالهجوم فسنعرف أين هم»، قال أروّيو.

واخترقت رصاصات قشرة الأرض الصلبة على بُعد اثني عشر قدماً.

«انهم متوترون». كشّر أروّيو. «لهذا لم يصيبونا».

أعطى أوامره بالتوقف. ترجلَ الجميع. ما عدا العجوز. واصلَ تقدمه.

«هيه، أنت أيها الجنرال الانديانى. ألا تستطيع التحكم بحصانك؟ لقد أمرت بالتوقف». صاح أروّيو.

استمر بالصياح بينما بدأ العجوز يخب بفرسه ماضياً نحو الصخور الوعرة الصلدة حيث انطلقت منها الرصاصات. «هيه، أيها الغرينغو المجنون. ألم تسمع أمري؟ عُدْ الى هنا، أيها العجوز الأبله!».

لكن العجوز واصل تقدمه في الوقت الذي مرّت فيه زخات الرصاص المنطلقة من

(١) شيرمان: أنظر ثبت الشخصيات والأحداث التاريخية، رقم (١٠) ـ المترجم ـ.
(٢) جونستون: انظر ثبت الشخصيات والأحداث التاريخية، رقم (١١) ـ المترجم ـ.
(٣) فاي تيفيل: Faye tteville: مدينة في وسط كارولاينا الشمالية عند رأس نهر كيب فير. ـ الموسوعة ـ.
(٤) الزرق: لون زي جنود الجيش الاتحادي الشمالي خلال الحرب الأهلية الأميركية. ـ المترجم ـ.
(٥) الرماديون: لون زي جنود الجيش الجنوبي المطالبين بالانفصال. ـ المترجم ـ.
(٦) الكونفدرالية: مشروع الانفصال الذي كان مطروحاً من قبل الجنوبيين. ـ المترجم ـ.
(٧) لجأت الى نقل كلمة Drama كما هي لافتقارها الى رديف عربي يمثلها بكلمة واحدة مثلها ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

البنادق الآلية فوق رأسه، مستهدفةً أرّويو ورجاله، وليست مصوبة الى سراب فارس أبيض فوق حصانٍ أبيض، مرئيّ الى حدّ يبدو فيه غير مرئيّ، يخب متقدماً وكأنه لا يبالي بالرصاص، يتأهب، فاقداً وهقه(١) من قربوس(٢) سرجه. انبطح أرّويو ورجاله على الأرض، خائفون على العجوز اكثر من خوفهم على أنفسهم أو على الفدراليين المختبئين في الكمين. وهناك على بطونهم، انتبهوا الى أن الجنود الفدراليين يخطئون التصويب، وأن نيران البنادق الآلية لا تصلهم ولا تصيب العجوز. ولكنهم سوف يدركون غلطهم في أية دقيقة. وعندها، وداعاً، أيها الغرينغو العجوز، دمدمَ أرّويو، بينما صدره مشدود الى الأرض.

لقد رأوه يتقدم منهم، لكن الحقيقة هي انهم لم يصدقوا ذلك. أدركَ العجوز ماذا يجري ما أن رأى وجوههم المندهشة. لم يكن مثلهم، كان شيطاناً منتقماً أبيض، كانت له عينان لا يملكهما غير الله في الكنائس، طارت قبعته ورأوا، مُلهَمين، خيال الاله الأب. كان في خيالهم؛ لم يكن حقيقياً. كانت حفنة الجنود الفدراليين في حالة ذهول بالمشهد حتى انهم تأخروا باستعادة وعيهم، وارتبكوا باستبدال البنادق الآلية بالمسدسات، غير مدركين الى أن خلفهم ثمة قائداً كونفدرالياً فوق حصانه، مسلول السيف، يستحثهم لانجاز النصر، وأن باتجاه هذا الفارس، الذي يلتمع غضبه من قمة الجبل، إنما ذهب الغرينغو ماضياً، ليس باتجاههم؛ وعندها أطلق الشبح المتغضّن الذابل النار على الرماة المهرة الأربعة فسقطوا ميتين تحت الشمس الحارقة، منبطحين فوق الصخور النارية، وجوههم ساخنة في الموت، وأقدامهم تحفر بين الغبار المُفَاجأ وكأنهم يهدفون الجري نحو ميتتهم، تحدي المنيّة في سباقِ عدو. انطلقت صيحة واحدة من القوة المتمردة، لكن الغرينغو لم يسمعها؛ كان ما يزال يطلق النار الى الأعلى، نحو القمم حيث سار الفارس باللباس الرمادي، أولاً، ثم سقط، إنما اكثر بياضاً منه، ومندفعاً بعنف وسرعة عبر الهواء: الفارس في الفضاء.

ركض الجميع نحو الغرينغو العجوز، لايقافه، لتهنئته، نافضين الوسخ والنباتات الشائكة عن صدورهم، لكنه كان مستمراً باطلاق النار صوب الجُرف، صوب الفضاء، غافلاً عن صيحات رفاقه الذين ما كان بمقدورهم أن يعرفوا منه أن قصةً قد أخذتْ بالتحول الى حقيقة شبحية، قصة كان هو فيها جندياً اتحادياً ساهراً للحراسة أغفى لدقيقة ثم أُوقظَ على صوت لم يطرق سمع بشري قط، صوت أبيه الجنوبي، ممتطياً ظهر حصانٍ أبيض على

---

(١) الوهق Lasso: حبل في طرفه انشوطة يستعمل لاقتناص الخيل والأبقار. ـ المورد ـ.

(٢) القَربوس Pammel: قسم من السرج مقوس مرتفع من قدّام المقعد ومن مؤخره. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

حافة جرف سحيق: قُمْ بما تعتقد انه واجبك، يا سيدي.

«لقد قتلتُ أبي».

«أنتَ رجلٌ شجاع، أيها الجنرال الانديانى»، قال أرّويو.

حدّق العجوز طويلاً وبشكل حاد في عينيّ الجنرال، ظاناً بأنه قادر على اطلاعه على أمور عدة. لكن لا أحد سيكون مهتماً بقصته. ما عدا هارييت وينسلو. ربما. وحتى هي، التي فقدت أباً في احدى الحروب، سوف تفهم قصة كهذه بحرفيتها فقط. إن المشكلة لتختلف عند الغرينغو العجوز، المبهور بهشاشة الأرض التي تعزل الحقيقة عن الخيال: صحفيٌ أم كاتب، تلك هي الخيارات التي ما تزال تطارده. لا، انها ليست نفسها، لكن ينبغي له أن يُسقط جميع الاختيارات من رأسه. لم يكن بمقدوره مواصلة الايمان بأنه مستمرٌ بالعيش، بالعمل، بالاختيار بين الأخبار الموجهة لهيرست وقُرّائه والخيال الموجّه الى الأب والى المرأة؛ ولم يكن ممكناً له كذلك مواصلة التضحية بالثاني من أجل الأول. كان ثمة اختيار واحد، وهو ما كان سبباً لاجابته على أرّويو: «ليس صعباً أن تكون شجاعاً حين لا تخشى أن تموت».

لكن أرّويو عرف بأن الجبال كانت قد بدأت تصيح، من الهوّة الى القمة، من الكهف الى الوادي، عبر التحدرات الجبلية وجداول الماء الجافة: جاء الى هنا رجلٌ شجاع، بيننا رجلٌ شجاع، وطأ حجارتنا بقدمه رجلٌ شجاع.

Twitter: @ketab_n

غير أن الصحراء تنسانا، حدّثَ الغرينغو العجوز نفسه ذاك الصباح. وفي نفس اللحظة، كان أرّويو، مُحدّقاً في السماء، يفكر في أن لجميع الأشياء بيتاً إلا هو والغيوم. استيقظتْ هاربيت وينسلو قائلةً كلمة «غداً» متهمةً ايّاها في انها السبب في إطالة نومها وإيقاظها فقط بالاحساس غير المريح لارجائها بعض المهمات. ظل سؤال العجوز يراودها (هل نظرتْ الى نفسها في مرآة قاعة الرقص؟)، وتساءلت هاربيت، ولم لا؟ ـ ورغم هذا طفقت المرايا تحكي لها قصةً لم تبعث بها السرور. ربما أراد العجوز الليلة الفائتة أن يسألها إن كانت قد رأت شيئاً مختلفاً في مرايا المزرعة، أو عمّا اعتادت رؤيته على الدوام.

«إن روحك لا تختلف عن أحلامك. كلاهما موجودٌ في ذات اللحظة».

«لا تنتمي الروح الى الآنيّ. انها ليست بحلم. انها خالدة».

ولهذا، مشت صباح المشادة الكلامية التي ما تزال مجهولة لديها، بخطوة راسخة نحو القرية المتصلة بالمزرعة، منتعشة وفوّارة ببلوزتها الطويلة وربطتها، ومرتدية تنورتها الصوفية الملأى بالتثنيات ومنتعلة حذاءها ذا الأزرار العالية، بينما تجمع شعرها الأصحر الى ما وراء رأسها على شكل كعكة، تدمدم: الأشياء المهمة أولاً ـ ناسيةً بأنها حين استيقظت شعرت بعدم اليقين حول ما قالته لكنها لم تقله خلال لقاءاتها غير المتوقعة مع الجنرال والعجوز، مُعيدةً بناء وتنظيم الفجوات الطيفية في حديث صحوها وما فعلته والذي لاحقها خلال الليل. كان النشاط اليومي هو الأكثر أهمية بسبب هذه الحقيقة بالذات، قاصدةً بذلك دمج الهجومات الليلة بما هو آنيّ أولاً، ومن ثم تدميرها فيما بعد. لكنها سوف تنام ثانيةً، سوف تحلم ثانيةً: إن مقاطعة الحلم لعقرب الدقائق الذي يطحن يومياً الزمن الداخلي الحقيقي في مطحنة النشاط إنما يؤكد ويشدد على عالم الآنيّ الداخلي فحسب، والذي سيعود في الليل، بينما تنام هي وتحلم وحيدة.

Twitter: @ketab_n

عندما عادت الحملة عند الغَسَق، وجدَ أرّويو الرجال الذين بقوا منشغلين بين خرائب المزرعة، والنساء يهيئن سطولاً كبيرة من الكلس الأبيض، والأطفال جالسين متحلقين حول الآنسة وينسلو في قاعة الرقص التي نجت من التدمير. كان الأطفال يتفادون النظر الى أنفسهم في المرايا. لقد حاضرت المعلمة بقوة ضد الغرور: إن قاعة الرقص هذه إنما هي تجربة أُرسلتْ لاختبار تواضعنا المسيحي، هي قاعة رقص مليئة بخطيئة الادّعاء.

«هل نظرتم الى أنفسكم في المرايا عندما دخلتم قاعة الرقص؟».

كانت قد تعلمت شيئاً من اللغة الاسبانية في مدرستها العادية في واشنطن، وتمكنت من التحدث بها بثقة، وبلا أخطاء حتّى،عندما لم تكن خائفة كما كانت خائفة الليلة الفائتة: الادّعاء، الغرور، الشيطان، الرذيلة. فكرّ الأطفال أن درس السيدة الأميركية اللطيفة لم يكن ليختلف كثيراً عن مواعظ كاهن الأبرشية هنا في المزرعة، ما عدا أن في الأبرشية ثمة أشياء اكثر جمالاً وإمتاعاً يُنظَر اليها في الوقت الذي يتحدث فيه الكاهن. قامت الآنسة هارييت وينسلو بتوجيه الأسئلة اليهم ووجدتهم أذكياء وقابلين لاحراز تقدم. ولكن هل قمتِ بزيارة الأبرشية الجميلة الصغيرة، سنيوريتا؟

«هل رأيت ما هو مختلف عمّا رأيته في واشنطن؛ هل الصورة هي الصورة ذاتها دائماً؟»

عندما تقدم الجنرال توماس أرّويو خاطياً في قاعة الرقص، ممسكاً بالسوط في يده، واجهت هارييت وينسلو عينيه مباشرة. رأت غضبته المختزنة مما أشعرها بالعَظَمة. مَن سمحَ للسنيوريتا باعادة بناء المزرعة؟ لماذا قامت بتوجيه الأوامر الى رجاله؟

«لكي يحصل الناس على سقف فوق رؤوسهم»، أجابت الآنسة وينسلو ببساطة.

«ليس بمقدور كل واحد أن ينام في عربة بولمان صُممتْ خصيصاً لآل فاندر باليتس».

حدّق إليها الجنرال من خلال عينين أضيق من أي وقتٍ مضى. «أريد أن يكون هذا المكان خراباً. أريد أن يبقى منزل عائلة ميراندا خراباً.».

«أنتَ مجنون، يا سيدي»، قالت هارييت، بكل الهدوء الذي تستطيع حشده.

قرعَ كعبيه بتهديد وهو يخطو نحوها، لكنه توقف على مسافة قصيرة كاد أن يلامسها منها. «أرّويو. اسمي الجنرال أرّويو».

انتظرَ، غير انها لم تستجب. صرخَ: «هل فهمتِ الآن؟ ليس لأحدٍ أن يلمس هذا المكان. سوف يظل على ما هو عليه».

«أنتَ مجنون، يا سيدي».

Twitter: @ketab_n

وكان الآن في صوت هاريت وقاحة ما. أمسكَ بها من ذراعها بعنف فكظمت أنّة.

«لماذا لا تقولينها؟ جنرال. جنرال أرّويو!».

«أتركني!».

«أجيبيني، أقول لكِ!».

«لأنكَ لستَ جنرالاً. لم يعيّنك أحد. أنا متأكدة من أنك منحتَ نفسك هذا اللقب».

«تعالي معي».

سحبها خارجاً الى المساء المتأخر. كان الغرينغو العجوز يحتسي كأساً من التاكيلا(*) في عربة الجنرال عندما سمع الاهتياج فخرج ليقف على المنصة. رآهما بوضوح، يواجهان الشمس الغاربة: هي، طويلة ونحيلة؛ وهو، قصيرٌ بالنسبة لرجل إنما عضليّ البنية، إن رجولته لتعوّض ما سلبته المرأة الأميركية من طولٍ أو أخلاق أو أي شيء يمكنك أن تسميه والذي باتَ يخشاه الآن ويشتهيه فيها. كانت هذه أفكار العجوز بينما هو يراقب وينصت في يوم عمله البطولي، يوم لم يرد أن يجلس ويكتب معوضاً عن اجهاده الجسدي ولهذا كان آخذاً بالسكر والصلاة لينتهي هذا اليوم سريعاً ويأتي اليوم التالي، اليوم الذي قد يكون يوم موته. لكنه كان يعرف أن الجائزة، كالعادة، لا تُعطى للشجاع بل للشاب: في الموت أو في الكتابة، في الحب أو في الموت. أغلق عينيه خائفاً: كان ما رآه في البعيد إبناً وإبنة؛ هو كثيف أكمد، وهي شفافة، لكنهما الاثنين ولدا من بذرة المخيلة المُسماة شِعراً وحُباً. كان خائفاً لأنه لم يرد للحب أن يدخل حياته من جديد.

أنظري، قال أرّويو للآنسة وينسلو، مثلما قال للغرينغو العجوز في ذلك الصباح، أنظري الى هذه الأرض. رأت عالماً يابساً، بشعاً، لكنه عالمٌ دراماتيكي جميل، قوي، خالٍ من أي سخاء أو وفرة، مغايرٌ للفاكهة سهلة القطاف: رأت أرضاً على فاكهتها الهزيلة أن تولد من رحمٍ ميتة، مثل طفلٍ يأخذ بالحياة والقتال لكي يولد من الرحم الميتة لأمه.

كان كل من هاريت والعجوز يفكر بأرضٍ أخرى، بأراضٍ اكثر وفرة؛ يفكران بأنهار خصبة، طويلة، كسولة، وبأُبهة حقول القمح المتماوجة على أرضٍ تنشد مثل غطاء المائدة تجاه جبالٍ زرقاء بلون الدخان وتتدحرج بنعومة عند جوانب الجبل المُغطاة بالغابات. الأنهار: فكرا على نحوٍ خاص بأنهر الشمال، إبتهالٌ تدحرَجَ من على لسانهما مثل تدفق ملذات ضائعة في ذلك المساء المكسيكي الجاف والعطِش. هدسن، قال العجوز؛ أوهيو،

(*) التاكيلا : مشروب مكسيكي يقارب العرق عندنا. ـ المترجم ـ .

Twitter: @ketab_n

مسيسبي، أجابت من بعيد؛ ميسوري، بوتوماك، ديلاوير، وختمَ الغرينغو العجوز: المياه الطيبة، الخضراء.

ما الذي قاله الغرينغو العجوز للآنسة هارييت الليلة الفائتة؟ انها جاءت كمعلمة الى مزرعة لم تكن قد رأتها من قبل، والتي ما غادت موجودة، لتعلّم الانكليزية لأطفالٍ لم تعرفهم، أو لا تعرف عنهم شيئاً، حتى وإن وجدوا.

«لقد ملّوا»، قال أرّويو، وكانت كلمات ثقيلة وجافة في هذه الأرض الخالية من الأنهار.

لقد ملّوا: جاء أسياد المزرعة الى هنا من حينٍ الى آخر على سبيل العطلة فقط. لقد أدار أحد المراقبين كل شيء نيابةً عنهم. تلك لم تعدْ أزمان مالك الأراضي المستقر الذي يغمض عينيه عن القطيع ويزن كل قنطار من الحبوب. عندما جاء هؤلاء المالكون، شعروا بالملل وشربوا الكونياك. صارعوا الثيران الفتية. وكذلك قاموا بالطراد فوق ظهر الخيول عبر الحقول المحروثة، مسببين الهَلَع لأرقاء الأرض المنحنين فوق محاصيل تشابيواهوا المقهورة من الفاصولياء، والخس البري، والقمح النحيل؛ وضربوا ظهور الرجال الأضعف بوجه المنجل، وربطوا بأنشوطة صيد الخيل النساء الأضعف وقاموا باغتصابهن فيما بعد في اسطبلات المزرعة في الوقت الذي تظاهرت فيه أُمهات الأسياد الشبّان بعدم سماع صرخات أمهاتنا وشربَ آباء هؤلاء الأسياد الشبّان الكونياك في غرفة المكتبة وقالوا، انهم شباب، هذا هو عمر انغماسهم في حماقات الشباب وشهواته، والآن أفضل من غد. سوف يستقرون. لقد قمنا نحن بالشيء نفسه.

لم يكن أرّويو يشير الآن نحو الأرض الملعونة. كان الآن يُجبر هارييت على النظر الى خرائب المزرعة المتفحمة. لم تقاوم ذلك جسدياً لأنها لم تقاومه عقلياً. كانت تُذعن لأرويو حسب ما كان يريده أرّويو، حدّثَ العجوز نفسه، منتشياً بمآثره العسكرية، بدودة الأدب المُبعَثة، برغبته بالموت، بخوفه من «ميتةٍ مشوهةٍ لجثته: كلاب، سكاكين، ذكرى وَجَعٍ آخر عندما يصير وجعه هو؛ خوفه من أن يموت إثر صدمة ربو؛ رغبته في أن يموت على يد شخص آخر. كل هذه الأفكار جاءت في نفس الوقت: «أريد أن أكون جثة جميلة».

«أنا إبنُ شهوة رجلٍ ما، إبن الصُدفة وسوء الحظ، سنيوريتا. لم يحمِ أمي أحد. كانت فتاة شابة. لم يكن لديها زوج، ولا أحد يدافع عنها. ولدتُ لأدافع عنها. أنظري يا آنسة. لا أحد يدافع عن أي أحد هنا. حتى الثيران. إن إخصاء الثيران، أجل، كان اكثر إثارة من مضاجعة الفتيات المحليات. رأيت عيونهم تشعّ وهم يقطعون خِصاهم، صائحين،

Twitter: @ketab_n

ثور، ثور، أيتها الأبقار المُحَيَّرة(*)!».

كان قابضاً على كتفيّ هارييت بإحكام لكنها لم تقاوم لأنها عرفت بأن أرّويو لم يسبق له أن قال أشياء كهذه لأيٍ كان وربما فهمت أن ما يقوله أرّويو كان صحيحاً بسبب كونه لم يعرف العالم وحسب. «من الذي أعلنني جنرالاً؟ سأقول لكِ مَن. سوء الحظ عينني جنرالاً. الصمت عينني جنرالاً، ممسكاً لساني عن النطق. انهم يقتلونك هنا إذا ما أصدرت أيما صوت في الفراش. اذا ما تأوه رجلٌ وامرأة خلال وجودهما معاً في الفراش فانهما يُجلدان. كان هذا دليلاً على عدم احترام عائلة ميراندا. كانوا قوماً شرفاء. لقد مارسنا الحب وتمت ولادتنا بلا صوت، سنيوريتا. وأنا أملك ورقة بدلاً من الصوت. اسألي صديقك العجوز. هل يهتم بأمورك جيداً؟» سأل أرّويو وكأنه، دون مسايرة للسياق، عَبَرَ على نحو مفاجيء من الدراما الى الفكاهة.

«الانتقام»، قالت هارييت متجاهلةً ايّاه. «الانتقام هو الذي يحركك. هذا هو مَعْلَمك المؤشِّر للانتقام، ولكنه الذي يشير أيضاً الى احتقارك لشعبك. ليس بمقدورك أن تأكل انتقاماً، أيها الجنرال».

«اسأليهم إذن»، قال أرّويو مومئاً صوب قومه.

(قال لها اينوسنسيو مانسالفو الشجاع: «اذا ما تعلق الأمر بي، فانني لا أحب الأرض، سنيوريتا. سأكون كاذباً إن قلت لكِ بأنني أحبها. أنا لا أريد تمضية حياتي محنيّاً في الحقول. أريد للمزارع أن تحترق؛ أريد لجميع العاملين في الأرض أن يتحرروا، وبذلك نستطيع أن نعمل حيثما نريد، في المدينة أو في الشمال ـ في بلدك، سنيوريتا. واذا لم يتحقق ذلك، فلسوف أواصل القتال للأبد. لن أنحني بعد اليوم؛ أريد من الرجال أن ينظروا اليّ في الوجه»):

(قالت لها لاغوردونيا: «كان بابا رجلاً عنيداً. لقد صمم على حراسة قطعة الأرض الفقيرة التي استقرينا عليها، غير أن رجالاً مسلحين أتوا من المزرعة وقتلوا بابا وماما، التي كانت ستلد أخاً صغيراً أو أختاً صغيرة، مَن يمكنه العلم بذلك...؟. كنت حينذاك طفلة صغيرة فاختبأت تحت قِدر طبيخ. بعثَ بي بعض الجيران الى دورانغو لأعيش مع عمتي العانس العجوز، دونا جوزيفا أرّيولا. وفي أحد الأيام انعطفت الثورة ناحيتنا وجذبَ وَلَدٌ عيني، ولدٌ تحركَ وبدا لي أنه يناديني... آه، يا بابا المسكين، آه يا ماما المسكينة، آه يا للملاك المسكين الصغير الميت...»).

(*) المُحيَّرة Sexless: ليس بالمذكر ولا بالمؤنث. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

(قال لها الكولونيل غارسيا: «كانوا يخنقوننا في تلك البلدات الريفية، سنيوريتا وينسلو. كان الهواء نفسه ملفوفاً بالحداد في الصباح. انكِ تشاهدين أحياناً هنا الناس الأقل شأناً، سارقي الماشية السابقين، أرقاء الأرض الذين لا يملكون شيئاً، أو هؤلاء المتذمرين للتو مثل مصيبة. ولكن أنظري اليّ. أنا ابن تاجر. اسألي نفسك كم عدد الذين مثلي وقد امتشقوا السلاح لدعم الثورة، وانني أتكلم عن الناس أصحاب الاحترافات، الكُتّاب، المعلمين، الصناعيين الصغار. نحن نستطيع حكم أنفسنا، أؤكد لكِ ذلك، سنيوريتا. لقد تعبنا من عالمٍ محكوم من قبل زعماء القبائل، والكنيسة، والارستقراطيين المتبخترين الموجودين لدينا هنا على الدوام. أنتِ لا تعتقدين بأننا اكفاء، اذن؟ أم انكِ تخشين العُنف الذي لا بد وأن يسبق الحرية؟»).

«اسأليهم، اذن»، قال أرّويو، مومئاً صوب قومه. أدار ظهره لهاربيت، سائراً مبتعداً بكبرياء، ورأسه بإتجاه واحد.

ومن فوق منصة عربة البولمان أخذ العجوز يراقب وينصت ويتخيّل.

«ما هي ذريعة الحب الأقوى؟ أهي مختلفة عن ذريعة الفعل؟».

على أية حال، لقد فهمَ بأن أرّويو قد انتهز هذه المناسبة ليريه «ما يحتفظ به في رأسه» بدلاً من حروف الهجاء.

Twitter: @ketab_n

كان قد بدأ يشعر بتأثير الكحول، لكنه التقى بها على منصة العربة ومنحها ذراعه مثل سيدٍ مهذب على الطريقة القديمة، إذ حُلّتْ جميع صراعاته في هذا الواقع: امرأة شابة وجميلة في وضع اجتماعي رائق بعيدة عن أي قرارات، فالحياة، بعد كل...

قبلتْ بكأسٍ صغير من التاكيلا.

«اذن!» تنهدتْ هاريت وينسلو، لاعبةً دور امرأة أميركية شمالية آملةً ان تجد في كأس شرابها بعض السلوى، وهي تُطل على الغَسَق وبصحبتها مواطن أميركي. «ليس أمراً هيناً، كما تعرف، أن تُخلّف نيويورك وراءك. ليست واشنطن في الحقيقة مدينة، انها مكان للعبور. الممثلون الرئيسيون يتغيرون باستمرار». ضحكت بخفوت، وكان على العجوز ان يتساءل ان كانت هذه المحادثة تجري عند قدوم الليل في صحراء مكسيكية بدائية.

«لماذا تركتِ نيويورك؟». سأل.

«لماذا تَرَكَتنا نيويورك؟». اكّدت ضحكتها الخافتة على بهجتها، وحدّث العجوز نفسه ان تأثير الشراب على هاريت أقوى من تأثيره عليه، اذ كانت نتيجته الاصابة بالدوار السريع. كان كل ما يريد ان يسأله من جديد: عند دخولك لقاعة الرقص، هل نظرتِ الى نفسكِ في المرايا؟

لكنه، وبنظرة سريعة الى المرأة التي كادت قبل لحظات قليلة ان تكون بين ذراعيّ غريب شاب، أدرك بأنها تُفضّل ان لا تتحدث عن ذلك؛ كما أنها، من ناحية ثانية، لا تريد ان تبدو غير لبقة وتسأله عن حياته. لقد رأت في ذلك الصباح حقيبة العجوز المفتوحة، كتابان بالانكليزية، كلاهما من تأليف نفس الكاتب، ونسخة من الكيخوته؛ والآن، الى جانب كأسه، رأت بعض الصفحات المخطوطة وقلماً قصيراً غليظاً. كان من السهل عليها الاثنين ان يتحدثا عنها، عن ماضيها. لقد قاتل العجوز اليوم؛ وكان من الممكن ان يموت.

Twitter: @ketab_n

رشفت من كأسها وقالت له، بلا كلمات، أعرف انك قاتلت اليوم، فالاثارة واضحة في وجهك؛ ولن أبخل عليك ببعض الصراحة، وحتى بشيء من الحنو. لهذا السبب اختارت ان تتحدث عن نفسها وان تجيب على سؤال العجوز المُصِّر بموارية: «كثيرة جداً هي الأشياء التي بقيت دون اجابة عندما ذهب أبي الى كوبا. كنت في السادسة عشرة، ولم يعد أبداً».

أخبرته بأن تاريخ عائلتها تاريخ عجيب، يمكن ان تفكّر بأنها لفّقت ذلك، خصوصاً «عندما أُخبرك به هنا». في ١٨٤٠ كان عمها الأكبر أحد الرجال الأكثر ثراءً في نيويورك. كان له ولد يفتخر به كثيراً، بعث به الى أوروبا ليصبح رجلاً وبالاضافة الى ذلك، وكدلالة على الثقة الأبوية، كلّفه بشراء بعض اللوحات الفنية القديمة. وبدلاً من ذلك، قام «عمي لويس الرائع» بشراء رسومات لم يقدّرها أحد: لوحات لجيوتّو(*)، وأعمال لفنانين بدائيين. «أتعرف ماذا حصل؟ لقد حرمه عمي الكبير هالستون من الميراث! لقد اعتقد بان ابنه قد استخف به بشرائه رسومات فظيعة وغير مُتقنة كهذه، وليست مناسبة أبداً لأن تُعرض على السيدات والسادة في صالون قصر على شواطىء لونغ آيلند ساوند.

«ترك كل أمواله لابنتيه، وكنوع من الدعابة، ترك للويس الرسومات، التي اعتبرها بلا أي قيمة. احتفظ عمي لويس بالصور ومات معوزاً. احتفظت بها احدى العمّات العوانس في عليتها، وعندما ورثتها جدتي اعطتها لأحد الناس. وبعد عشرين سنة حين تم بيعها أخيراً بالمزاد العلني، ثمنت بخمسة ملايين دولاراً. كان عمي لويس قد دفع خمسة آلاف ثمناً لها. لكن بالنسبة لنا، فلقد فات الأوان».

رفعت كأسها وقالت للغرينغو العجوز: هل يمكنك تخيّل ذلك؟ وقال نعم، بامكانه تخيّل أحلام شابة صغيرة بان تكون ثرية في نيويورك في بداية القرن، حين كانت الحياة لذيذة هناك؛ بدلاً من «الحاجة الى الانتظار، كما كان على أمها ان تنتظر أيضاً، لم يكن ذلك سهلاً، كلا، لم يكن ذلك سهلاً»، لأنهما ما كانتا معتادتين على قبول الاحسان، بأي شكل من الأشكال، فالخُطّاب لا يتجمعون حول فتاة لا تملك دوطة، ابنة ضابط ثانوي سقط في الحملة الكوبية، ابنة أرملة نقيب في الجيش، تدرس في مدرسة عادية في واشنطن العاصمة، لتكون قريبة «من الله يعرف ماذا و. .

(*) Giotto di Bondone: طلائعي ايطالي قاد حركة الرسم في عصره (١٢٦٧ ـ ١٣٣٧)، وتميّز في لوحاته الدينية برسم أجواء مسرحية للمشهد، وأرسى قواعد جديدة في فن الرسم. من أشهر أعمال جيوتّو، خلال حياته، جداريته من المزاييك المُسماه Navicella، والتي أنجزها عام ١٣٠٠، لكنيسة القديس بطرس في روما، الاّ انها دُمّرت بالكامل ـ الموسوعة ـ

Twitter: @ketab_n

«حسناً، ثم . . . ماذا عنك أنتِ؟ هذه هي نهاية قصتي».

«تخيلي . . .».

«أجل»، قالت، «أجل»، ونظرت من جديد الى صفحات الورق المخطوطة، والى القلم القصير الغليظ. «لقد درسنا الأدب في المدرسة، كما تعرف، يا سيدي. ان جلبك لكتاب سرفانتس الى المكسيك لهو شيء رائع».

«لم أقرأه أبداً، قال الغرينغو العجوز. «فكّرت بأنني هنا . . .».

«ليس ثمة وقت متأخر على قراءة الكلاسيكيات.». ورفعت هاريت كأسها هذه المرة فملأها الغرينغو قبل ان يملأ كأسه الرابعة، الخامسة . . . «أو كُتّابنا المعاصرين. أرى أيضاً انك جلبت كتابين لمؤلف اميركي حيّ . . .».

«لا تقرأيها»، قال العجوز، ماسحاً لسعة التاكيلا عن شاربه. «انهما كتابان شديدا المرارة، معاجم الشيطان(*) . . .».

«وأنتَ؟»، أصرّت، مثلما أصرَّ هو: هل رأتْ نفسها في المرايا عندما دخلت قاعة الرقص؟ ما هي القصة التي حكتها لها المرايا؟

هو؟ هل تعتقد بأنه سيُطلعها على ما يشعر به؟ جئتُ الى هنا لأموت، أنا كاتب، أريد ان أكون جثة جميلة، لا أحتمل ان أخدش نفسي عندما أحلق ذقني، أعيش في ذعر من أن كلباً مسعوراً سيعضني وسأموت مشوهاً، لست خائفاً من الرصاص، أريد ان أقرأ دون كيخوت قبل ان أموت، ان تكون غرينغوياً في المكسيك هي طريقة من طُرق الموت، انني . . .

«انني عجوزٌ مرير. لا تلتفتي اليّ. الصدفة هي التي جمعتنا. إن لم أكن قد التقيتكِ، يا آنسة هاريت، فانني متأكدٌ من انني كنت لأصادف احد الصحفيين الأميركيين المتبعين لفيللا. ما كنتُ مضطراً لأن أخبره بقصتي. كان سيعرفها».

«لكنني لا أعرفها»، قالت هاريت وينسلو. «ولقد كنت صريحة معك. هل قلت بأنك عجوزٌ مرير؟».

«جُملة كهول مريرين. صحفيٌ خسيس وفضائحي في خدمة أحد أساطين الصحافة ومُرتشٍ مثلي مثل أي واحدٍ استنكرُهُ باسمه. لكنني كنتُ صافياً، يا آنسة هاريت، هل

(*) معاجم الشيطان The Devil's Dictionary: أحد كتب أمبروس بيرس، الكاتب والصحفي الأميركي، نُشِر عام ١٩٠٦. أنظر ثبت الشخصيات التاريخية، رقم (٩) ـ المترجم ـ

Twitter: @ketab_n

تصدقينني؟ صافٍ، لكن مرير. لقد هاجمت شرف ولا شرف جميع الرجال، بلا تمييز. كنتُ في زمني مرهوب الجانب ومكروهاً. هاكِ خذي كأساً أخرى، ولا تنظري اليّ هكذا. طلبت مني ان اكون صريحاً. وسأكون كذلك. ان أكون صريحاً هو ما أُجيده».

«لست متأكدة، في الحقيقة، بأن. . . ».

«لا، لا، لا!» قال الغرينغو العجوز بحزم: «أنتِ تعرفين لماذا عليكِ ان تستمعي اليّ اليوم».

«غداً. . أنا أعرف اسمك».

كشَّر العجوز بتهكم. «كان اسمي مرادفاً للبرودة، للخلو من العاطفة. كنتُ مُريد الشيطان، ما عدا انني ما كنت لأقبل حتى بالشيطان سيداً. وأقل من ذلك الله، الذي قذفته بما هو أسوأ من التجديف: إنزال اللعنة على كل ما خلقه».

حاولت ان تقوم بتحويل لبق: كانت ميثودستية، كان يحلم، أعطها دقيقة، أرادت ان تتخيل ذلك، لكنه ما كان ليطيق أي خدعة، أي الهاء. لقد اختلق وصايا عشراً جديدة(*)، وقال العجوز على نحوٍ مفاجيء: «لا تعبدوا اية صورٍ غير تلك التي تصكها الدولة، لا تقتل لأن الموت يحرر عدوك من عذاب الاضطهاد المستمر، من السخف ان تسرق لأن ذلك مكشوف، انما في الغش مكسبٌ أكبر؛ أكرم أباك وأمك اذ من المحتمل ان تدفعك وصيتها الى النجاح والتقدم».

«وهكذا خلقتُ لنفسي عائلة جديدة، عائلة تخيلاتي، عبر (نادي قتل الأبناء للآباء) خاصتي، وكان الهدف التدمير، يا الهي. لماذا، لقد تتبعتُ علامات وحشية الانسان ضد الانسان حتى على صدر أمي، وحفزت العاشقين على عض بعضهم بعضاً عندما يتبادلون القبلات، أجل، أُقرصْ، عضّ، حيوانات، افترسوا بعضكم بعضاً، عضّوا و. . . ها!».

وثب من على كرسيه، ناثراً القلم والأوراق متقلقلاً في توازنه فوق ذراع الكرسي حيث كان جالساً، ورأيا من على المنصة ليل الصحراء يجدد نَسَبه بالبحر المتلاشي. وفي البعيد، كانت الجبال الجرداء الخشنة في لون الاهرامات. ومرَّت العصافير لاحقةً بصوت العشب الناشف ذي الهفيف.

«أوه، لقد امتلكت لحظتي من المجد»، قال العجوز، ضاحكاً بسخرية، وجاثياً على

(*) الوصايا العشر: أساس من أُسس التعاليم المسيحية، وهي: أنا الرب الهك، لا يكن لك الهٌ غيري. لا تحلف باسم الله بالباطل. إحفظ أيام الآحاد والأعياد. أكرمْ اباك وأمك. لا تقتل. لا تزنِ. لا تسرق. لا تشهد بالزور. لا تشتهِ امرأة قريبك. لا تشتهِ مُقتنى غيرك. ـ المترجم ـ

Twitter: @ketab_n

ركبتيه، ملتقطاً أدوات الكتابة المتناثرة. «صرتُ الى حدٍّ بعيد الخصم الرهيب لمُفسد ومختلس كاليفورنيا العظيم بحيث دعاني أخيراً لزيارته في مكتبه، وحاول رشوتي. «أوه، لا»، قلت، «انت لا تستطيع رشوتي». لقد ضحك، يا آنسة وينسلو، مثلما أضحك الآن، وقال. «لكل رجل ثمنه». وأجبت، «انت على حق. اكتب لي صكاً بمبلغ خمسة وسبعين مليون دولاراً». «باسمك ام باسم حامله» سأل ليلاند ستانفورد(*)، ودفتر الشيكات مفتوح والقلم في يده، هازئاً مني بطريقة أسوأ من الهزء نفسه، والاشتراك في الجريمة ماثلٌ في عينيه الفأريتين الرماديتين. «لا»، قلت، «باسم خزينة الولايات المتحدة، وبالقيمة ذاتها للأراضي العامة التي سرقتها!» وانك، يا آنسة وينسلو، لن تشاهدي أبداً وجهاً كوجه ستانفورد حين قلت له ذلك. ها!».

استمتع العجوز بجرأته المتهورة الآن اكثر مما استمتع بها عندما كان في مكتب ستانفورد. في ذلك الوقت، كان عليه الاحتفاظ بوجه متخشب، اما الآن فبوسعه الاستمتاع بها، كانت الذكرى افضل من الحقيقة، أوه، هل بوسعه الضحك الآن! اذ من الجائز ان يموت غداً؟ هذه حقيقة انت تعرفين، قال، مكفكفاً دموع الضحك بحاشية غطاء طاولة أحمر بُشرّابات، ان الصحفي الفضائحي بحاجة الى بارون لص كما هي حاجة الوردة الى سماد، اذ دون وجود الانحطاط بماذا يمكنك ان تقارني العظمة؟.

لم يتكلم للحظة، وشاركته الصمت. كان يتذكر مسيرته عبر الجبال قبل أيام معدودة، ولقد استعاد حتى الآن التنفس القوي للخلق الذي هبَّ عبر السيرامادري.

«كان ينبغي عليّ أن أقبل بعرض ستانفورد والقاء وظيفة هيرست في وجهه، بدلاً من مواصلة التقتير، جارماً زوجتي وأطفالي الراحة، وبعد ذلك أُضاعف من ذنبي بتبديد القليل الذي وفرته في تلك الحانات اللعينة في سان فرانسيسكو حيث يتجمّع جميع الكاليفورنيين الطيبين ليحدّقوا في البحر، وبذلك يمكننا ان نحدّث أنفسنا: ذهبت الحدود، أيها الأولاد، ماتت القارة، ذهب المصير الواضح(*) الى الجحيم في سلّة يدوية، اذن اين سنجد مغامرة لنا؟ في سراب صحراء؟».

وبعد كأس أخرى: «ليس من غرب بعد، أيها الاولاد، سوى ذاك الذي في الجدود المضببة لزجاجة ويسكي فارغة».

(*) أنظرْ ثبت الشخصيات والأحداث التاريخية، رقم (١٢) ـ المترجم ـ

(*) المصير الواضح Manifest Destiny أنظر ثبت الشخصيات والأحداث التاريخية، رقم (١٣) ـ المترجم ـ

Twitter: @ketab_n

أخذت هاريت بيد العجوز المرتعشة وسألته ان كان متأكداً بانه يريد المُضي بالحديث، أليس ما قاله حتى الآن محبطاً كفاية، وانه تكفير في الذاكرة؟ لكنه قال لا، لم يكن تكفيراً لأنه استمر محاولاً تبرئة نفسه، لم يكن مسؤولاً.

«أرى نفسي على غرار ملاك منتقم، أترين هذا. كنت مُريد الشيطان المرير والمتهكم لأنني كنتُ أحاول ان اكون منافقاً مثل الناس الذين احتقرتهم. لا بد انك تفهمين، انت ميثودستية، انا كالفينيّ، كل واحد منا يحاول ان يكون اكثر فضيلة وطهارة من الآخر، ليفوز بالسباق ويرى من هو الأشد تطهراً، لكن، ومع الأيام، نؤثّم الأقرب الينا كاثناً من كان ـ وانك لترين، يا آنسة هاريت، بان القوة الوحيدة التي احتزتها في الحقيقة كانت ضد زوجتي وأطفالي، وليست ضد قُرائي، اذ كانوا معتدين بأنفسهم مثلي أنا، أو مثل هيرست، كان كل واحد منهم يقف راسخاً على جانب الفضيلة والاستقامة والسخط، قال كل واحد منهم: أنا لست بالشخص الذي تتهمه وتشجبه، لا، ذاك هو أخي الخسيس، القارىء الآخر. لا، لم أملك قوة ضد أهداف غضبتي الصحفية الشديدة وأقل من ذلك ضد الرجال الذين تلاعبوا بمزاجي وغضبي وأثّروا بهما من أجل مصالحهم. فلتحيا الديموقراطية!».

لم تترك يده. (وحيدة تجلس وتتذكر). لماذا، تساءلت، عليها ان تختار بين هؤلاء الموجودين هنا الذين بحثوا عن لعنة الموت لكنهم رغم هذا عاشوا لحظاتهم الأخيرة يفتشون عن التفهم، وأولئك الذين اعتبروا الموت هبة الحياة، غير انهم استداروا مبتعدين عن الهبة، رافضين القبول بها. مَسّدت على يد العجوز الخشنة بخاتم الزواج الثقيل. وكان كل ما استطاعت قوله، بعاطفة متيقظة: «اذن كيف لك ان تعرف ما معنى ان تكون مهزوماً؟». تكلمت بالانكليزية، انما بتغير في النبرة غير مُدرك منها، بحركة نحو تآلفٍ عاطفي تمثّل باستخدامها للفظة «أنتَ» المُحببة. ولكون العجوز كان مستغرقاً بالتفكير بنفسه، بذكرياته، لم يلحظ تقربها، اذ كان يتمتم بان في يوم ما اكتشف الساخر المرير العجوز بانه كان حساساً مثلما هم الناس الذين احتقرهم: عجوزٌ غارقٌ في الحنين الى الماضي وذكريات الحب والضحك.

«لم أستطع احتمال الم الذين أحببتهم. ولم أستطع احتمال نفسي بكوني أحمق حسّاساً عندما ربت سوء الحظ على كتفي».

ضغط على يديّ هاريت وينسلو مثلما غيوم الليل العابرة تفتش عبثاً عن مراياها في الصحراء وتواصل جريها صوب قدرها الشارد. لم يكن، أقسم للآنسة هاريت، ليطالبها بمشاركته سوء حظه؛ كل ما هنالك انه في الغد، ربما... لقد فهمت، كانت الوحيدة التي

Twitter: @ketab_n

بمقدورها ان تفهم، وشعر كلاهما بقليل من السعادة.

«لكن ليس عندي سوء حظ لاشارك به»، قالت الآنسة وينسلو على نحو فجائي، وببرود. «لقد عانيت من الاذلال فقط، واني لأحتقر الثرثرة».

لم يكن في الحقيقة ينصت الآن، وما كان أيضاً بقادر على قياس التغيرات العديدة لأمزجتها، نزواتها، ارادتها، جلالها، ضعفها. لكنه ظل ممسكاً بيديها في يديه.

«كنت أريد فقط ان أقول لك انه ينبغي عليك فهم هزيمة الرجل الذي اعتقد بانه كان سيد مصيره، والذي اعتقد حتى بامكانية ان يُشكل مصائر الآخرين عبر اتهام وهجاء صحافي، أنا، الذي أصرّيت بعناد على كوني صديق الحقيقة، وليس صديق أفلاطون، بينما قام مولاي وسيدي في الصحافة بتعزيز غضبي الوحشي من أجل المجد الأعظم لاهتماماته السياسية ومعدل انتشار العدد الضخم للنسخ المباعة ولرصيده البنكي الكبير. أوه أي أحمق كنتُ، يا آنسة هارييت! ولكن هذا ما دفعوا لي من أجله، من أجل أن أكون الـمُغفّل، المُهرِّج، لقاء أجر مولاي وسيدي على هذه الأرض».

وعانق هارييت برقة، دافناً وجهه في ذلك الشعر الذي كان الجواب الحي للصحراء، مفكراً فقط بأنها حيوية الحب الفيزيقي ما قد دفعه لأن يستمر بالعيش، القُرب من جسد آخر، وليست رقة الشعور البغيضة والشفقة، آملاً في أنها سوف تتفهم او تتقبل مثل هذا الفارق، ان تتقبل باسم ابيها الغرينغو العجوز الذي أرادت ان تراه وتستمع اليه، ليس كصحفي، بل كرجلٍ عسكري ضاع في المعركة، ضاع في الصحراء بلا راحة سوى تلك التي تمنحها هي، رفيقته مواطنته التي تشربتْ بعقائد الشرف العسكري وواجب اعانة مواطنيها في أرضٍ غريبة. لقد مات ابني مرتين، قال لها، أولاً كمدمن كحول ومن ثم كمنتحر، بعد ان قرأني وقال لي، أيها العجوز، لقد كتبت طبعة موتي الزرقاء(*)، أوه، أيها العجوز المحبوب.

«يُبتلى أحدنا بمرض مؤلم أو كريه، وأحدنا يُشكّل عبئاً ثقيلاً على الذين يهتم بهم، وأحدنا يتهدده الخبل، وأحدنا بلا مُلكية، وظيفة او امل، احدنا الحق بنفسه العار، واحدنا يتعذر شفائه من ادمانه للكحول! لماذا يُجلّون جندياً باسلاً أو رجل اطفاء ولا يُجلّون المنتحر بدافع من احساسه بواجب ذلك؟

«ها أنتِ تدركين هذا، يا هارييت»، قال لها، وكأنه يخاطب النجوم الميتة، وليس

(*) صورة المادة او النص المهيأ للطباعة قبل المباشرة بالتنفيذ، وتُسمّى أحياناً بصورة او نسخة الأمونيا ـ المترجم

Twitter: @ketab_n

الاذن الدافئة الندية الجد قريبة من شفتيه، وكأنما ذراعا المرأة لم تكونا تشدّانه الى صدرها، «لم يكونوا في الحقيقة ضدي، كانوا ضد الحياة التي عشتها. لقد قرر الرجل الذي كان ابني البكر ان يموت في الكلمة الفظيعة التي كتبتها من أجله. وقرر الرجل الذي كان ابني الأصغر ان يموت عن طريق اثباته لي بانه امتلك الشجاعة ليموت في سبيل الشجاعة».

ضحكَ صاخباً «اعتقد بأن ولديّ قتلا نفسيهما كي لا أسخر منهما في جرائد رئيسي ويليام راندولف هيرست».

«وزوجتك؟».

تابعت عينا الغرينغو العجوز خط الأرزات المالحة المُحددة النهر الضحل. ان تلك الشجيرات العطشة، وافرة النماء انما تختزن الماء القليل فقط لتحيله الى مر، مالح، ودون نفعٍ لأي غرض. لقد ماتت وحيدةً وملأى بالمرارة، ماتت بمرض عميق ومفنٍ، الشعور الذي استنفدته في عمر كامل في آلاف الاتهامات المضادة الحزينة لشخصين يمضيان أياماً دون ان يتخاطبا، دون ان ينظرا الى بعضهما حتى، المصادمات التي لا تُطاق لحيوانين أعميين في كهف أسود.

«الموت وحده هو القادر على التعويض عن نكدٍ حقود بهذا الحجم، استدعاء الصمت، العبقرية في العمل، ومن ثم، أين هو البرهان على موهبة التبجح الهائل؟»، سأل العجوز، عائداً الى الواقع، واعياً للوجع في رأسه، مبتعداً عن هاربيت وينسلو كابتعاد الخاطىء عن متلقي الاعتراف ومفتشاً عن أرض يمكنه ان يركع عليها لتحمل كفّارته. حاول الغرينغو العجوز ان ينفذ في ظلام الصحراء الحبري، ان يتخيل عليقات الكريوسوت التي تنمو هناك، مبقياً على مسافاتها الفاصلة لها عن النباتات الأخرى لأن جذورها السامة تُميت اي شيء ينمو بالقرب منها. ولذا فلقد ابتعد عن هاربيت وينسلو.

«وابنتك؟»، سألت بصوتٍ ارتجف للمرة الأولى، ولعنتْ على الفور خيانة المشاعر تلك.

«أقسمت ابنتي على ان لا تراني ثانيةً»، أجاب، مجاهداً كي يوازن نفسه، بينما كانت يداه المتوترتان تبحثان عبثاً عن كأسٍ او قطعة ورق. «قالت لي: لسوف أموت دون أن أراك ثانية، واني لأتمنّى ان تموت قبل ان تعرف كم انك سوف تفتقدني. لكنني أشكُ في ذلك، يا آنسة هاربيت، أشكُ في ذلك لأنني رأيت في عينيها الأمل المحترق في انني سأتذكر كل الأشياء الصغيرة التي، بالرغم من كل شيء، جمعتنا معاً سنين كثيرة. أكان الوضع هكذا بينكم أنتم الثلاثة، يا آنسة هاربيت، أنتِ ووالدكِ وأمك؟».

Twitter: @ketab_n

لم تجب. أرادت ان تسمع النهاية. لم تكن تريد العجوز أن يحدّق بعمىً مرة اخرى في ليل الصحراء، باحثاً عن نظير مستحيل. (ما زالت جالسة وتتذكر. أرادت من العجوز ان يُنهي، كي لا تكون بحاجة الى أن تبدأ ابداً). لقد عرفت بان قصة عمها الأكبر هالستون التراجيدية الكوميدية واللوحات الايطالية لم تكن بكافية مقابل هدية مواطنها العجوز الكاتب التي منحها إيّاها في قصة حياته.

«وابنتكَ؟».

«هل تذكرين المسرّات الكثيرة الصغيرة المشتركة بين أبٍ وابنة، ومن ثم: الأسىٰ الشنيع للادراك بأن ذلك كله قد ذهب للأبد؟».

«وابنتك؟»، كادت هاربيت وينسلو أن تصرخ، انما ببرود عنيد، مُسيطر عليه.

«قالت لي بأنها لن تغفر الألم القاتل الذي عانت منه وهي أمام جسديّ أخويها الاثنين. لقد قتلتهما الاثنين، قالت لي، كلاهما».

«ووطنك؟»، إرتفع الآن صوت هاربيت محملاً بالغضب، مخفيةً خوفها من أن لا تتابع وحدها، عليّ ان أُجيب العجوز، ووطنك؟. ووقع في المصيدة. لقد سخرتُ من ذاك، أيضاً، بالطبع، هل أرادت ان تعرف أنه سخر كذلك من معنى الشرف الوطني، من الواجب الوطني، من الولاء للراية؟. لماذا، أجل، حتى هذا، ولذلك فلقد خشيته عائلته، لقد سخر من الله، وطنه، المال؛ إذن، يا لشفاعة الله: متى سيكون دورهم؟ لا بد أنهم سألوا انفسهم هذا السؤال، متى سيكون دورنا؟ متى سيلتفت والدنا الملعون ضدنا، يحاكمنا، يقول لنا بأنكم لستم الاستثناء، انتم تبرهنون القاعدة، وانتِ، أيضاً، زوجتي، وأنتِ، ابنتي الجميلة، وانتما، ولداي، أنتم جميعكم جزء من البذاءة الجديرة بالسخرية، توافه الله، التي نُسميها الانسانية.

«لسوف أدمركم جميعاً بسخريتي. لسوف ادفنكم جميعاً تحت قهقهتي المسمومة. لسوف أضحك عليكم كما أضحك على الولايات المتحدة، على جيشها السخيف ورايتها».

قال العجوز لاهثاً، وقد صدمته نوبة الربو.

بلادي، أنتِ
أرض الجريمة الزاهية...

لم تُبد هاربيت أيما حركة لتساعده، راقبته وهو يختنق وحسب، محنيٌ مثل موس حلاقة مطويّ في الكرسي القصبي الصغير على منصة عربة القطار.

Twitter: @ketab_n

«ها إني اقول لك، أنا احترم الجيش». تكلمت هارييت بقدر ما استطاعت من موضوعية، محاولة ألاّ تبدو وكأنها تحاجج، لأن العجوز على الأقل لم يكذب عليها.

«ألأن الجيش حال بينك وبين الملجأ؟»، صفّر العجوز، عيناه تشعّان بالدموع، لكنه عازمٌ على الموت فوق الحافة المرة للسخرية والخداع، مختنقاً بقهقهته هو. «اذن فلقد كان الملجأ. أنا آسف».

«لست خجلى من أمتنا أو من أسلافنا. لقد قلت لك، مات أبي في كوبا، مفقوداً، في المعركة...».

«أنا آسف»، سعل العجوز، الذي مسّد قبل دقائق على اليدين ودفن وجهه في الشعر الأصحر لامرأة جميلة. «افتحي عينيك، يا آنسة هارييت، وتذكري كيف أننا قتلنا هنودنا الحمر ولم نمتلك الجرأة ابداً للزنى مع الهنديات وهكذا لم نخلق أُمةً نصف مولّدة. لقد قُبض علينا ونحن في فعل القتل الأبدي للقوم الذين يختلفون في لون بشرتهم. ان المكسيك لهي الدليل عمّا كنا سنكون عليه، ولذا أبقي على عينيكِ مفتوحتين على وسعهما».

«لقد فهمت الآن. أنتَ خجلٌ من أنك انفتحت عليّ وكنت انساناً معي. انت لا تحتمل ألم الذين تحبهم».

كتب العجوز مطولاً عن ابيه. كان جندياً، قاتل ضد متوحشين عُراة وتبعَ راية بلاده الى عاصمة جنسٍ متحضّر في الجنوب البعيد. لكنه لم يقل لها هذا الآن؛ لم يكن يريد ان يتشارك معها بأي شيء اضافي، او أن يدعها تعتقد بأنها كانت على صواب من أي شيء. تساءلَ ان كان هذا هو كل ما يتشاركان به، الحرب بين الأخوة، الحروب ضد الـ «متوحشين»، الحروب ضد الضعيف والأجنبي. لم يقل شيئاً لأنه أراد أن يأمل بأن شيئاً اضافياً، شخصاً آخر، بمقدوره ان يوحدهما، دون أن تحتاج الى الاعتماد عليه لتتمكن من فهم أي شيء هنا. لن ينسىٰ الى زمن بعيد رائحة شعرها، نعومة جلدها، يديها المرغوبتين. ربما باتَ من المتأخر كثيراً. لقد اختفتْ وكان وحيداً يواجه الصحراء. وربما يستطيع زيارة أحلامها. ربما لم تنظر المرأة التي دخلت الى قاعة الرقص في الأمسية السابقة الى نفسها، انما حلمتْ بنفسها.

«انهم يعيشون حياةً لا نفهمها». قال اينوسنسيو مانسالفو. «هل يريدون معرفة المزيد عن حيواتنا؟ حسناً، عليهم ان ينشؤوها، لأننا ما زلنا لا شيء ولا أحد».

Twitter: @ketab_n

أخبره الجنرال أروّيو بأن رجال الجيش الفدرالي، والذي درسَ ضباطه في الأكاديمية العسكرية الفرنسية، كانوا ينتظرون لملاقاتهم في معركة وفق الأصول، حيث انهم يعرفون كافة القواعد التي لا يعرفها مقاتلو حرب العصابات. «انهم مثل العذارى»، قال الجنرال المكسيكي الشاب، ذو القسوة والدكنة كقِدرٍ مزجج. «انهم يريدون اتباع القواعد. سأجعلهم يفعلون ذلك».

هل سمع العجوز ما قالته السنيوريتا وينسلو الليلة الماضية؟ هل سمع ما كان يقوله القوم في المعسكر، والآخرون الذين في المزرعة؟ لماذا لا يستطيع الناس حكم انفسهم هنا على ارضهم: أكان هذا مطمحاً كبيراً يتعذر الحلم به؟. لوى فكّه وقال بأن من المحتمل انه والسنيوريتا أرادا الشيء نفسه، لكنها لم ترد العنف الذي ينبغي أن يحدث أولاً. كان يعرف، مع هذا، أخبر أروّيو الغرينغو العجوز، كان يعرف بأنه يجب ان يكون ثمة عنف جديد ليُنهي العنف القديم. كان الكولونيل فروتوس غارسيا رجلاً قرأ كتباً كثيرة، ولقد قال بأنه دون العنف الجديد فان العنف القديم سيستمر للأبد، تماماً كما هو، أليس كذلك؟ أليس هذا صحيحاً، أيها الجنرال الانديانى؟.

كانت عينا العجوز مركزتين لفترةٍ طويلة على الآثار الكالحة التي كانوا يتابعونها. عندها قال بأنه فهِمَ ما كان الجنرال يحاول قوله، وانه كان ممتناً لامتلاكه للكلمات المعبّرة عنه. كانت كلمات رجل، قال، وشكره لقولها لأنها وصلته من جديد برجالٍ آخرين، بعدما جاهر وأعلن رفضه للتضامن ـ أو لأية فضيلة اخرى، ولِمَ انكار ذلك، قال الغرينغو العجوز، آملاً ان تخفي قبعته ابتسامته.

سارا وحيدين بصمت صوب المكان المتفق عليه للقاء. فكر العجوز، ها هو في المكسيك يفتشُ عن الموت، ولكن ماذا يعرف عن البلد؟ في الليلة الماضية، متذكراً بان والده

Twitter: @ketab_n

شارك في غزو عام ١٨٤٧ واحتلال مكسيكوسيتي، فلقد استشهد بجملةٍ عن الصحراء. ثم تذكر بأن هيرست بعثَ بصحفي راديكالي من جريدته ليكتب تقريراً عن مكسيك بروفيريو دياث(*) وان الصحفي عاد وقال بأن دياث كان طاغيةً لم يحتمل أية معارضة وأنه جمّد البلد في نوعٍ من العبودية حيث تحوّل الناس الى خدمٍ لقطاعٍ واسع من مُلاك الأراضي، والجيشِ، والأجانب. لم يسمح هيرست بنشر القصة: اذ كانَ لبارون الصحافة القوي هذا رجله الراديكالي وطاغيته أيضاً، لقد أحبهما الاثنين، لكنه لم يدافع إلّا عن الطاغية. إذن ماذا لو كان دياث طاغية، لقد كان أباً لشعبه، شعب ضعيف يحتاج الى أبٍ صارم، قال هيرست، سالكاً طريقه بين الكنوز الكثيرة المكدسة وسط الصناديق والنشارة والمسامير في مخازن قصره.

«ثمة شيء لا تعرفه»، قال أروّيو للغرينغو «عندما كان شاباً، كان بروفيريو دياث جنديا شجاعاً، أفضل مقاتل عصابات حارب ضد ماكسيميليان، والجيش الفرنسي. عندما كان في عمري، كان جنرالاً فقيراً مثلي، ثورياً ووطنياً. أراهن على أنك لم تكن تعرف ذلك!».

كلا، قال الغرينغو، لم يكن يعرف ذلك. كل ما كان يعرفه هو أن الآباء يظهرون لابنائهم في الليل وعلى ظهور الخيل، متاخمين لقمة جُرفٍ مرتفع، يعملون مع الجيش المعادي ويحثون أبناءهم: «قوموا بواجبكم. اطلقوا النار على آبائكم».

بدتْ الجبال في مثل هذه الساعة الصحراوية الباكرة تنتظر الفرسان في كل وهد، وكأنما كانوا في الحقيقة فرسان الفضاء؛ اختفت الآفاق، وعلى منحنى كل أثرٍ كان الجبل ينتظر لينقض على الفارس مثل وحشٍ ضار. ففي الصحراء، كما تذهب الأمثال، يمكنك النظر مرتين أو ثلاث مرات في اليوم في وجه الله. خاف الغرينغو العجوز مصيراً مشابهاً: أن يرى وجه أبيه، كان ممتطياً حصانه الى جانب ابن: أروّيو، ابن سوء الحظ.

كم هي ماكرة، فكر الغرينغو العجوز في تلك الساعة الباكرة، معرفة الأب التي ورثها عن جميع آبائه وينقلها الى جميع أبنائه. فكر انه عرف هذا أفضل من كثيرين، قال، متكلماً بصوتٍ مرتفع الآن، غير عارفٍ او مكترث ان فهمه أرّويو: كان عليه أن يقولها. لقد اتهم بجريمة قتل الابن لأبويه الروائية، ولكن ليس الى مستوى شعب بكامله عاشَ تاريخه كسلسلة جرائم قتل الآباء الكبار، العديمي النفع، لا، لقد عرف عمّا يتحدث عنه؛ حتى عندما كان عليه أن يُشخص بهذه السرعة الأنسة وينسلو ويحفظها في إضبارته، هو،

(*) بروفيريو دياث Profirio Diaz: أنظر ثبت الشخصيات التاريخية، رقم (١٤). ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

العجوز، المُهرج المرير الذي شارف على خاتمة آخر مداه الشخصي، ابنُ كالفينيّ مكتو بنار جهنم أحبَ بايرون(١) هو الآخر، والذي خشي في يومٍ ما من أن ابنه سيحاول قتله أثناء نومه، هذا الابن، متُخيلٌ بافراط أولاً وشنيعٌ فيما بعد في احتقاره لكل شيء ورثته العائلة وتمنى بشكلٍ طبيعي ان يُطيل: بخلٌ شديد، اقتصاد، ايمان، محبة الاهل، احساس بالمسؤولية. نظر الى أروّيو الذي لم يسمعه حتى. فكر الغرينغو كم هي سخرية القدر أن يسافر الابن على الدرب ذاته الذي اتبعه ابوه في ١٨٤٧.

«انظر الى القطيع» قال أروّيو، «انهم يموتون».

لكن العجوز لم ير أراضي الرعي الخاصة بعائلة ميراندا، كانت عيناه مصابتين بالعمى الذي احدثه ضباب تناقضه مع نفسه حين فكرّ بأبيه الميت حيّاً يُرزق في المكسيك في عصرٍ مختلف، سائلاً الابن فيما اذا لم يكن قد جاء الى هنا ـ عارفاً الاتهامات التي وجدت، والاستياء الذي تشعر به المكسيك تجاه جميع الاميركيين ـ من أجل ذلك السبب بالذات ولكن، معيداً اضافة ظُلمه الى احتقاره لوطنه، ليحث المكسيك ان تفعل من أجله ما لم يجرؤ هو أن يفعله من أجل نفسه، بعضاً من الحس بالشرف واحترام الذات: لا ليموت، كما كان قد اعتقد، بل لأن يخضع للحب في سبيل فتاة شابة.

«هل كنت لتقع في حب فتاة شابة، لو كنت في مثل سني؟»، سأل الغرينغو العجوز مازحـاً.

«عليك ان تجعل عملك هو المحافظة على الفتيات الشابات والتأكد من ان لا يصيبهن مكروه». ابتسم اروّيو بالمقابل. «لقد سبق وان اخبرتك، اعتنِ بهذه الشابة وفكر بها كأنها ابنتك».

«هذا ما عنيته، أيها الجنرال».

«أهذا كل ما عنيته، أيها الجنرال الانديانى؟».

ابتسمَ العجوز. عليه في بعض الاحيان أن يبدأ بفعل ما يَسرّه، الآن هو الوقت المناسب كأي وقت آخر. من يمكنه التخمين بأن اروّيو سيكون، وليس هو، القتيل الأكثر تميزاً هذا اليوم؟.

«أجل، كنت أفكر بمصيرك، أيها الجنرال أروّيو».

ضحك أروّيو: «ان مصيري من شأني انا».

---

(١) الشاعر الانكليزي اللورد جورج جوردن نويل بايرون. ولد عام ١٧٨٨. جسد رومانسيته في حياته، كما في شعره، عندما قاتل الى جانب اليونانيين من أجل استقلالهم. مات عام ١٨٢٤. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

«دعنا نتخيل فقط بانه سيكون مصير بورفيريو دياث ذاته»، تابع الغرينغو دون ان يُروِّع. «دعني أتخيّل لك مستقبلاً من السلطة، والقوة، والاضطهاد، والزهو، واللامبالاة. هل تعرف ثورةً نجتْ من مصيرٍ كهذا، أيها الجنرال؟ لماذا على الأطفال النجاة من مصير الثورة التي هي أُمهم؟».

«قُل لي أنت. هل من بلدٍ نجا من هذه الشرور ـ حتى بلدك، أيها الغرينغو؟» سأل أروّيو، مائلاً للأمام على سرجه، وهادئاً مثلما العجوز نفسه.

«لا، انني اتكلم عن قدرك الشخصي، وليس عن مصير أي بلد، ايها الجنرال أروّيو. ان الوسيلة الوحيدة لأن تنجو من الفساد هي أن تموت شاباً».

وعلى عكس ما قصده العجوز، بدتْ كلماته مدعاة لسعادة أروّيو. «لقد أصبت بتخمينك لافكاري، أيها الجنرال الانديانى. لم أحلم بنفسي ابداً على اني رجل عجوز. وأنت؟ لماذا لم تمت في الوقت المناسب، أيها الوغد العجوز؟». وضحك أروّيو صاخباً.

استسلم الغرينغو العجوز امام مزاح المكسيكي، وقال ما كان يقوله أحياناً للنجوم وحدها: هذه الأرض... لم يكن قد رآها من قبل، لقد هاجمها بناءً على اوامر رئيسه هيرست، الذي كانت له استثمارات هائلة في مزارع تربية الخيل والمواشي ومُلكيات اخرى، وكان يخشى الثورة، لكن لأنه لم يستطع القول، إذهب وأحمِ ممتلكاتي، كان عليه ان يقول، اذهبْ واحمِ حيواننا، هناك مواطنون اميركيون شماليون في خطر، تدخَّل!

«آه، هؤلاء الغرينغويون»، شرح أروّيو بسخرية قارصة. «ألم اقل لكَ انهم جميعاً يتكلمون الصينية... انت لا فكرة لديك عما تمتلك من حق، انت لا تعرف أي شيء عن هذا! إن أي شخص يولد ونتانة سقفٍ من قش في انفه له الحق في أي شيء، أيها الجنرال الانديانى، أي شيء!».

لم يكن ثمة وقت للاجابة، او حتى للتفكير، لأنهما وصلا الى منحدر زلق حجري حيث كان احد الأدلاء بانتظار الجنرال. قال بأن كل شيء جاهز، كما امر الجنرال.

نظر أروّيو نحو العجوز مباشرةً وقال له بأن عليه الآن أن يختار. سوف ينفذون حيلةً على القوات الفدرالية. نصف الثوار سيتقدمون عبر السهل لملاقاة الجيش النظامي حسب الطريقة التي يفضلها، مواجهةً، كما تعلموا في أكاديمياتهم. والنصف الآخر سوف يلتف بين الجبال خلف خطوط الفدراليين، بعيداً عن الانظار، ممتزجين بالجبال مثل السحالي، بامكانك ان تكون مطمئناً على عجيزتك العجوز، فهقه أروّيو بفظاظة، بينما الفدراليون

Twitter: @ketab_n

يخوضون معركتهم الأصولية مع شرك قوات حرب العصابات فوق السهل، فانهم سيقطعون خطوط تموينهم، يهاجمونهم من المؤخرة، ويوقعون بهم مثل الفئران في المصيدة.

«قلت بأن عليّ ان اختار؟».

«أجل، أيها الجنرال الانديانى. اين تريد أن تكون؟».

«على السهل»، أجاب العجوز، بلا أي تردد. «ليس للمجد، أنت تفهم، بل للمخاطرة».

«أوه، اذن فأنت تعتقد بأن قتال العصابات ليس بهذه الخطورة؟».

«انه اكثر خطراً، إنما أقل مجداً. أنت تقاتل تحت غطاء يحميك، أيها الجنرال أرّويو. ومُجبَرٌ كذلك على الارتجال. واذا كنتُ قد فهمتُ دوري جيداً، فعلى السهل ما عليّ سوى أن أتقدم الى الأمام متظاهراً بالشجاعة، محاولاً أن لا أفكّر بحقيقة أن قذيفة مدفع قد تفجّرُ رأسي. دعني أقم بهذا».

لم يكشف القناع الآسيوي لوجه أرّويو عن أية إنفعالات. نخز حصانه بمهمازه على طول المنحدر الصخري، ، وقادَ الدليلُ العجوزَ للانضمام الى قوات السهل. نظر في وجوه الجنود وكانت جامدة مثلها مثل وجه أرّويو. أكانوا يفكرون بالأشياء نفسها التي يفكّر بها؟ أكانوا يعرفون؟ أهم شجعان، مثلما كان، ام انهم يتبعون الأوامر فحسب، مقتنعين بامكانية محالفة الحظ لهم؟ هل سيقاتلون عن قناعة راسخة على المسرح الذي أعده جنرالهم المهم أرّويو وقام بانشائه، ليس إبن سوء الحظ، فكر الغرينغو، بل إبنُ إرثٍ مُعَقد، الجنرال أرّويو الوراثي التطوري؟

في احدى المرات وفي غمار المعركة، توقف العجوز عن التفكير، أو أن أحداً آخر كان يفكر بما لم يكن يفكّر به سواه: أن يكون مستغرقاً في اكتساح وتقهقر الخيول، في زلزلة شخير الحيوانات ورعد الخِفاف(١) فوق سطح الصحراء القاسي، في ثبات الغيوم المسائية ونعومة حراب المتمردين تاركين الموتى خلفهم ومندفعين كالشُهب نحو المدافع الفرنسية الثقيلة الساكنة في الوقت الذي يُصاب به سمع رجال المدفعية بالدوار، ويشعرون ويخافون من الأصوات المنهالة مثل شلال على ظهورهم، هديرٌ راجف، مسبب للصمم ينبثق من كل الجبال، تيهور(٢) من خيولٍ واثقة، لا تعرف الخوف، في هتاف وزعيق القوات المتمردة، رصاصٌ يومض في أحزمة الرصاص فوق صدورٍ عارية، قبعات مكسيكية تُقذف في الهواء

---

(١) جمع خُفّ ـ المترجم ـ.

(٢) التيهور Aralenche: كتلة ضخمة من حجر أو ثلج أو جليد تنهار بسرعة على جانب جبل. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

مثل ضفائر صوب الشمس المُدومة.

كان الفدراليون يُشوَون في بزاتهم الضيقة العائدة للفيلق الفرنسي الأجنبي، وقبعاتهم العسكرية الفرنسية السخيفة على جماجمهم، بينما المتمردون فوق السهل، يقودهم الغرينغو الباسل، يتقدمون باستقامة نحو المدفعية دون أن يلتفتوا أبداً الى الوراء نحو الفيالق المغطية للسهل، مُحاصَرين الآن من الهواء بالصقور الأبدية الحوامة للسماوات المكسيكية وعلى الأرض بالخنازير المتشككة التي هربت من حظيرتها في كوخٍ طيني بائس وطافتْ ترعى بحرية عبر الأرض المجدبة، وحوشٌ خشنة بلغمية(١) اللون، تتشمم الهواء لترى إن كانت الأجساد ميتة حقاً وغير قادرة على إحداث مزيد من الأذى، قبل أن تقبع(٢) وتتشمم طريقها نحوها لتبدأ وليمتها تماماً عند ساعة الغروب القرمزي.

لم يكن قد جُرح. لم يمت.

كان هذا الشيء الوحيد الذي فاجأه؛ كان رأسه الأشيب العجوز مليئاً بالذهول. أحاطوا بالفدراليين الأسرى، والتقتْ قوتا المتمردين عند نقطة النصر. لم يعيدوا هذه المرة احتفالات اليوم السابق، عندما قام الغرينغو بوهق(٣) المدفع الرشاش. ربما سقط عدد كبير من الرفاق فوق ساحة المعركة. هُم ماتوا، وليس هو. لقد أراد الموت لكنه لم يزل هنا، مستحقاً بذلك شفقة هازئة، مساعداً في تطويق ما تبقى من الفوج الفدرالي، مستشعراً في النهاية الحقد الفائر الذي توقعه: لم يمت الغرينغو، كان الأشجع بيننا، لقد تقدم الى الأمام من جديد، مثل يوم أمس، كأنما لم يكن خائفاً من أي شيء أو أي أحد، لكنه لم يمت: الغرينغو العجوز!

لم يُفاجأ تماماً بما رأى وسمع في المعسكر الذي أقيم على عجل بجانب الجدران المتداعية الطينية للكوخ الذي فرّت منه الخنازير بهلعٍ جائع. أخبرَ أرّويو الأسرى بأن كل من يريد الانضمام الى جيش بانشوفيللا الثوري سيكون موضع ترحيب، أما مَن يرفض فسيُعدَم بالرصاص في الليلة ذاتها، لأنهم يتحركون بحملٍ خفيف ولم يخططوا لأن يسوقوا معهم عدداً كبيراً من المساجين عديمي الجدوى.

انشقتْ الغالبية العظمى بصمت متخلية عن انتمائها الفدرالي، وانضمّ جنودها الى قوات فيللا. قاوم البعض، فحدّق بهم الغرينغو كما يحدّق المرء بالاستثناءات. كانت

---

(١) من بلغم Phlegm. ـ المترجم ـ.

(٢) قِباع: Grunting: صوت الخنزير ـ المترجم ـ.

(٣) ربطه وجَرّه بالوهق أو الانشوطة. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

وجوههم فخورة، أو مخبولة، أو مجرد مُنهكة. اصطفوا خلف ضباطهم الخمسة الذين لم يتزحزح منهم أحد.

بدأت الريح الآن بالهبوب وخشي الغرينغو العجوز عودة عدوه الخانق. ملأتْ الخنّة الجائعة للمخلوقات القذرة الشرهة فوق ساحة المعركة السكون المهيمن إثر عَرْض أرّويو والأفعال الخالية من الكلمات التي تبعته. خطا الكولونيل قائد القوات الفدرالية صوب أرويو وقدّم له باحترام كبير سيفاً صغيراً، لامعاً، يكاد يكون مثل لعبة. أخذه أرّويو بلا أية احتفالية واستخدمه لقطع شريحة من خاصرة أحد الخنازير الرُضّع المشويّة في الهواء الطلق.

«أنت تعرف بأن إعدام الضباط أو الجنود الأسرى يشكّل جريمة». قال الكولونيل.

كان للكولونيل عينان ناعستان خضراوان محجوبتان وشارب ثخين أشقر ومنتصب. يا لها من مهمة روتينية، فكّر الغرينغو، في الابقاء على هذا الانتصاب مُشَمعاً ليلاً ونهاراً.

«أنت شجاع، ولذا لا داعي لأن تقلق»، أجابه أرّويو، وغرس أسنانه في شريحة الخنزير..

«ماذا تعني بكلامك؟»، سأل الكولونيل ناعس العينين إنما المتعجرف. «لا علاقة للشجاعة فيما نحن فيه. انني أتكلم عن القانون».

«طبعاً، القانون»، قال أرّويو، بنظرة حزينة ثابتة. «لكنني أسألك أيهما أكثر أهمية، الطريقة التي بها نعيش أم الطريقة التي بها نموت؟».

تردد الضابط للحظة. «لنفهمها هكذا، بالطبع انها الطريقة التي يموت بها المرء».

لم يتفوه العجوز بشيء، غير أنه فكر ملياً بالكلمات التي يمكن أن تكمن فيها مجموعة مبادىء شرف أرّويو والتي بإمكان العجوز، إن اختار، أن يأخذ بها على أنها موجهة له. ناول أرّويو السيف الى الغرينغو ودعاه لأن يأكل لحم الخنزير كما كانت الخنازير تأكل الجثث في العراء. من المؤكد أن العجوز كان شديد التركيز والانتباه، إذ كان هو الهدف لعيني الكولونيل أولاً، ومن ثم لكلماته.

«هناك رجل شجاع»، قال الكولونيل، وكانت عيناه مستعدتين للموت. نخرَ أرّويو وأضاف الكولونيل: «كنت أنا، أيضاً، شجاعاً. هل تُسلم بذلك؟». ونخر أرّيو من جديد. «ومع هذا فإن ذاك العجوز الشجاع لن يموت. أنا الذي سوف يموت. كان من الممكن أن يكون الوضع معكوساً. لكنني أعتقد بأنها الحرب».

«لا»، قال أرّويو، أخيراً. «انها الحياة».

«والموت»، أضاف الكولونيل بألفةٍ وقحة.

Twitter: @ketab_n

«ما دمتَ لا تفصلها عن بعضها بعضاً»، قرر أرّويو.

ابتسم الكولونيل وقال بأن ثمة ما هو استثنائي حول أن تكون شجاعاً للغاية، إن في الحياة أو في الموت. لقد أشرف هو، على سبيل المثال، على الموت في صحراء نائية باردة بعيداً عن بحر مسقط رأسه فيراكروز، هو الذي ما يزال قادراً على شمّ رائحة السُفن الأوروبية التي رستْ في الميناء على جلده، انه هو الذي سوف يُعدَم في ليلةِ نيرانِ معسكرٍ وخنازير تنخر. لن يكون ثمة أهمية على الاطلاق إن كان شجاعاً عند موته؛ لن يُشكل عمّا قريب مصدر إزعاج لأيٍ كان. ولكن أن تكون شجاعاً وما تزال حياً، فانها لمشكلة الآن، أيها الجنرال، انها مشكلة لكلا جيشينا، قال: الرجل الشجاع غير المقبول. لقد كشفنا جميعاً. جعلنا نبدو جميعاً على شيء من السخف.

«أرأيت»، قال الكولونيل الفدرالي، «كلنا نخشى الجبان، ونعترف بذلك؛ ولكن لا أحد يعترف بأنه يخشى الشجاع اكثر، لأننا نبدو جبناء بالمقارنة به. انه ليس بالشيء السيء جداً أن تكون خائفاً قليلاً في المعركة. تكون بذلك مثلك مثل الآخرين. إنما الرجل الفاقد للخوف يضعف معنويات الجميع. سأقول لك شيئاً واحداً أيها الجنرال. ينبغي على كلا الجانبين أن يجتمعا معاً، بصراحة، وأن يتخلصا من الرجل الشجاع. أجل، علينا أن نبجّله، ولكن أن لا نذرف الدمع عليه أبداً.».

لم يبد أن كلمات المواطن الفيراكروزاني الثرثار قد أثّرت على أرّويو، الذي كان يقعي على كعبيه، مدحرجاً قطعة من لحم الخنزير بين أصابعه الرشيقة.

«أأنت هذا الرجل؟». سأل.

ضحك الكولونيل بنعومة ولكن بعصبية. «لا، لستُ أنا بالطبع. لستُ أنا. لستُ أنا قطعاً».

تمنى العجوز أن لا يكون أحد ينظر اليه وهو يأكل قطعته من لحم الخنزير، أول طعام يتناوله اليوم منذ الفطور المكون من البيض والقهوة الساخنة. كان أرّويو يعيد على مسامعهم سرد العمل البطولي الفذّ الذي قام به الجنرال فيرّو الباسل، مساعد فيللا الأيمن، الذي تخلص من مسجونيه بأن منح الحرية لكل من استطاع الركض من السجن عبر الفناء المفتوح الى حائط السجن والقفز من فوقه دون أن يُصاب بطلقة من فيرّو ـ مع شرط أن لا تُطلَق النار مرتين على الشخص الواحد. نجا ثلاثة سجناء فقط. لقد قتل فيرّو حوالي ثلاثمائة رجل في تلك الليلة.

لم يكن هو، أرّويو، جنرال الفرقة الشمالية، لينافس الجنرال الشهير فيرّو، أحد

Twitter: @ketab_n

المُفضَلين القلائل لدى فيللا، رجال دورادو، أولاده الذهبيين. انه اكثر تواضعاً من أن يفعل هذا. ولكن هنالك رجل شجاع كان يصاحبه، جنرال من حرب أميركا الشمالية الأهلية، الرجل الأكثر شجاعة بينهم، الجميع شاهد شجاعته اليوم. ووثبَ أرّويو على ساقيه مثل وشَق،(*) موجهاً حديثه الآن للعجوز لا للضابط الأسير. ها! كان الجنرال الانديانى يريد دائماً ان يكون جندي الحرب الأكثر شجاعة، وها هو الآن سيكون مُنَفّذ الاعدام الأكثر شجاعة. فما دام انه كان شجاعاً في مواجهة الموت، فلا بد انه شجاع في مواجهة الحياة أيضاً ـ أليس كذلك؟ ـ طالما ان الاثنين هما الشيء نفسه؛ لقد جاء العجوز الى المكسيك ليتعلم ذلك، وها قد تعلمه، ألم يتعلم؟ فاذا لم يكن قد تعلم ذلك حتى الآن، اذن لم تكن هذه الرحلة لتساوي خراءً، أليس هذا بصحيح؟

سيقوم العجوز الليلة بما قام به فيرّو في تلك الليلة. هذا ما أُتفقَ عليه: ستُمنح الفرصة لضباط ورجال السكّير مدمن الخمر هويرتا لأن يركضوا من الجدار الطيني المتداعي الى بوابة حظيرة الخنازير المتهاوية ومن هناك الى ساحة الخنازير والجثث. سيدعهم الجنرال الانديانى يركضون حتى البوابة. عندها بامكانه اطلاق الرصاص. فان أخطأ الاصابة، قبمقدور الفدراليين أن يهربوا كالأرانب. اما اذا أصابهم، فانهم سيموتون. أهذا مفهوم أيها الجنرال الانديانى الشجاع!

وبعدها (ليس بعدها في الحياة، لأن حياته كانت معلقة خارج الزمن، مثل قطرة ماء على ورقة شجر شتائية وحيدة حين يكون السؤال الوحيد هو من سيهوي أولاً: الورقة أم القطرة) سوف يقول بأنه قام بالشيء الوحيد الذي كان باستطاعته القيام به. قال هذا للآنسة هارييت في حاضرها، الذي استوعَبَ فيه مستقبله المستحيل: لقد قمتُ بالشيء الوحيد الذي قدرتُ على القيام به، لأنني لم أمتلك حس الحظ بأن أُقتل بحكمة، أو حتى بقليلٍ من الشهامة، بواسطة يد مجهولة في ساحة المعركة.

«كان من الممكن أن أكون مجرد جثة أخرى وقد التهمتها الخنازير. يا إلهي، كيف كانوا ينخرون ويشخرون ويتغوطون في هواء الليل البارد».

(«ما الشيء الوحيد الذي كان بمقدورك أن تفعله؟»، سأل والده، وهو يمتطي جواد الريح المُطهم.

«أن أرفض للآخر الموت الذي طلبته لنفسي».)

(*) الوشق Bobcat: طير شمال أميركي. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

كيف كان عندما تمنّى أن يكون هو الكولونيل الفدرالي المستخف المخنّث لكنه وللغرابة الشجاع، صاحب الابتسامة الناعسة الازدرائية والشارب المدهون بالمرهم المُعطّر الذي ما يزال منتصباً بعد معركة يوم، والذي مشى الى الجدار الطيني ووقف هناك محدقاً بالغرينغو، منتظراً إصدار الأمر.

«أترى يا أبي، لقد تمنيت أن أكون مكان ذاك الرجل».

«اركضْ!» أمرَ أرّويو.

وخطا الكولونيل مبتعداً على مضض، وكأنما كان الجدار المتقوض والمنهار جزئياً هو المرفأ الأخير لتخيلاته طوال حياته: مدفأة في أرضه الخاصة. سار بعادية أولاً، مديراً ظهره لأرّويو وللعجوز، الذي قبض على مسدس الكولت بثبات في يده. تردد الكولونيل، استدار ليواجه أعداءه، ثم سار متراجعاً، ناظراً صوب جلّاده المعيّن، صوب أرّويو، صوب الكولونيل فروتوس غارسيا، صوب انيوسنسيو مانسالفو، الذين شكلوا له جميعاً الوجه غير المميز الذي حكمَ عليه دون محاكمة. أنتَ لن تطلق على ظهري؟ كان متأكداً بأن العجوز لن يلطخ شرفه بفعلٍ كهذا، وكان كل من العجوز وأرّويو، حالما التقتْ عيناه بعيني الغرينغو، يعرفان ما كان يفكر فيه. بدا الكولونيل الآن سخيفاً على نحوٍ مزر. تعثرَ وسقط، ثم نهض على ساقيه وركض لينجو بحياته.

«أطلقْ النااار!» أرعدَ أرّويو.

صوّبَ العجوز المسدس نحو الكولونيل الراكض، ثم على خنزير. هدّفَ على الخنزير لحظة أن سحبَ الزناد، واخترقتْ الرصاصة نافذةً بنظافة خلال اللحم الاسفنجي المُبتلَى بالدود للحيوان الباحث عن طعام. قفزَ أرّويو الى الأمام ومسدسه بيده وأطلق رصاصة واحدة على هيئة السجين الراكضة. تبادل السجناء المحكومون بالاعدام المتبقون نظرات جزعة.

سقط الكولونيل بوجهه على الأرض. تجاهلَ أرّويو الغرينغو، وسار نحو الرجل المنبطح، وأطلق عليه رصاصة الرحمة. انتفض الضابط ثم سكن. أما الضباط والجنود الأسرى، فقد اصطفوا منهكين بكبرياء أو بعناد، مَن يقدر على التأكد؟ عند الجدار الطيني ونظر العجوز اليهم وهم هناك، إلى هذه المجموعة من البشر، بعضهم يبول في سرواله، وبعضهم تعلو وجهه تعبيرات غبية وبعيدة، وواحد أو اثنان يشعلان السيجارة الأخيرة، وبعضهم يدندن بأغنية تذكره بالزوجة أو الأسرة. وكان أحدهم يبتسم، ليس بحماقة، وليس بانهاك، وليس بشجاعة، وإنما كان عاجزاً وحسب عن التمييز بعد الآن بين الحياة والموت.

Twitter: @ketab_n

كان هذا الرجل مَن استرعى انتباه الجنرال أرّويو.

«حدّقَ به الجنرال مدة طويلة، هل تذكر؟» سأل بيدريتو. «وكيف يمكنني أن أنسى ذلك»، أجاب مانسالفو. «عندما كان قائدنا في غاية الكَرَم. قال، لا تقتلوهم. اقطعوا آذانهم كتحذيرٍ فقط، واذا التقينا بهم مرة ثانية، عندها سنعرفهم، ولن يظلوا أحياء بعدها».

«يا لقلب جنرالنا الطيب!».

Twitter: @ketab_n

وبينما كانوا عائدين الى المعسكر، إنسحبَ أرّويو الى داخل نفسه مثل سلحفاة. كانت بطانيته الصوفية سقفه. دفن نفسه فيها حتى أنفه، وسحبَ قبعته المكسيكية العريضة الى منبتي أذنيه المتألمتين. كانت عيناه اللامعتان كل ما يمكنك أن تراه منه. لا أحد يريد النظر الى هذين البئرين العميقين الأصفرين، قالت لاغاردوينا حين رأته على حصانه يدخل البلدة؛ هاتان ليستا بعينين صديقتين. وتمتم اينوسنيو مانسالفو بأن النصرَ يبدو بعيداً جداً.

لم تكن بمسيرة نصر. تمثّلتْ شرارة الأمل الوحيدة او السعادة او الاشباع الحسّي أو أي شيء ـ إن كان بعض من هذه الأشياء هو حقاً ما تمنّى أرّويو أن يجده وراء مُثله عن العدالة ووراء التكتيكات المتهورة المتعجلة التي تم تبريرها الّا انها، أيضاً، حطّتْ من قدر العدالة ـ تمثّلت في تقدم قواته للأمام، في الرغبة الجماعية لمغادرة المزرعة المُدمرة نحو الهدف التالي، للانضمام الى الجسم الضخم لجيش فيللا، للاندفاع صوب العاصمة، وربما لمصافحة يد شقيقهم من الجنوب، زاباتا. لقد حلم أرّويو بهذه الأمور بكل تأكيد، أو عرف بها لأن رجاله حلموا بها. أراد أن يُطلع العجوز عليها منذ هذا الصباح، قبل ان يُحيّي الآنسة هارييت بقبلة. لكنه أراد أيضاً، بغموض، و على نحو حُلمي، ان يمدد إقامته في المزرعة حيث ولد وترعرع.

«هل سنغادر الآن؟»، سأل مانسالفو بيدريتو اليافع، وكأنه اعتقد بأن الحقيقة لا تسمع الّا من أفواه السكارى والأطفال.

«لا أعرف»، قاله الصبي. «لقد ولد هنا وترعرع هنا، أعتقد بأنه يحب المكان كثيراً».

«حسناً، إنما القوات لا تحبه، بدأوا يشعرون بالضيق»، صرّح الكولونيل فروتوس غارسيا. شعر الغرينغو بالتوتر حالما بدأوا بالعودة الى المزرعة. هذا الوقت ليس مناسباً

Twitter: @ketab_n

لاستفزاز أرّويو، فاحساسه بالوحدة الدرامية ـ ابتسم الكاتب العجوز ابتسامة عريضة ـ سوف يبدو مُنتهكاً بموت الآخر، في ذروة المعركة، وفي ميتة الكولونيل الفدرالي. ضحك: إنه ليس بشكسبير، حتى وان كانت الميتة ميتته هو. تراجع الى الوراء مع جنود المشاة، لكنه شعر بالتوتر هناك أيضاً. وعلى نحو تلقائي ناور الجنود المتعبون، انما الذين ما زالوا خبثاء، لدفع الغرينغو الى المؤخرة، الى الصفوف الأخيرة، التي شكّلها المرتدّون الذين التحقوا بفيلا لكنهم لم يبرهنوا بعد على معدنهم. برهن الغرينغو على معدنه. ولأول مرة عرف الخوف في المعركة؛ خوف عميق غائر، ليس هو الخوف التافه الذي شعر به حين واجه الألم، أو حين واجه مرآة ما. ابتسم فقط، وبصق في الغبار من وراء رأس حصانه.

«لا، لن أنسى أبداً»، أخبر الجنرال فروتوس غارسيا أصدقاءه إثر انتهاء الثورة، بعد ان ترقى هذا الكولونيل السابق، ليعوّض بذلك عن هزيمة فيلا وليوّحد زمر الثورة العديدة. «جاء الغرينغو باحثاً عن الموت، ليس اكثر. وكان الذي وجده، رغم ذلك، هو المجد ـ وثمرة المجد المريرة، الحسد.

وسدّد الغرينغو مرةً أخرى، فأثارت بصقته الداكنة الغبار في البعيد. سخر من نفسه. كتب قبل سنوات شيئاً عن الحرب الأهلية: «إن الفاتورة البسيطة لكونك جندياً جيداً هي الموت: حاول دائماً ان تعرّض نفسك للموت».

حاول دائماً ان تعرّض نفسك للموت ـ كان هذا آخر ما قاله الجنرال فروتوس غارسيا قبل موته عام ١٩٦٤ في منزله في مكسيكو سيتي، وأصبحت كلماته مشهورة ضمن النوادر التي قيلت من قبل الرجال الذين قاتلوا في صفوف الثورة.

دقّ الجنرال الانديانى قَرَبوس سرجه بقبضته وشعر بإثارة خياله الأدبي وهو يكتسحه من جديد، وبالضربات الخفيفة المتوترة التي ارتفعت من جزمتيه عبر ساقيه الطويلتين النحيلتين الى نسيج انفعالاته المعقدة في شبكة أعصابه وأوعيته الدموية المتحابكة كالشمس. هل كان هنا ليموت أم ليكتب روايةً عن جنرال مكسيكي وغرينغو عجوز ومُدرّسة من واشنطن ضاعت في صحراء المكسيك الشمالية؟.

لم يكن لديه الوقت أو القوة لأن يتخيلها الآن، بينما كانوا يقومون بتأدية طقوسهم الرجولية في الجرأة والموت، وكانت قد تُركتْ هناك في المزرعة مع تسلط فكرة في رأسها تتعارض مباشرة وتلك التي تراود الجنرال. ما كانت هارييت وقد أرخت ربطتها تحت شمس الصباح القاسية، وعلى إثر رحيل القسم الأكبر للقوات وبقائها وحيدة مع الحامية النعسة والنساء والأطفال، ما كانت لتفكّر بالسير نحو المعركة التالية، أو ملاقاة فيلا، أو مسيرة

Twitter: @ketab_n

النصر الى مكسيكو سيتي التي شكّلت أفكار وأمنيات الجميع. كان الذي يجول في خاطرها هو تكوين برنامج أساسي لتعليم الأطفال المبادىء الأولية، وبعث الحياة في عمل النساء اليومي وانتظامه، واستعادة مهمات الرجال. اليوم ـ وليس غداً ـ سيبدأ الأطفال بتعلم المهارات الأساسية، ومبادىء تعلم اللغة الانكليزية الثلاثة: القراءة، والكتابة، والحساب. وسوف تقوم النساء بالبحث الدقيق في الخزائن الضخمة والصناديق المُعطّرة التي جرّتها القوات الى الفناءات المفتوحة قبل اشتعال الحريق وانتقاء ما هو محترق عما لم يكن كذلك، وفرز كل شيء بدقة، ليتم اعادة غير المحترق الى مكانه وقصقصة الثياب الممزقة لاستعمال النساء الخاص. ولسوف يدهن الرجال الجدران بالكلس الأبيض حالما ينتهون من عملية الاصلاح والترميم، ويزيلون البقع ويزيحون الرماد بعيداً. وهي، الآنسة هارييت وينسلو، سوف تضرب المثل، ستكون الرمز الذي يدور حوله مجمل العمل في ترميم المزرعة.

تركت السنيورة ميراندا وراءها، في رحيلها المتعجّل، صندوقاً حديدياً مُخبّأً في تجويف الحائط خلف سريرها، وقد حماه صليبٌ ضخم احترق منقذاً بذلك الصندوق، ولكن كاشفاً، في الوقت نفسه، ما كان يخفيه. كان صندوق المجوهرات يحتوي على عدة عقود جميلة من اللؤلؤ. ولقد دفعت فكرة المجوهرات المخبأة خلف هيئة المصلوب الميت هارييت الى الاشمئزاز (من الذي حرس، علاوة على ذلك، العواطف الجسدية الشهوانية للزوجين الثريين النائمين عند قدميه)؛ اجتماعٌ غير مقدّس بين عذابات الله وممتلكات دنيوية. ولهذا، وضعتْ الصندوق الحديدي ظاهراً تماماً للعيان، ليس في قاعة الرقص اللماعة، حيث بدا لها انها بذلك تجاور الثراء بثراء (إذ فيما يتعلق بطريقة تفكيرها، فان لم يكن ذلك ضرباً من الوثنية، فهو على الأقل ذوقٌ رديء)، وانما في الممر البسيط المقنطَر المؤدي الى قاعة الرقص. عرضت الصندوق فوق طاولة صغيرة من خشب الجوز في الممر، على نحو منزو ، ولكن باغراء وفخامة. كان هذا اغراء، اعترفت بذلك الآنسة وينسلو، لكن الاغراء كان ضرورياً لتعليم هؤلاء الناس بأن الممتلكات الخاصة يجب ان تُحترم وان تعلّمَ هذا له أهمية تعلم القراءة.

انقضى عمل الصباح، وجاءت بعده ساعة تناول طعام الغذاء الذي كان كثيراً وغريباً جداً على ذوق الآنسة هارييت (أوعية صغيرة تبقبق، مَرَقُ الفلفل الأحمر، أعشاب ذات عبير عطر، وكعك ساخن من دقيق الذرة يتصاعد منه البخار)، وقبل أن يستأذنوا للذهاب الى الحقول للاعتناء بمحصولهم القليل وتنظيف بيوتهم، لعبت هارييت ورقتها الأقوى، والأكثر مفاجأة، والأشد حسماً. دعتهم الى قاعة الرقص وأخبرتهم بأنهم سيجتمعون فيها بانتظام ـ مرة في الأسبوع، اذا سارت الأمور على ما يرام ـ وسوف ينتخبون

Twitter: @ketab_n

مسؤوليهم، السكرتير وأمين الصندوق، سوف يشكلون جمعيات لتتولى تربية المواشي، والتعليم، والصيانة، والتموين أيضاً. يجب ان يبدأوا هذا على الفور. عندما يعود المالكون الشرعيون سيجدون أمامهم حقيقة مُنجزة، وسيكون للمزرعة منظمة تتكلم نيابةً عن الناس الذين عاشوا وعملوا هنا، وسوف تحمي حقوقهم. هذا ما سوف يتحقق فيما بعد. أما اليوم، عندما يعود الجنرال أرّوبو، فانه سيجد الناس قد سيّروا أنفسهم، سيّروا ونظموا أنفسهم حقيقة، ولم يتكلموا كثيراً عن أفكار غامضة حول كيف ستكون الأمور بعد الانتهاء من الحرب وبعدها تأتي الذكرى الألفية والاحتفال بها، لا، بل الآن فوراً! استمعوا اليّ، انه سيستمر بالقتال حتى يموت، لن يتوقف عن القتال أبداً، حتى ولو انتصر، ولكنكم ستظلون هنا. انه يقول بأنه حرركم. حسناً، انكم ستجعلونه يرى الآن بأنه على حق، حتى ولو كان معنى ذلك تحدياً لما يقول.

وبعد ان تحدثت الآنسة هارييت، حدّقوا بها من خلف الأقنعة الكامبيسوية(١) التي لم تقل نعم ولم تقل لا أو لقد فهمنا او نحن لم نفهم أو نحن لدينا وسائلنا الخاصة او نحن نستطيع التعلم من دونك. لا، انهم لم يقولوا شيئاً من كل هذا، حين أشارت بأن الصف قد انفض وسوف يلتقون غداً.

زررت ياقة بلوزتها على مضض، غير ان الناس لم يذهبوا فوراً. وقفوا يتحدثون مع بعضهم بعضاً بهدوء، مُشفقين عليها غير انهم لا يريدون حقيقة ان يظهروا لها ذلك، كما قالت لاغاردونيا، التي ما كان باستطاعتها سوى مراقبة ما يجري بانشداه، وكان الجميع يتساءلون ان كان عليهم ان يقولوا لها اليوم لماذا سيكون مستحيلاً عليهم غداً القيام بما تحدثت عنه اليوم.

مسكينة السنيوريتا، قالت احدى النساء؛ انها لطيفة، لكنها لا تعرف ما هو يوم غد. شعروا بالاشفاق عليها، وضحكوا مثل عصافير صغيرة لعوبة.

تجلس الآن وتتذكر.

استسلمتْ للقيلولة، شعرت بالمهانة، واللاأخلاقية، لاستغراقها بالنوم في الرابعة بعد الظهر: كان ذهنها ما يزال في قاعة الرقص، وحيدة، وباحثةً في فراغ العيون عمّن سيشاركها قلق أحلامها، وعندما أرادت ان تنهض شعرت وكأن يداً كانت تمسكُ بظهرها، مُبقيةً إيّاها أسيرةً في الفراش، تنقّع الملاءة التي غطّت جسدها الخامل، والعاري، والمِسكيّ(٢) الذي

(١) الكامبيتيش Campesche: ولاية جنوب شرق المكسيك ـ المورد ـ.

(٢) من المِسك ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

يفوح برائحة بتلات المغنوليا الميتة والأقبية شديدة الرطوبة، جسدها هي، جارّة إيّاها الى النوم من جديد.

دأبت هارييت وينسلو على الاستيقاظ وقد خالجها احساس محدد بالذنب لما قد قالته او لما لم تقله في اليوم السابق: ذنب أخطاء واهمالات اليوم الذي انقضى.

كان التضارب والحساسية اليوم أشد مما كان في أي وقت آخر، وكان السؤال الذي احتواها ـ رغماً عن ارادتها (كانت مقتنعة بذلك)، وهي مستلقية في الفراش في الرابعة بعد الظهر ـ هو السؤال ذاته الذي صاغته من قبل: متى كنت اكثر سعادة؟

لم تكن لتسأل نفسها دائماً هذا السؤال، لأنها كانت تتذكر على الدوام **لازمة أمها** المبهجة: السعادة تعمّ. ومع ذلك أجابت نفسها: «كنت اكثر سعادة عندما تركنا والدي العزيز واستطعت ان أكون الشخص المسؤول، شعرت وقتها بأن كل شيء يعتمد عليّ؛ كنت أنا الشخص الذي عليه ان يُضحّي، أن يكافح، أن يساير الظروف، ليس من أجل نفسي فقط، وانما من أجل كل من يحبني والذين أحبهم بالمقابل». كنت أقوم بواجبي وأنا سعيدة. كان هذا الرابط بين حلمها وأفعالها هو ما قرّبها اكثر الى الصورة التي أرادت ان تصونها لأبيها. لقد قرّبها اكثر الى كل ما قاله، وبشكل عفوي، على طاولة العائلة: ذاك النوع من الفلسفة الهائمة التي يسمعها ويتعلمها الجميع في المنزل: الحياة صعبة، الحياة سهلة، كل شيء سيسير على ما يرام، سيسود النظام، المشاركة تبدأ من البيت، اعمل للآخرين ما ترجوه لـ. . . ؛ القوة، النمو، الحكمة: مخافة الله، ميثودستية رزينة، ليس من مذبحٍ كنسيّ باروكي هنا، مخافة الله، أصبحت هذه الأمور واجبها عندما رحل والدها، اكثر من كونه واجب أمها، التي لم تكن هارييت لتحتملها كخيال مُغِمّ ولكنها التي أحبتها من جديد حين عكست نور البراءة، سعادة صِبا ابنتها الحميمة البسيطة، قبل رحيل الأب الى البعيد والاعلان عن فقدانه في المعركة.

«لماذا تسكنين معي هنا، يا هارييت؟ ألا تشعرين بالملل؟».

كان واجبها في المكسيك ملزماً لها اكثر من أي وقت آخر. لكن شيئاً ما كان مفقوداً في حلمها. ثمة ما هو اكثر، ثمة شيء لا يكون الواجب من دونه كافياً. حاولت ان تستحضر حلماً مختلفاً من خلال حلمها، نور، فناء خلفي مُغطى بأزهار شجر القرانيا، أنين آت من حفرة سوداء.

لم يكن العجوز يفكّر بها في طريق العودة. ولا حتى أرّويو. استيقظت فجأة. وغمغمت، قبل ان ترى الوجوه او تسمع الأصوات، مستغرقة ما تزال في حلمها، قائلةً بأنه

Twitter: @ketab_n

إن لم تكن قد عملت على تنظيم الحياة حال ان تستيقظ، فإن عليك ان تجابه أحلامك. ان طفلتي خائفة، أوه، انها لخائفة جداً!: كانت لاغاردونيا، ذات الوجه الوحشي المُحمر بالمساحيق، والأسنان الصغيرة الحادّة، تنتحب بجوارها، كانت تهزها، كانت تحكي لها حكايةً هستيرية، ميلودرامية لم تستطع فهمها، فهمت شيئاً واحداً فقط: ساعدينا، يا آنسة، إن طفلتي تموت.

كانت الطفلة المشارفة على الموت عبارة عن صُرّة صغيرة مُزرقة اللون، يشوبُ جلدها الألم، وتنتفضُ حتى الموت بينما تعصف ريحُ الصحراء القلوية في الخارج، وكانت هارييت، جاثيةً على ركبتيها في عربة القطار، مثلما في حلم، وقد تخيلت نفسها طفلةً، ابنة عسكري في المعركة، مريضة، في عربة قطار تستخدم كبيت وكمطبخ والآن كمستشفى: كانت الطفلة ـ التي ـ كانتها ـ تختنق وكان الجميع يتكلمون في نفس الوقت، لاغاردوينا المُبتلاة بالكارثة، والمرأة ذات الوجه القمري: أنقذيها، يا آنسة، نحن لا نعرف أي شيء آخر لنفعله، جاءتها الحالة فجأة، انها طفلة لاغاردوينا، عمرها سنتان فقط، لا تدعيها تموت، انها تنتفض، أصابتها بُرْديّة، انظري الى لونها؛ وكانت هارييت عاجزة، ليس ثمة دواء، ليس ثمة حقنة، لا شيء سوى علبة أسبرين صغيرة في حقيبة سفرها، ومعجون الأسنان، وفراشٍ لشعرها ولثيابها ولأسنانها: أسنان لاغاردوينا الحادّة كالسكين وفم هارييت النقي، النظيف؛ ليس ثمة دواء، ليس باستطاعتها انقاذ الطفلة الاّ بجسدها فقط، أسرعوا وأحضروا الأسبرين، لكننا أعطيناها أسبرين، ولقد فركناها وطهرناها بالاغصان الصغيرة، وليس من كاهن هنا، لقد هرب. جسدي، فكّرت هارييت: متى سأحم جسدي، متى يمكنني أن أغتسل، انني مغطاة بالوسخ والموت، بالموت والحلم، الحلم بأبي يضيع في الحملة الكوبية، وبقبره الفارغ في أرلنغتون، انني أحمل الحلم والوسخ والموت والخوف منذ أن نزلت من السفينة في فيراكروز، كوبا وفيراكروز، هي الفناءات الخلفية لبلادي دائماً، المُحتلة من قبل بلادي لأن قدرنا ان نكون أقوياء على الضعفاء، تم احتلال ميناء فيراكروز من قبل بحرية الولايات المتحدة نتيجة اهانة افتراضية لحقت بالجيش وبالعلم الأميركيين(*).

(*) Stars and Stripes: الملاحظ ان الكاتب عمل على بناء دلالتين للمصطلح الانكليزي الواحد، عندما قام بترجمة نصّه، اذ ان Stars التي تعني النجوم، لها دلالة الرتبة العسكرية الرفيعة، في الوقت الذي تدلّ فيه على عنصر مكوّن في العلم الأميركي ـ عدد الولايات ـ. وكذلك كلمة Stripes، فهي تعني شرائط (رتبة عسكرية متدنية) في الوقت الذي تكوّن فيه التشكيل المُخطط للعلم الأميركي.. فهي أيضاً تقليمات مخططة. فـ Stars and Stripes تدل على مختلف مراتب الجيش وعلى العلم الأميركي في آن. وهذا ما يشير الى لغة الكاتب المتصفة بتعدد الدلالات. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

«هل واجهتكِ آية صعوبة حين غادرتِ السفينة، يا آنسة وينسلو؟».

«هل لطمتكِ ونخزتكِ السلطات المحتلة وتفحصتكِ بتدقيقٍ متطفل، يا آنسة وينسلو؟».

«هل سألوكِ، بشيء من الوقاحة، الى أين كنتِ تتوجهين وما هي غاية سفرك، يا آنسة وينسلو؟».

«هل أظهرتِ لهم بفخر الوثائق التي تثبت بأنكِ قادرة على الدفاع عن نفسك وكسب معيشتك، يا آنسة وينسلو؟».

«هل قلتِ لهم أن لا ضرورة لأن يقلقوا من أجل إعادة مواطنة أميركية ضائعة وجائعة الى بلدها، فلقد جاءت هذه الفتاة لتعليم اللغة الانكليزية لاطفال عائلة ثرية، يا آنسة وينسلو؟»

«هل قلت لهم بأنكِ لست ممرضة بل معلمة مدرسة، أي ما كنتيه دائماً، معلمة مدرسة، ولستِ ممرضة أطفال، يا آنسة وينسلو؟».

«هل رأيتِ الجدران التي اخترقها قصف المدفعية لسجن سان خوان دي أولوا القديم، وفكّرت باحتمال ان ينتهي بك المطاف هناك أنتِ نفسك، يا آنسة وينسلو؟».

«هل لاحظت بأن جدران المدينة قد اخترقتها هي أيضاً قذائف مدفعية من السفن الحربية الغرينغوية، يا آنسة وينسلو؟».

«هل لاحظتِ بأن الشموع البيضاء المكسوّة بالقماش الأبيض على شكل وردة وكذلك الزهور في الشوارع، قد حددت الأماكن التي سقط فيها طلاب كلية فيراكروز البحرية، يا آنسة وينسلو؟».

«هل نقلك اثنان من رجال البحرية الى محطة القطار عبر شوارع امتلأت بمجموعات الكلاب والصقور المتجمعة، يا آنسة وينسلو؟».

«هل أطلق عليك الرصاص قنّاص مكسيكي من فوق أحد الاسطحة، وانه قبل سقوط أحد رجال البحرية ميتاً الى جانبك، ملطخاً بلوزتك وردية اللون بدم حقول ذُرة أوهيو، هل نجح هذا الرجل في ان يخبرك من أين جاء، يا آنسة وينسلو؟».

«هل ركبتِ القطار، الذي سيحملك الى مكسيكو سيتي وأنت ترتجفين، يا آنسة وينسلو، مع كهنة وشباب ورجال أعمال كانوا يفرّون للنجاة ولكنهم وقعوا في الأسر ليختلقوا قصصاً عن ثورة غريبة عليهم، يا آنسة وينسلو؟».

«هل رأيت كيف أخذوا الشباب الذين أرادوا الذهاب الى فيراكروز وانهم بدلاً من ذلك أرسلوا بهم بالقطار الى تشايهواهوا، يا آنسة وينسلو؟».

Twitter: @ketab_n

«هل أخبروكِ بأنهم أرادوا محاربة اليانكيين في فيراكروز ولكنهم بدلاً من ذلك أُجبروا من قبل هويرتا على القتال ضد فيللا في الشمال، يا آنسة وينسلو؟».

«هل فهمت أي شيء عما يحدث في فنائك الخلفي، يا آنسة وينسلو؟».

سجادةٌ من أزهار شجر القرانيا. أنينٌ عميق. أسود. استطاعت ان تمنح ذهنها فقط لهذه الأشياء، لأنه كان عليها ان تضغط فمها على فم الطفلة المريضة، تمصّ، تقبّل، الهواء، الى الداخل والى الخارج، تأخذ، ثم تبصقه، هذا الانسداد، بلغم الطفلة، تقول لنفسها، ليس هذا بمهم، لقد تلقيت اللقاح، لكن الطفلة لم تتلقه، تبصق البلغم الى الخارج، دَبِقٌ، أسود، أزرق مثل جسم الطفلة الصغير، تفكّر بوصولها الى المكسيك، وليس بما تقوم به الآن، وبكتْ الطفلة، بقوة ووضوح، وكأنها ولدتْ للتو.

قبّلت لاغاردوينا يديّ الآنسة هاربيت. «فليباركك الله، سنيوريتا!».

«انها لمعجزة»، قالت المرأة ذات الوجه القمري.

«لا، لا»، احتجّت هاربيت. «كان أمراً يجب ان يتم. لم تكن معجزة، غير انه كان أمراً مقدوراً. ربما كان هذا ما جئتُ الى المكسيك لأفعله. أعطيها الآن ماءً مالحاً، وماءً مُحلى. البنت الصغيرة ستعيش».

ستعيش البنت الصغيرة لأنني رفعتها من قدميها وصفعتُ مؤخرتها بقوة! ستعيش الطفلة لأن صفعتي أخرجت البلغم من حلقها. كانت الطفلة تبكي وتتوسلُ اليّ ان لا أصفعها، لا تصفعيني اكثر، لكنني استمتعتُ بصفعها. لقد أنقذها غضبي. لم أُرزق بأطفال أبداً. لكنني أنقذتُ الطفلة. انه من الصعب عليّ ان أجد الحب فيما لا أعرف. انني أتخيّل(*) الحب وأصونه مثل سرٍ مقدس عظيم.

كان هذا ما قالته هاربيت وينسلو للجنرال توماس أرّويو ذات ليلة.

«لن أُرزق بأطفال أبداً».

(*) إن كلمة Conceive تحمل معنى التخيّل أو التصوّر. كما انها تعني، أيضاً، الحمل او الحَبَل. وبذلك، يمكن ترجمة الجملة الأخيرة على النحو التالي، وهنا تظهر قدرة الكاتب على انتقاء الكلمة ذات الدلالات المتعددة، والتي هي سمة اللغة الناغلة في كتابة فوينتس، كما أشرتُ سابقاً. «انني أحبلُ بالحب وأصونه مثل سرٍ مقدس عظيم» ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

غطَّتْ النساء وجوههن بينما كانت الأرتال المُرهَقَة عائدة في الفجر، وهي تجرّ نفسها نحو المعسكر من جديد.

تذكرَ بيدريتو بأن النساء اللواتي كُنَّ يقمن بمراقبتهم وهم يرجعون كُنَّ يضحكن بصمت، وأن الصبايا فقط قد كشفن عن وجوههن المستديرة، الحمراء كالتفاح، في فجر الصحراء البارد.

«انهن في حالة حب»، أخبرَ الكولونيل غارسيا الصبي الذي لم يفهم بوضوح تام ما هو الحب: كُنَّ يحصين رجالهن ليعرفن كم عدد الذين رجعوا، ومن هم الذين فقدوا.

«فُقِدَ أبي المسكين في كوبا».

«مات ابني المسكين في فيراكروز».

كان هناك رجال جُدد غير متأكدين من وضعهم. انهم السجناء الذين انضموا الى جانب فيللا، المكتفين، ببساطة، بوصولهم الى قرية وتكوين صداقات جديدة. كانت لاغاردونيا المنتعشة هناك، وقد ثبتت ضمة الورد الميتة على صدرها، لتستقبلهم، لتقول بأن الحياة لمن يعيشونها، وبأن الجميع كانوا مثلها؛ لم يغادروا قراهم من قبل أبداً لكنهم يرتحلون الآن في كل مكان، يكون الحمل بطفلٍ في دورانغو، والولادة في خواريز، وخسارته في تشايهواهوا: كانوا منذ بدء الخليقة معزولين في قراهم المنسيّة، وأكواخهم في الصحراء، وخيامهم في الجبال، أما الآن فالجميع قد عرف الجميع، وكانوا يجولون في قوافل للحصول على الغنائم: فلتحيا الثورة،وليحيا الجنرال توماس أرّوبو!

رأى الغرينغو العجوز جميع الوجوه المستقبلة وشعر بطعنة إدراكٍ حادّة، وأشد قوة من تلك التي شعر بها في قاعة الرقص. ثمة أغنية كانت تُسمَع مرةً تلو المرة حول نيران المعسكر:

Twitter: @ketab_n

جاءت الريح المدومة وجرفتنا جميعاً الى البعيد.

«لست أدري إن كان الغرينغو والسينيوريتا هارييت قد لاحظا بأن الثورة كانت ريحاً اقتلعت الرجال والنساء من جذورهم وجرفتهم بعيداً عن غبارهم المستقر ومقابرهم القديمة وقراهم الهادئة». قال الكولونيل غارسيا لصديقه اينوسنسيو مانسالفو، مقاتل العصابات الشجاع الذي أتى من توريون، كواهويلا، والذي نُصِبَتْ مشنقته ذات يوم.

«لا بد انهم عرفوا ذلك»، أجاب اينوسنسيو. «كان عليهم أن يتذكروا بأن الأميركيين قد تحركوا دائماً صوب الغرب، وانه حتى حدوث الثورة لم يكن المكسيكيون قد تحركوا على الاطلاق».

كان قد قُبِضَ على مانسالفو وهو يسطو على قطارٍ جنحَ عن خطّه الحديدي في تشاركو بلانكو. نصبت مشنقته على الفور، وكان جرابه الجلدي طافحاً بنقود معدنية مسروقة. «لا تمسّوا النقود»، قال الكولونيل فروتوس غارسيا، الذي أصدر الأمر. «كان رجلاً شجاعاً. انه يستحق أن يأخذ نقوده معه».

«أنا آسف يا اينوسنسيو. لن تتحرك. وترحل بعد الآن».

أراد الغرينغو العجوز أن يقول للآنسة وينسلو بأنه، خلال حياته الخاصة، قد رأى أُمةً بأكملها تتحرك من نيويورك الى أوهايو الى ساحات المعارك لجيورجيا والكارولينتين(*) ومن ثم الى كاليفورنيا، حيث انتهت القارة.. وحيث انتهى أحياناً حتى المصير.

لم يتحرك المكسيكيون أبداً، إلّا المجرمون منهم والعبيد. انهم يتحركون الآن ليقاتلوا وليمارسوا الحب. رفعت لاغاردونيا ذراعيها الاثنتين لتلفت انتباه جندي فدرالي سابق له شارب كامل قد أثار ولعها.

وجد الغرينغو العجوز الآنسة هارييت جالسة أمام المرآة في عربة النوم وهي تشبك شعرها الأصحر. أوقفه المشهد، وفتنه الأريج القريب للحم المرأة الناعم، المشوب بالبودرة، وضحكتها الموسيقية.

«لا تنظر الي هكذا. لقد جلبتْ لي النسوة أباريق وأباريق من الماء وحممني. لم أستحم منذ وصولي الى هنا. كما أنكَ تعرف بأنه الى جانب الوَرَع فإن الفضيلة الكبرى هي...».

(*) المقصود: كارولاينا الشمالية والجنوبية. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

«بالطبع»، غمغم العجوز. تلاقت عيونهما في المرآة. «فكّرتُ بكِ كثيراً الليلة الماضية. كنتِ حقيقية جداً في أفكاري. أعتقد بأنني حلمتُ بكِ حتى. شعرتُ بأنني قريبٌ منكِ مثل...».

«مثل أب؟». جاء دورها الآن لكي تقاطع. «بهذا القرب؟»، سألت، بلا أي ذرة عاطفة. لكنها خفضت عينيها على الفور. «انني سعيدة لرجوعكَ».

سمعا عدة انفجارات حادّة وقد تتابعت. من المستحيل معرفة عددها، مثلما تُفَجّرُ الانفجارات الوقتَ بعنفٍ فجائي وتبعثر الثواني ـ وقبضتْ الآنسة هاريت على دبابيس شعرها بإحكام مثلما يتشبث بحارٌ سفينة غارقة بقارب النجاة. لا شيء يبدو اكثر سخفاً من أن تُسقِط الأشياء: الدبابيس. سقط شعرها غير المثبت بالدبابيس على كتفيها، وتمسكت بيديّ الغرينغو. «أوه، يا إلهي، لقد عادوا!».

«مَن؟».

«الجنود الآخرون. أوه، إن هذا ما أخشاه. لن يكون بمقدورهم معرفة مَن مع مَن أو مَن ضد مَن».

«سوف يعتبرونك، يا آنسة هاريت، مغامرة أميركية جاءت الى المكسيك بحثاً عن إثارات رخيصة».

لقد أدّتْ فكرة سخيفة كهذه الى تبديد خوف هاريت وينسلو؛ ولذا قامت بالضغط على يد العجوز. لقد فكرتْ بالموت على نحو متقطع. حدّقَ عميقاً في عينيها الرماديتين.

«أقسمُ لكَ بأنني رضيت بهذا الوضع قبل أن يحدث أي شيء، قبل أن تثبت التهمة على مُحبي السيد ديلاني بالاحتيال أو أن تنتشر قضيته، أقسم على ذلك...».

«لا أريد أن أعرف أي شيء عن هذا الموضوع»، قال العجوز، وضغط بشفتيه على وجنتيّ هاريت.

«لكنكَ جئتَ على ذكر ليلاند ستانفورد. أنت تعرف بأن مثل هذه الأمور تقع دائماً. لكنني أقسم بأنني اتخذت قراري بنفسي. جئت الى هنا بحريتي، أريدك أن تعرف بأن...».

وبينما هي متكئة على كتفيّ العجوز، وما زالت بين ذراعيه، رأت أرّويو واقفاً على مدخل مقصورة القطار، وقد اختفى جزئياً وراء الستائر الحريرية الثقيلة الزرقاء المبطنة لهذه المقطورة الملكية. وعندها، سمعت حفيفاً ضعيفاً خلف أرّويو، وقامت يدٌ انثوية نحيلة

Twitter: @ketab_n

وناعمة بسحبه من ذراعه. أطبقت الآنسة هاربيت على شفتيها بقوة وانتبهت الى المرور الخاطف للتنورة الزرقاء العائدة للمرأة ذات الوجه القمري.

تتابعت الانفجارات متزايدةً في قوتها وتواترها: حررت نفسها من معانقة العجوز الحنونة وأكملت تزرير بلوزتها. احتارت في تفسير ما يجري لكنها أرادت إخفاء خوفها.

«قد يكون الفدراليون»، قال العجوز، الذي لم يخشَ إظهار خوفه. «عندها، فليرحمنا الشيطان جميعاً».

«لا». ودخلت المرأة الصغيرة ذات الوجه القمري، واليدين الناعمتين، آتيةً من مقصورة الجنرال. «انها مجرد مفرقعات».

كان عيد القديس حامي القرية، قالت، يوم عيد عظيم في كل المنطقة، وسيريان ذلك، وقادتها من عربة القطار الواقفة عبر الهواء الذي كثفه البارود المُفَجَّر من قبل الرجال ذاتهم الذين قاتلوا ببنادق وينشستر المُهَرَبة من تكساس. حمل الهواء القارس كلا من البارود والبخور، وطوّقتْ مجموعة من الأطفال المُقنَّعين الآنسة هاربيت، وهم يحجلون من حولها موحين برقصة العجائز الصغار. استدار الغرينغو العجوز ونظر صوب عربة القطار.

وقف أرّويو فوق المنصة وسيجار طويل أسود مثبت بين أسنانه، عاري الصدر، مكسوّاً بهالة من الدخان، يشخص الى العجوز، يشخص الى هاربيت وينسلو، يشخص اليهما معاً. رقص هنود الشمال برتابة أمام الكنيسة، بينما الخلاخل تخشخش في كواحلهم، عندما تبع العجوز هاربيت الى هيكل المزرعة المُدَّمر، عبر صف الأعمدة المخربة حيث كانت نساء القرية يُجَربن، بمزيج من الانفعال والسعادة، الأثواب القديمة التي أعطتهم حق رتقها: يمنحُ العيد دائماً المبرر لأي شيء، حتى هاربيت أرادت أن تُظهِر للغرينغو ما قد أنجزته، من أجل أن تقهر الحلم، وتقهر الماضي، وتنظّم المستقبل ـ تنقذ حياة، لكنها لم تكن تريد أن تقول له ذلك، فليكتشف هذا بنفسه.

لم تكن اللآليء هناك. شعرت بالخجل، وبالحنق، بينما تبحث يداها في الصندوق الحديدي الفارغ. تبخّر كل ماحلمت به، وخططت له، وفازت به، في الشعور بالمرارة (وحيدة تجلس الآن وتتذكر).

«انه النهب»، قالت، «هذا كل ما يريدونه».

«لا تخافي»، قال العجوز فجأة.

«ليس ثمة ما تخاف منه». كان أرّويو، الذي لم يرتد شيئاً غير البنطال الشاموايي والجزمة الطويلة، يتمنطق بقرابيّ مسدس ثقيلين على كل جانب من جانبيّ بطنه العريض

Twitter: @ketab_n

العاري.

«لسوف تعذريني لأنني لم أرتدِ كامل ملابسي؛ كنت في عجلة من أمري. خشيتُ أن تقومي بعملٍ قد تندمين عليه، سنيوريتا».

«لقد حظيتَ بغنيمتك»، أجابت بكبرياء (تتذكر)، وبغطرسة (وحيدة تجلس الآن)، وسعيدة لأنه استرق اليها السمع. «ان هذا هو كل ما يريدونه، أليس كذلك؟ كل ما تبقى لا يعدو كلاماً بكلام».

نظر أرّويو الى الصندوق الحديدي الفارغ. نظر الى العجوز. وبخشونة قبض على معصم هاريت. نظرت هاريت، بدورها، الى العجوز باحثةً عن المساعدة، لكنه أدرك أن لحظته مع هذه المرأة قد جاءت وولّتْ؛ قد يكون لديها الوقت لأن تستكين بين ذراعيه وأن تحبه كزوجة أو كإبنة، لا يهم؛ لقد فات الأوان؛ فلقد رأى وجه أرّويو، وجسم أرّويو، ويد أرّويو، واستسلم. ابنه وابنته.

«أنتَ، أيها الفارس: هل كنتَ لتأخذ امرأةً كانت قد تأذت، أم المرأة التي تشفق عليها؟».

ما زال أرّويو قابضاً على معصم هاريت. كانت ستقاومه لو ان العجوز لم يلتفت الى كلمات أرّويو الأولى وحماها؛ لكن شبح أن تبدو سخيفة داهمها. جعلته يعرف أنها كانت قوية، أيضاً، وانه إنما يقودها ضد إرادتها، لا ترفس وتحتج وإنما قوية مثله، قوية ضمن أي وضعٍ يمكن أن يخلقه الآن. قاد هاريت والغرينغو العجوز من البيت خلال النهار المشتعل، والضبابي، والمُغبر، والكامد، عبر الرجال والنساء الذين يشقّون طريقهم على الرُكب الدامية نحو الكنيسة التي ازدحمت بالناس منذ الآن. وحيدة تجلس الآن وتتذكر بأنها لم تخف عودة الفدراليين مثل خوفها من هذه الأرض المهلكة التي كمنت حقيقتها الوحيدة في القرار العنيد أن لا تكون أبداً غير ذاتها الأبدية، والتعسة، والمشوشة تشوشاً كاملاً: لقد شَمَّتْ ذلك، وأحسَّتْ به. كانت هذه هي المكسيك.

استطاع العجوز أن يشم خوف هاريت، وتخيّلَ ما سوف يقوله والده، الكالفينيّ الراعد، عندما دخل هذه الكنيسة:

«أوه، انه الغلو، رعب الاسراف، الخسارة الوثنية لفاكهة إلهنا في هذا الافراط الباروكي، ورقة الشجر الذهبية في كل ركنٍ وصدع في المذبح، الجدران المزخرفة، النقوش ضئيلة البروز المطلية بالذهب للتين والتفاح والملائكة والأبواق، هذا الاسهال للذهب المكسيكي والاسباني في وسط صحراء من الغبار والخنازير والأشواك والأقدام الحافية

Twitter: @ketab_n

والشالات الخِرَقية والتضحيات المحروقة.

رقد المسيح الميت في قفصه الزجاجي. ملك الملوك(١)، عارياً، مُغَطًّى جزئياً بردائه من المخمل الأحمر. لقد نزف بعد موته. لم تنفِ تضحيته عبودية حياته، وتجسده(٢)، والتماسه الرهيب من أجل وجودٍ أفضل بينما يقاسي من الخطيئة المميتة القَدَرية لسوء الطالع، والجسد الأرضي الذي وجبَ أن يفكر بالآب(٣): الأب في السماء، فارس السماء، بمتطي للأبد منبرَ وعظٍ كالفينيّ. أنقذتْ السنيوريتا الأميركية طفلة لاغاردونيا المريضة: معجزة؛ ضرورة. رأى الغرينغو العجوز نظرة اشتراكٍ في جريمة مبطنة وباردة في عينيّ الآنسة هارييت بينما كانا يتحدان في دينهما الشمالي الذي لا مذبح فيه(١)، حيث عاش المسيح الفادي متحرراً للأبد من الجسد، ومن الصورة، ومن الرسم والتصوير؛ روحٌ تفوق الوصف تولد على مذابح الموسيقى: إلهٌ حقيقي، ليس كما هو مسيح المكسيكيين، لا يمكن أن ينزف، وأن يأكل، وأن يزني، أو أن يتغوط.

جذب أرّويو هارييت الى جانبه وأشار الى المذبح حيث تتراقص شعلات الشموع، والغاص بما يحوي، حيث العذراء لا هي بنازفة ولا هي بزانية، أُم الله الأكثر طهارة، في كامل جلالها البورسلانيّ(٢) المزجج، مكسوّة بأردية زرقاء من ذهب ومتوَّجة باللآلىء؛ وحيدة تجلس الآن وتتذكر تلك اللآلىء التي أنقذتها بالأمس فقط، أنقذتها من المخدع المُسودّ لسيدة البيت الغائبة وعرضتها في صندوق حديدي مفتوح كتجربةٍ وكأثرٍ تذكاري يمتحن ويسبغ الشرف.

«مَن دفع ثمن كل هذا... هذا... هذا التبذير؟». كان هذا كل ما استطاعت أن تقوله لتخفي خجلها، واتهامها للآخرين بالسرقة، واظهارها لنفسها كيما تبدو الحفيدة الحقة لهالستون العجوز. انهم يوفرّون على مدار السنة بطولها، سنيوريتا، يجوعون من أجل إقامة عيدهم في يومه المحدد. وانتصبَ أرّويو هنا، ابن الصمت وسوء الحظ.

عيدٌ لن ينتهي أبداً، طاقةٌ متوالدة تتغذب على إفراطها الخاص من الحيوية والحُمّى والتضحية. لم يرد الغرينغو العجوز قراءة المصائر النذيرة بالنحس أو المصائر الواعية في الحياة

(١) ملك الملوك: لقب يطلق على السيد المسيح. ـ المترجم ـ.

(٢) تجسد المسيح incarntion: اتحاد الألوهية والناسوتية فيه. ـ المورد ـ.

(٣) الآب: أحد أقانيم التثليث، وهي: الأب والابن، والروح القدس. ـ المترجم ـ.

(١) اشارة الى المعتقد البروتستانتي السائد في الولايات المتحدة، والذي وُلِدَ كإصلاحٍ وتجديد للكاثوليكية ـ المترجم ـ.

(٢) من البورسلان الفخاري أو «الصيني»، كما يسمونه. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

المحتشدة المحيطة به، التي تضغطه وتدفعه ببطء الى داخل الكنيسة، سعيُ ايمانٍ قوي عميق الجذور يتجسد ويُضحي ويتبدد، باتجاه المذبح، يبتعد عنهم ويبتعد، وانفصلَ العجوز عن أرّويو وهاريبت، الرجل والمرأة معاً الآن، مُطَوقان بقَدَرٍ أعمى استطاع الغرينغو العجوز أن يفهمه في وجه هاريبت ولكن ليس في وجهه هو وجه أرّويو. كان وجه الغرينغو العجوز يقول مخاطباً أرّويو: خُذها، خُذ ابنتي. وتدحرجت وسط التائبين الراكعين، والبخور الكثيف والأوشحة الكتفية(٣)، قطعة بيزو فضية كاملة، وزحف بيدريتو الصبي خلفها، على أربعته مثل حيوان صغير، خائفاً أن يفقد كنزه الوحيد.

(٣) Scapalar: الكتفية؛ الوشاح الكتفي: ثوب فضفاض بلا كُمينّ يتدلى من الكتفين ـ المورد ـ، يلبسه المكسيكيون كمعطف ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

استمرت قطعة البيزو بالتدحرج نحو حافة الساحة العامة الصغيرة. سمع بيدريتو صوت آلة بيانولا بعيدة وعرف، رغم فوضى العيد، مصدر الموسيقى. راح يدندن معها. مَن لا يعرف هذا اللحن؟ **سوبري لاس أولاس**(*)، همس توماس أرّويو في أذن هارييت وينسلو. **أجمل ليلة في السنة**، همست هارييت وينسلو في أذنه، بينما غاب رنين البيانولا في بعض الأركان المهجورة اللامرئية للمزرعة؛ رجلٌ وامرأة في قاعة الرقص التي أنقذها الجنرال من الحريق وقدّمها لليل، قالت، الليل المُضاء بنور القمر.

رقصا ببطء، وتكررا في المرايا مثل كرة من الشفرات تقطع أينما عُلقت.

«أنظرْ. هذا أنا».

«أنظري. هذا أنتِ».

«أنظرْ. هذا نحن».

رقصا وتعانقا في ساعات العيد المتبقية. كانت ترقص معه الفالس البطيء ولكنها كانت كذلك ترقص مع والدها: **انني أرقص مع أبي، لقد عاد للتو من كوبا**، نال الوسام في كوبا، ترقى في كوبا، أُنقِذَ بواسطة كوبا، مُنقذ كوبا.

«ذهبنا لانقاذ كوبا».

«جئنا لانقاذ المكسيك».

كانت رقصة هارييت الليلة مع أبيها الشجاع المنتصب مثل مِدَك البندقية، نائل الوسام، في احتفالٍ مسائي للترحيب بأبطال كوبا، وثمة ورود قماشية مثلثة الأطراف فوق صدور أثواب جميع النساء، **أهلاً بكم في الوطن يا أبطال سان خوان هيل**، والدها بزيّه

(*) وردتْ بالاسبانية في النص الانكليزي. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

العسكري، بشاربٍ ثابت وشَعرٍ يفوح برائحة الكولونيا، فخورٌ بابنته النحيلة في ثوبها الملفوف من التفتة، الضابط وينسلو برائحة خفيفة مختلفة، وهي، تدفن أنفها في عنق أبيها، تشمُ مدينة واشنطن هناك، ذاك الأكروبولس الزائف من المرمر والقباب والأعمدة وقد غاصت جميعاً في الطين الرطب للمدارات الاستوائية المميتة والتي لا جرأة على ذكر اسمها: إختناق شمالي، دغلٌ من المرمر مثل مقبرة فخامتها متكلفة وفارغة، معابد العدالة وغوص الحكومة في تشابكات استوائية، مفترسة ومنتشرة للفروة التحتية: (*) سرطان نباتي تجذّر في أساسات واشنطن، رطوبة مدينة مثلما هي رائحة زنجية مُستَثارة: دفنت هارييت أنفها في عنق توماس أرّويو وشَمَّتْ تلك الرائحة الرائعة والناعمة لزنجية: أيها النقيب وينسلو، انني جد وحيدة، لكَ أن تنالني كما يحلو لكَ.

وبينما كانا يرقصان، عصرَ توماس أرّويو خاصرة المرأة الأجنبية وضغط ملتصقاً بدفئها تخيّلَ نمو التشابكات هناك مثلما غابة جميلة يود دائماً أن يراها من بعيد، وجاء من خلف باب من المرايا توماس أرّويو الوَلَد ليرقص مع أمه، أمه هو، زوجة أبيه الشرعية، أمه هو، المرأة المستقيمة والنظيفة بلا ثقل الغيوم على كتفيها، بلا تاجٍ من ريح باردة فوق جبينها، بلا عينين ترمدتا بسبب الشمس، لكنها نظيفة، ليس اكثر من ذلك، امرأة نظيفة، إرتدتْ ملابسها بنظافة، سَرَّحتْ شعرها بنظافة، إنتعلت حذاءها بنظافة، ترقص مع ابنها رقصة فالس السوبري لاس أولاس التي سمعوا موسيقاها مراراً من بعيد في البيت الكبير، حيث يستطيعون إبعاد العيون المتلصصة لكنهم لا يستطيعون حبس أصوات الموسيقى.

كانت الموسيقى حادّة الى حد انها منحت الصوتَ للأرض التي غالباً ما كانت صامتة، وسمحت لهم ـ انظرْ، هذا نحن ـ بمنح أنفسهم للحب بلا خوف من أن يُسمَعوا. وضع توماس أرّويو لسانه في أذن هارييت وينسلو.

عندها، شعرت بالخوف من معرفة الجمال والخطر في الوقت نفسه.

تحوّل الخوف الى لذة عبر التفكير به فقط. كان خوفها الحقيقي هو في أن لا يحدث اكثر من ذلك. وضع توماس أرّويو لسانه في أذنها، وشعرت هارييت وينسلو بحاسةِ غيابٍ فظيعة، ليس هو غياب والدها، إنما غياب الغرينغو العجوز.

«سوف أُخضع الجنرال توماس أرّويو قبل أن أعود الى روتينية الحياة في بلدي.». غير أن العجوز كان قد أخبرها بأن لا شيء في المكسيك يُخضَع وأن لا شيء يُنقَذ.

«هذا هو الصعب علينا أن نفهمه، لأن أسلافنا لم يُخضعوا شيئاً، في الوقت الذي كان

(*) شعر دقيق تحت الشَعر الخارجي. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

فيه هنا جنسٌ متحضر. هذا ما قاله لي أبي عندما شارك في حرب ١٨٤٨. «المكسيك ليست بلداً سيئاً. انها فقط بلد مختلف».

لسانٌ مختلف في أذنها: سمعت، شعرت، لسانٌ ندي، متعرج، لسانٌ قبلته هاريت لكنها هربت منه أيضاً، مركزةً على مشاعرها الذاتية عن الفصول المتغيرة. كانت ترقص بين ذراعي أرّويو ولكنها، في هذه اللحظة بالذات، كان باستطاعتها نقل إحساس بفصولٍ لم توجد هنا: رقصتْ في أصياف صباها قرب الخرير البارد في روك كريك بارك؛ وإنقضتْ هابطة بمزلجةٍ فوق منحدرات ميريديان هيل بارك الثلجية؛ ومشت ويدها بيد أمها في الشارع الرابع عشر، تتسوق وإيّاها من حوانيت يونانية ذات نكهة خاصة البندق وتفاح الخريف؛ وزارت في أحد أيام الربيع الذي حمل غبار الطلع المتطاير ومعجزة أشجار الكرز مقبرة أرلنغتون ونظرت الى قبرٍ فارغ.

ضغطتْ نفسها اكثر الى توماس أرّويو وكأنها كانت تخشى فقدان شيء ما، لكنها احتفظتْ برأسها بعيداً كيما ترى دهشتها التلقائية في عينيّ الرجل المكسيكي.

«لقد سبق لي أن كنت هنا من قبل غير اني لن أعرف متى حتى يحين رحيلي».

همس في أذنها، هل تحب أن تحلم؟

أجل، قالت؛ ففي أحلامها كانت لا تكبر.

وثمة ما هو أفضل: عندما استيقظتْ، لم تعرف أين كانت.

تذكرَ أرّويو فصلاً واحداً فقط: كان دائماً هو نفسه، فالوقت هنا ليس له تلك المعالم، وهذا ما يفسّر الحاجة المتقدة لتعليم(١) الوقت بجراحٍ لا تُنسى، جراح توجع حتى بعد إندمالها: كانت هذه حياته.

«سامحيني، أيتها الغرينغا(٢) الصغيرة. أنا لا أعرف أشياء كثيرة عن العالم. أحياناً اكون مزاجياً للغاية. انني أفهم وأشعر ببعض الأشياء بعمق كبير، أيتها الغرينغا الصغيرة، بعمقٍ كبير، لأنني اذا لم أشعر بها فانني لا أملك أية وسيلة للفهم».

كانا يرقصان الرقصة وكأنهما كانا يرقصان قصة. تفوهت له بأشياء في أذنه بالانكليزية، كأنه يستطيع فهمها الى حدٍ ما لأنها تحدثت وكأن هذه الأشياء قد حدثت من قبل: **لن أرى ديلاني ثانية. عندما أتكلم عن العودة الى الوطن فانني لا أقصد القيام بالأمور**

---

(١) من علامة. ـ المترجم ـ.

(٢) تأنيث لقب غرينغو. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

نفسها مرة أخرى. سوف آخذ وقتك معي، يا أرّويو، ووقت العجوز؛ سوف أحرس وقتكما، يا أرّويو. أنتَ لا تعرف هذا، لكنني سأكون سيدة كل الأوقات التي سأفوز بها هنا. وكما أفهم المسألة بشكلٍ أفضل، سوف أكبر أكثر جمالاً وسعادة عندما أتجوّل بوقتكما، حارسةً لهما، على طول ضفاف بحيرة روك كريك في الصيف وفي الممرات الثلجية لميريديان هيل في الشتاء والوقوف في الشارع السادس عشر في الخريف وفي الربيع قبل الوصول الى بيتٍ مهجور حيث تلعب الشمس الغاربة بالانعكاسات المتغيرة للحركات على ألواح النوافذ الزجاجية. عندها سوف تسامحني لاحتفاظي بوقتكَ، يا أرّويو، أم انكَ ستحط من قدر كل شيء بطلبك لي أن أمنح لكَ نفسي مقابل حياة رجل...

لم يسأل، كما انه لم يوافق. لن تكون هذه مجرد قصة رجل من الآن وصاعداً. ثمة حضور (حضوري أنا، قالت هاريت) سوف يبدّل القصة. إنني آمل فقط أن أمنحه أنا أيضاً سراً وخطراً لن تضمنه الأحداث نفسها.

«الوحدة هي غياب الزمن».

ضمّها أرّويو اليه اكثر وتمنّى لو أنه يستطيع أن يخبرها بكل شيء كان يفكر فيه، وذلك انها حين ترحل لن تتذمر، بل سوف تشعر بأنها كانت سيدة كل شيء فازت به هنا. كان سيطلب منها أن تحتفظ بزمنه، زمنه هو، زمن توماس أرّويو، حين لا يعود باستطاعته أن يفعل هذا. وزمن العجوز. زمن العجوز، كذلك ـ أوما أرّويو. ولسوف تقبل. سيتبادلون الأزمنة، ابتسم المكسيكي: مَن يعيش سيحرس زمن الاثنين الآخرين، وسيكون هذا أمراً حسناً، أليس كذلك؟ سأل الجنرال، بخجلٍ تقريباً، وبرقةٍ تقريباً، أليس كذلك، مهما سيحدث؟

عندما سيترك الغرينغوان المكسيك، فإنه يريد منهما أن يقولا: «كنت هنا. ستظل هذه الأرض دائماً جزءاً مني منذ الآن». هذا ما أطلبه منهما. أقسمُ: هذا هو الشيء الوحيد الذي طلبته. لا تنسونا. لكن، واكثر من أي شيء آخر، كونوا نحن وظلوا أنفسكم... واتركوا كل ما تبقى.

ثم قال ما كانت تخشى أن يقوله. «إن الأمر عائد اليكِ فيما اذا كان الغرينغو سيعود الى بلده حيّاً».

لم تسمع ما أضافه أرّويو (انه عنيد. انه رجلٌ شجاع. وانه لَـمَثَلٌ سيّء لرجالي) ولكن لما لم يضفه (لن أقضي هذه الليلة من دونكِ. أريدكِ، أكثر مما تقدرين على تصوره، أيتها الغرينغا الصغيرة. سأقول لكِ كم أريدك. أريدك مثلما أريد أمي أن تعود حيّةً من

Twitter: @ketab_n

جديد. بهذا المقدار. سامحيني، لكنني سأقوم بأي شيء عليَّ أن أقوم به لأنالكِ الليلة، يا الغرينغا يا جميلتي)، لأن أرّويو لم يلاحظ أن هارييت كانت ترقص مع ضابطٍ مُبَجَّل تلقى وساماً ومنتعش إثر إستحمامه، وان أرّويو، على العكس من ذلك، قد هجر أمه الشريفة والمحترمة: رأت هارييت أرّويو يُدفع خارجاً من بين سيقان جميع النساء اللواتي أُرهقن بعبء الهموم والظلال.

عندما تحركت تاركةً ذراعي أرّويو، رأت نفسها في قاعة رقص خُططتْ بالمرايا. رأت نفسها تدخل المرايا دون أن تنظر الى نفسها، لأنها في الحقيقة كانت تدخل حلماً وأن في ذلك الحلم كان والدها ما يزال حيّاً وكان ثمة قبر فارغ في أرلنغتون.

نظرت الى أرّيو وقبّلته باندهاشٍ فطري. أسقطَ الصبيُّ قطعة البيزو الفضية لكنها لم ترّن على حصى الشارع لأن يداً منمشةً عظمية مغطاة بشعرٍ أبيض أمسكت بها في الهواء.

Twitter: @ketab_n

شعر بالخزي في الحضور الصبور للمرأة ذات الوجه القمري الملفوفة بشالها الأزرق. أفشتْ عيناها الدامعتان هدوءً عميقاً وذكياً. امرأة جندي؛ كان قد عرفهن في حياته وقرأ عنهن في ملاحم الماضي. غير انها لمسته الآن بيدها النحيلة، الناعمة، سائلة دون كلمات انه تظاهر بأن لا شيء يحدث، وبأنها يوجدان هناك، في قفص الزجاج المتألق لقاعة الرقص، محبوسين مثل المسيح في تابوته الشفاف، أو مثل مُلّاك الأرض الراحلين الذين كانوا يحيون كل سنة حفلةً هائلة لسيدات وأسياد تشايهوا هوا وأل باسو، وحتى مكسيكو سيتي.

يتظاهر. لقد شعر بالانحطاط، إنما ليست هي.

«أحياناً يشعر بالوحدة؛ ودائماً هو رجل»، قالت المرأة ذات الوجه القمري.

«ألا ترضينه؟» سأل الغرينغو العجوز بقسوة.

لم تنزعج أو تغضب. «الرجال والنساء مختلفون».

«هذا ليس صحيحاً، وأنتِ تعرفين ذلك. انني لا أناصر قضية المساواة بين الجنسين. إن أحد الأسباب لوجودي هنا، يا سنيورة، هو انني أخاف عالماً مليئاً بالمناداة المجنونة بمنح المرأة حق الاقتراع: نظام أمومي(*) لا يحتمل. لكن الحقيقة هي اننا، الاثنين، نحاول أن ننال الأفضل من بعضنا البعض. كل ما في الأمر انكن تقمن بذلك بتكتم اكبر مما نفعل نحن. هذا كل ما في الأمر».

أذعنت المرأة ذات الوجه القمري. كانت راضية، لكن أرويو لم يكن كذلك: ليس لأنه لا يحبها، بل لأنه طالبها بأن تُظهر بأنها أحبته بتقبلها حاجته للحب أكثر من حاجتها

(*) النظام الأمومي Matriarchy: نظام اجتماعي يرجع فيه الى الأم في النسب والوراثة. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

هي .

«أنتِ لست فلاّحة» .

تناول يدي المرأة وتفحصهما .

«لا . أعرف كيف أقرأ وأكتب» .

«أين عثر عليك؟» .

«هو لم يعثر عليّ . أنا الذي عثرت عليه . دخل قريتي ممتطياً حصانه مثل فحلٍ صغير، داكناً وحريرياً . ثم تمت السيطرة على القرية من قبل الجنود الفدراليين . أنقذته من موت شنيع، صدقني، أيها الجنرال الانديانى» .

«عرفان الجميل» .

«ثم كنتُ أنا الممتنة . لم أتصور من قبل رجلاً بإمكانه أن يحبني هكذا . ليست هذه بالعادة في قريتي . كانت مكاناً حزيناً حيث يذهب حتى الأزواج الى فراشهم سراً، بصمت، في العتمة .

أخبرته بأن أرّويو كان على النقيض من ذلك، إذ إنه عارٍ حتى وإن كان يرتدي ثيابه . مثلما هو رجل صموت، حتى وهو يتكلم .

«كان عليّ أن أنقذه ليتمكن من انقاذي . نحن معاً وأنا أفهمه . »

«انني سعيد . »

وقفا دون أن يتحدثا . حاول الغرينغو العجوز أن يتخيل ماذا يقول أرّويو لهاريت بينما كانت المرأة تتكلم معه، غير متخيل بأن أرّيو قد يتساءل هو أيضاً ماذا تقول المرأة للغرينغو العجوز بينما كان أرّويو يحدّث هاريت كيف أنقذته المرأة ذات الوجه القمري عندما كان مختبئاً من الفدراليين خلال الأيام الأولى للحملة المضادة لهويرتا في الشمال .

أحاطوا بالقرية وعرف أرّويو بأنهم سيقتلونه إذا ما عثروا عليه . كان هو المتمرد الوحيد المتبقي في القرية، ولقد اختبأ في أحد الأقبية . سمعهم يسيرون فوق رأسه وسمعهم وهم يقتلون رفاقه الأسرى . سمع كل شيء لأن القبو كان له صدىً مثل الصدفة . ثم أحكموا إغلاق كل شيء .

لم يفهم أرّويو ما كان يجري . هل حكموا على هذه القرية بالموت لأنها كانت معسكراً للثوار؟ لقد أغلقوا عليه في قبوه غير عارفين بوجوده هناك . كان يملك دائماً حاسة شم جيدة . شمَّ الكلاب النائمة في الزاوية؛ أفاقوا على الأصوات القارعة . كانت كلاباً كبيرة وبشعة ورمادية، بفكوكٍ مثل شِراك فولاذية . لم يرَ شيئاً يستغرق كل هذا الوقت ليفيق؛ بدا الأمر

Twitter: @ketab_n

وكأنها تُركتْ منسيّة في القبو منذ بدء الخليقة.

فكرَّ بأنها لا بد وقد تُركت هناك من أجله، بأنها كانت أشباحه، انها حيوانات تقدر أن تتخذ أي شكل. كانا، في الحقيقة، كلبين بشعين ضاريين رماديين دورسين(*) أودعهما صاحبهما في القبو لأن الفدراليين سرقوا كل شيء يملكه، ولقد أحب هذا الرجل كلبيه أكثر مما أحب فضته ـ هل كان يملك منها شيئاً ـ أو زوجته ـ التي كان يمتلكها.

«لا تنظري إليّ هكذا، أيتها الغرينغا.».

«هكذا أشعر.»

«انكِ هنا بمحض إرادتك.».

«أجل، إنما للسبب الذي قلته لك. أنتَ تعرف هذا.».

«آه، نعم، لأنكِ تودين العجوز.».

«انني أوده. إنه متألم جداً. انني أفهم هذا على الأقل.».

«وألمي؟».

«أنتَ تسبب الألم. لكنني سأساعده بأي شكل أستطيعه. لهذا أنا هنا.».

«هل ستنقذينه مثلما قامت هي بإنقاذي؟».

«لا أعرف كيف أنقذتك.»

راقب أرّويو والكلبان بعضهم بعضاً. عرف الكلبان بأنه كان هناك. عرف هو بأن الكلبين كانا هناك. الكلاب تهاجم دائماً أو تنبح. لكنهما، من الغريب المدهش، لم ينبحا ولم يهاجما. راقبا أرّويو وحسب وكأنهما خشياه بالقدر الذي خشي هو منهما. ربما اعتقدا بأنه إنما كان حيواناً آخر، أو ربما علمهما صاحبهما أن يخافا أي شخص له رائحة جندي. من يدري؟. فللكلاب أكثر من خمس حواس. قال أرّويو بأنه ما كان ليخبرها بهذه القصة لو لم تكن غريبة للغاية.

اعتقد أرّويو بأن اليوم لن ينتهي. لم يتحرك؛ لقد أوصلَ للكلبين إيماء بأنه قوي مثلهما، وانه منذ الآن لن يمسهما بسوء. حلّ الليل وتبيّن له أن الكلبين كانا ينتظران لأنهما استطاعا الإحساس به أفضل من رؤيته لهما. هرّا(*). أحسّا بأن أرّويو كان يستعد متأهباً لهما. نبحا بوحشية، ووثبا صوبه. أطلق أرويو النار. أصابتهما رصاصاته وهما في الهواء مثل نسرين ثقيلين. أفرغ مسدسه. سقطا وهما يهرّان بضراوة. نظر إليهما. خاف من أن يكون

(*) الدورس Mastiffs: كلب ضخم من كلاب الحراسة. ـ المورد ـ.

(*) من هرير: صوت من أصوات الكلب ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

أحدهم قد سمع الإطلاق وأن يقتله مثلما قتلها. وكزهما وقلبهما برأس جزمته. كلبان ضاريان رهيبان.

«أخبركِ عن هذا لأنني آمل بأنكِ ستفهمينني في النهاية.».

«أنتَ تعرف لماذا أنا هنا.»

مرّت أيام وكان باستطاعة أرّويو سماع الأوامر العسكرية الصادرة فوق رأسه، وخاصة الأوامر الموجهة لفرقة الإعدام. وفي أثناء ذلك كان يتضور جوعاً، بمسدس فارغ في اليد، وكلبين ميتين عند قدميه. تمنّى لو أبقى على رصاصة واحدة. كانت ستكون أفضل من أن يأكل عدويه الميتين.

«سأصدّق الآن أي شيء تقوله لي.»

«أنتِ لستِ سجينتي.».

«أعرف هذا الآن.».

«عليك أن تصدقي ما أقوله لكِ. بإمكانكِ أن ترحلي متى تشائين.».

في تلك الليلة، سمع أحدهم يطرق على الألواح المُسمَّرة. أخبره صوتُ امرأة بأن لا ييأس. سوف تطلقه حالما يزول الخطر. لا تتخلَ عن الأمل. الشيء الذي لم تعرفه هو احتمال أن يكون أرّويو قد أكل الكلبين. لكنه أنصت لصوتها وقال لنفسه بأن عليه أن يؤمن بها، وأن عليه أن لا يهينها بالإرتياب بها، ثم انها، علاوة على ذلك، أمله الوحيد. يجب عليه أن لا يأكل تلك الجيفة؛ وما كان ليقدر أن يخبرها فيما بعد: لقد صدقتكِ لكنني لم أصدّق بأنكِ ستقومين بانقاذي، وها أنا الآن أقبّل شفتيكِ بالشفاه ذاتها التي أكلتْ لحم كلب.

«افهميني، واعذري هذا الحب العابر الذي أحسّه تجاهك، أيتها الغرينغا.».

«أعرف. انني، أيضاً، أعرف كيف أنقذ رجلاً. رغم اختلاف الظروف. أنتَ تعرف جيداً ماذا عليكَ أن تقول لي، أيها الجنرال.».

قال لها بأن ثمة موتين محتملين كانا في الليلة التي تلت المعركة. موت الغرينغو كان أحدهما. والآخر، كان موت كولونيل القوات الفدرالية. كان الاحتمال أن يموت أحدهما.

«عدتُ لأقول لكِ بأن الكولونيل مات كرجلٍ شجاع.».

«إن حلمكَ بالشرف لن ينتهي أبداً.»

(وحيدة الآن وتتذكر: هذه ليست بالحياة كما أفهمها. إذن، هل فهمتْ الحياة الآن، أخيراً، بعد أن أحبها؟).

Twitter: @ketab_n

«انكَ مغرور، وأحياناً أحمق، لكنك أيضاً صادق وقابل للإنجراح. أعرف هذا، ولقد أحببتكَ الآن. انني أفهم ذلك، ولكن ليس بالطريقة التي تفهمُ بها الحياة. انكَ تحتفل بالموت فوق الحياة».

«انني حيّ. بسبب امرأة بالأمس، وبسببكِ اليوم.».

لا. هزّتْ شعرها الأصحر. انه حيّ اليوم لأن لحظة موته الخالصة لم تأتِ بعد. عليه أن لا يتركها تمرّ. إن الشيء الاكثر أهمية في حياة أرّويو هو، ليس كيف عاش، وإنما كيف مات.

«أنتِ على حق. آمل أن تريني أموت، يا غرينغايتي»(*).

«لقد أخبرتكَ. أُفضّل أن أراكَ ميتاً على أن يموت العجوز.»

«انه عجوزٌ جداً.»

«لكنني لا أعرف كيف أحكم على ألمه. أما ألمكَ، فأستطيع.»

«كنت تحاكمينني منذ أن جئتِ إلى هنا.»

«لن أكرر فعل ذلك، أقسم على هذا. هذا هو وعدي مقابل وعدكَ، أيها الجنرال أرّويو.».

«انكِ تتكلمين كثيراً، يا الغرينغايتي اللطيفة. عندما كنتُ ولَداً لم أعرف سوى الصمت. انكِ تملكين من الكلمات أكثر مما تملكين من المشاعر، كما أعتقد.».

«هذا ليس صحيحاً. فأنا أحب الأطفال. انني طيبة معهم.»

«إذن فليكن لنا طفل.»

ضحكا معاً، وقبّلها مرة أخرى، دافناً نفسه في فمها مثلما في قبو كلابٍ متوعدة، ملتهماً لسانها بالجوع نفسه الذي أحسَّ به وقتذاك.

«ألا تحبين هذا، أيتها الغرينغويتا(*)؟ بوعودٍ أو بغير وعود، ألا تحبين هذا؟ أخبريني، يا غرينغويتاي العزيزة، يا غرينغويتاي الحبيبة، الحزينة، عن ممارسة الحب الحقيقي لأول مرة، لا تقولي لي لا، يا جمالي المجيد، ألا يميلُ حبكِ إلى حبي؟».

«نعم!».

صرخ أرّويو هاتفاً بنشوة وابتهاج غامر، وضغطتْ المرأة ذات الوجه القمرى يدَ

(*) الغرينغا التي لي. ـ المترجم ـ

(*) لقب الدلع للغرينغا. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

العجوز وقالت عن أرّويو ما قاله الجميع عن الغرينغو: «جاء إلى هنا ليموت.»
«أيها النقيب وينسلو، انني جد وحيدة ولكَ أن تنالني كما يحلو لكَ.»

بينما كان الغرينغو العجوز عائداً إلى عربة القطار رأى أرّويو وحيداً، يضحك، ويختال متبجحاً حول المعسكر المغبَّر، غير مبالٍ بما يمكن أن يفعله عدوه أو يقوله. غير أن الغرينغو تخيّل، وخشي بأن الجنرال كان يتبختر مثل ديك، ليدعه يعرف أن المرأة الأميركية ملكه، وأنه قد نال الأفضل من الغرينغويين المنكوحين، وانه هو الآن، أرّويو، الوقح بذكورته المبالغ فيها، قد نكحَ المرأة الأميركية وبقذفة مَنِيّ واحدة سريعة غسل هزائم تشابلتيبيك(١) وبوينافيستا(٢).

لكن هاريت لم تشارك العجوز أفكاره. عادت المرأة ذات الوجه القمري إلى المقصورة، بعدما تركها أرّويو، حيث نامت المرأتان؛ صُدمت هاريت وشعرت بالخجل. كانت هذه امرأته الحقيقية.

«عليكِ أن تفهمي». قالت المرأة ذات اليدين النحيلتين الناعمتين اللتين كانتا جزءاً أساسياً من طبيعتها المحرّمة للاحتجاج. «لقد جُلدوا بوجه المنجل العريض كلما سُمِعوا وهم يمارسون الحب. وفي بعض الأحيان كادوا أن يقتلوهم. كان عليهم أن يمارسوا الحب وأن يحصلوا على متعتهم في الصمت. انني أقول لكِ هذا كامرأة. كانوا أقل من حيوانات. كنتُ المرأة الأولى التي أحبها دون أن يخشى عاقبة كلماته وتنهداته. لن ينسى أبداً كيف صرخ عالياً من النشوة في المرة الأولى عندما بلغ الذروة معي ولم يضربه أحد بسبب ذلك. وأنا لن أنسى ذلك أيضاً، يا سنيوريتا هاريت. لن أتدخل في حبه، لأن في ذلك تدخلاً في حبي أنا. لكن حتى هذه الليلة، ومعك، لم يعد ليصرخ أبداً. هذا ما جعلني أخاف، عليّ أن اعترف بهذا الآن، قبل فوات الأوان ويتحول هاجسي إلى شيء آخر. ان توماس أرّويو ابن الصمت. إن كلماته الحقيقية هي الأوراق التي يفهمها أفضل من أي انسان آخر، رغم انه

---

(١) Chapultepec: تلّة جرت عندها المعركة الفاصلة بين الجيش الأميركي بقيادة جن. وينفيلد سكوت، والجيش المكسيكي بقيادة سانتا آنّا، في ١٢ ـ ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٨٤٧، والتي كانت نتيجتها هزيمة المكسيكيين ودخول القوات الأميركية للعاصمة مكسيكو سيتي. ـ الموسوعة ـ

(٢) Bauenavista: مزرعة تبعد بضعة أميال عن سالتيالو ـ شمال المكسيك، حيث جرت إحدى المعارك الفاصلة بين الجيشين الأميركي والمكسيكي، بتاريخ ٢٢ ـ ٢٣ شباط، فبراير، وانتهت بهزيمة القوات المكسيكية أمام الأميركية. ـ الموسوعة ـ.

Twitter: @ketab_n

لا يعرف قراءتها. كنت أخاف دائماً من أن يعود الى هنا، الى المكان الذي ولدَ فيه. من يدري ماذا يمكن أن يقع عندما يعود أحدهم إلى البيت الذي غادره نهائياً؟».

ولأنها لم تعرف كيف تجيب، أقدمت هارييت على محاولة ضعيفة لتقول لها بأنها هي، أيضاً، كان لها حبيب في وطنها، حبيب شريف، رجل رقيق، رجل مميز ومسؤول، انه... نظرتْ في عينيّ المرأة ذات الوجه القمري، ولم تقوَ على المتابعة.

«أنتِ طليقة، أيتها الغرينغا»، قال أرّويو بينما كان يتركها في ذلك المساء، ولقد أجابت لا، ذاك لم يكن حباً حقيقياً؛ لكن ماذا ستقول له إذا عاد الليلة، ثملاً بعض الشيء، ليقول لها بأن مرة واحدة ليست بكافية، وبأن ألم العجوز لا يُقارن بألمه هو، ألمه في أن لا ينالها ثانيةً، في أن يريدها ثانيةً، في أن يتخيلها عاريةً بين ذراعيه، وأن يعانقها ويربّت عليها...

«أنتَ لم تترك الآن شيئاً لترغبَ فيه أو تتخيله، أيها الجنرال أرّويو.».

«لا تعاقبيني، تعالي، أرجوكِ.».

«هل تفضّل أن تتخيلني؟. انكَ تبدو لي الآن مثل رجلٍ كنت قد عرفته. انه يفضّل، أيضاً أن يتخيلني، وأن يحظى بامرأة أخرى لكي أبقى امرأته المثالية. ربما انه قَدَري أن أعيش في تخيلات الرجال.».

قال أرّويو بأنه لا يعرف شيئاً عن ماضي هارييت، وانه لا يريد أن يعرف. وربما شعرت هي أيضاً بأنها لا تريد أن تعرف. كلنا ممتعضون، بعضنا اكثر من بعضنا الآخر، قال لها ذلك توماس أرّويو. كلما نريد الانتقام. نحن هنا نسميه باسمه. ماذا تسمّونه أنتم؟».

«الإحسان... القَدَر...»، غمغمتْ هارييت وينسلو.

اعترفَ بأن ذلك صحيح، بأنه أراد قتل الغرينغو العجوز ليلة المعركة، ليكون قادراً على إبلاغها بأنه مات كجبان. ما الذي أرادته حقيقة؟ أن يكون لها أب مثل الغرينغو العجوز، أم أن تكون مثل أبيها مع أرّويو؟ ولقد إرتجفت عندما سمعت هذا وقالت له: تكلمْ، تكلمْ، قُل شيئاً آخر، أي شيء، لكن ليس ما قلته الآن.

فكّر أرّويو قبل أن يقرر أن يجبها بأنه لا يمكن له أبداً أن يعرف لماذا رفض الغرينغو العجوز قتلَ الكولونيل، لماذا أضاع الفرصة لكسب ثقة الجنرال.

«كان هذا أول شيء قلته لنفسي، أيتها الغرينغا.» وعلى الفور راودته أفكارٌ ثانية. «كان الشيء الثاني: أرّويو، إذا قتلتَ الغرينغو العجوز، فلن تحظى بالأميركية اللطيفة. ثم

Twitter: @ketab_n

برز شيطان صغير في رأسي وقال لي، أرّويو، ربما الشيئان شيء واحد. لا أحد منكما يريد أن يخسر تلك المرأة. وأنتما الاثنان تعرفان بأنها لن تمارس الحب على الاطلاق مع قاتل.»

ولقد أغضبها هذا. كيف أحصى أرّويو قتلاه؟ هل اجتث موتى اليوم الجديد أجساد اليوم السابق؟ هل كان كل صباح لطخةٌ من الدم وعملية إحصاء جديدة للموتى؟ غداً وغداً... قال بأن لا شيء يهم مما قاله لها. كان بإمكانه أن يقول أي شيء يريده. كان بإمكانه اختلاق قَدَرٍ آخر للعجوز. صاحت قائلةً بأنه كان يهاجم إيمانها الأكثر عمقاً. توسلتْ إليه أن يصدِّقها؛ انها لا تفكر حسبما فكّر هو؛ انه لمن الصعوبة بمكان أن يمضيا معاً؛ عليهما ألاّ يجتمعا معاً مرة أخرى، هي مرة واحدة، ليعد أحدهما الآخر وليمنحه اللذة، لقد قبلت بهذا، إنما لم تقبل بإعادة خلق مصير، مصيره هو ـ لا بل الأسوأ، مصير الآخر. لم يكن هذا حسب ما تؤمن به، ونشجتْ هارييت وينسلو. الله وحده قادر على فعل هذا:

«ليس رجلاً مثلك.»

«كان باستطاعتي أن أقتله.»

«إذن فإن ما قُلته صحيح، فما كان لكَ والحالة هذه أن تنالني. جئتُ إليكَ فقط لأنكَ أخبرتني بأنك أردت قتله. هذا ما قلته لي في الازدحام في الكنيسة، عندما كنتَ تهصر ذراعي. «قولي لي، ما هذا القمر الذي على ذراعكِ الأيمن؟» «إنه أثر التلقيح. أوه، أجبني! عليكَ أن تحافظ على وعدكَ.»

«أنتِ طليقة، أيتها الغرينغا. تلقيح؟»

«هل قصدتَ أن تكتشفَ الحبَ معي دون حب؟ هذه ليست بحرية المرأة الحقيقية. أنتَ مخطىء.»

«سألَ من جديد: ألم تحمي ذلك، أيتها الغرينغاويتا؟ قولي لي أنكِ أحببتِ ذلك، بوعدٍ أو بغير وعد، لقد أحببتِ ذلك، أليس كذلك؟ وأردتِ منه المزيد، يا غرينغاويتاي العزيزة، غرينغا الحلوة، يا غرينغاويتاي الجميلة الحبيبة، أن تمارس الحب حقاً للمرة الأولى، والتلقيح وكل شيء، قولي لي، ألم تحمي مضاجعتنا، أيتها الغرينغاويتا؟.»

«نعم!»

وهذا ما لم تغفره هارييت وينسلو لتوماس أرّويو أبداً.

Twitter: @ketab_n

أتعرفين لماذا رجعت؟ سأل هارييت وينسلو، ثم لم يعد يسأل بل قرر: أنتِ تعرفين لماذا رجعت. عيناكِ تهربان منكِ، يا الغرينغاويتا، لا بد انكِ تفرّين من شيء ما اذا ما كنتِ تريدين العودة اليه بهذه القوة: أنظري، لقد رأيتِ نفسكِ في المرآة، أتعتقدين بأنني لا أعرف؟ لقد رأيتُ نفسي في المرايا أنا أيضاً، عندما كنت ما أزال وَلَداً صغيراً؛ لكن رجالي لم يسبق لهم أن رأوا كامل أجسامهم: كان عليّ أن أقدم لهم تلك الهدية الكبيرة، ذاك العيد، لأقول لهم: شاهدوا أنفسكم الآن، تحركوا، إرفعوا أذرعكم، أرقصوا رقصة البولكا، عوضوا عن كل السنوات التي عشتموها بعمى مع أجسامكم، تتلمسون طريقكم في العتمة من أجل جسد ـ جسدكم أنتم ـ الغريب عليكم والصامت والبعيد مثلما هي كل الأجساد الأخرى التي كنتم ممنوعين من لمسها. لقد تحركوا أمام مرآة وكسروا جملتي، سحري، يا الغرينغاويتا. فكما تعرفين، ثمة لعبة أطفال عندنا هنا. اسمها «المسحورون». كل من يلمسك يسحرك. عليكِ أن تظلي متجمدة حتى يأتي شخص ما ليلمسك. عندها تستطيعين أن تتحركي من جديد. مَن يستطيع التكهن بالزمن الذي يمضي قبل أن يسحرك شخص ما مرةً أخرى؟. انها لكلمة خطيرة. أنتِ مسحورة. غير انكِ لم تعودي تمتلكين نفسك. إنكِ تعودين الى شخص آخر باستطاعته أن يكون طيباً أو سيئاً معك، مَن يدري؟ اسمعي يا الغرينغاويتا: لقد سُحِرتُ بهذا المنزل منذ أن ولدت هنا، ليس في سرير أبي المُترف جداً ذي الظُلمة، وإنما في فراشي من القَش في جناح الخَدَم. لقد وقفت أنا والمزرعة وجهاً لوجه لمدة ثلاثين سنة، كما واجهتِ أنتِ المرآة، كما شاهد رجالي أنفسهم منعكسين. لقد صعقت بالحجر والطوب اللبني والقرميد والبورسلان والخشب. إن البيت هو كل هذا، لكنه اكثر من هذا أيضاً: هل كان لكِ بيت تستطيعين اعتباره ملكِكِ عندما كنتِ فتاة، يا الغرينغاويتا؟ أو هل نظرتِ الى بيتٍ كان من الممكن أن يكون بيتكِ، أو كان بيتكِ على نحو ما، هل تدركين

Twitter: @ketab_n

ذلك؟، لكنه كان اكثر بُعداً من قصر في حكاية من حكايات الجان. ثمة بعض الأشياء تكون لكِ وليست لكِ؛ انها لكِ بشكل مؤلم لأنها ليست لكِ. هل تفهمين؟ ترين بيتاً آخر، وربما تفهمين ذلك البيت: ترين الأنوار تمضي وتنطلق مسرعةً من نافذة الى نافذة، ثم ترينها تومض ثم تخبو في الليل، وأنت في داخل البيت لكنكِ خارجه أيضاً، تشعرين بالغضب لأنكِ مُبعدة لكنكِ تحسين بالامتنان لأنكِ تستطيعين رؤية البيت، بينما هم، الآخرون، البقية، الكثيرون، الكثيرون، في الداخل، محبوسون، ولا يمكنهم أن يروا. عندها يصيرون هُم الـمُبعَدين، فتبتهجين أنتِ، يا الغرينغاويتا، تكونين فَرِحةً ويكون ثمة عيد في قلبكِ: يكون لكِ بيتان ويكون لهم بيت واحد.

أصدر أرّويو تنهيدة مروعة، هي أقرب ما تكون الى تأوه شخص رُكِلَ على قفاه، وكتمَ الانفجار اللاإرادي لانفعاله الداخلي الغاضب بصوتٍ يُصفي الحنجرة. بصقة خشنة لبلغمٍ كثيف في كوب مسكال. كانت تنهيدة بشعة واختبأتْ هارييت منها، لكنه أمسك بـذقنها بلطف.

«أنظري اليّ»، قال أرّويو، عارياً أمام هارييت، راكعاً عارياً بصدره البنّي الصلب وسرّته العميقة وتهيّجه الدائم. هذا ما اكتشفته هارييت. كان لأرويو شعر أسود ما رأت اكثر سواداً منه (وضحكت، مفكرةً بشعر ديلاني الضامر، المحمر، المتناثر الخفيف كشعر الدمى، الذي رأته مرةً واحدة فقط، عبر نصف انفتاحة مفاجئة، مثل بعض الأقزام الكئيبين في محلٍ للغسيل، لكنها شعرت في كثيرٍ من المرات، عندما طلب منها قائلاً، كوني امرأتي يا هارييت، برهني على حبكِ لي، قومي بما أودّ منكِ القيام به، أنتِ تعرفين، فليس من خطرٍ عليكِ، يا حبيبة قلبي، فقط يدك الناعمة الصغيرة، يا هارييت: ومن ثم تكون ملذاته الرّاعشة، الباردة والصغيرة). كان أرّويو مثل بخارٍ أملس ومائع من الجنس: هذا ما عناه اسمه، الجدول، البخار، الخليج الصغير: توم كريك (خليج صغير ـ المترجم)، توم بروك (الجدول ـ المترجم)، يا للاسم الانكليزي المناسب لرجلٍ مثل توماس أرّويو! ضحكت وإيّاه وهو يركع هناك في مواجهتها، غير مُتباهٍ برجولته الواضحة التي رأتها وتحسستها بتوقٍ وكآبة، مدركةً بأن لا شيء قابلٍ للادراك فيه، وبأن أرّويو، توم بروك خاصتها، كان خلاصة جواد الاستيلاد غير المُعقّد: لقد سمعت بأن الرجال أمثال رعاة المواشي، والذين يجزّون الخراف، وعمّال البناء يملكون الاستثارة على الدوام، وانهم ليسوا مُعقدين بالأفكار عن الجنس، وانهم يمارسونه بعاديّةٍ كسيرهم، وعطسهم، ونومهم، أو كأكلهم ـ أكان أرّويو هكذا؟ فكرتْ على هذا المنوال للحظات، ثم كرهت نفسها لمجاراتها له مرةً أخرى. كم هو من الأفضل بكثير التفكير بتأهب أرويو الدائم، أو نصف الدائم،

Twitter: @ketab_n

حقيقةً؛ شكراً للمخيلة المعقدة التي ما كان لها من وسيلة حقيقية لسبر غورها، ربما كان هكذا معها فقط، وليس مع نساء أُخريات؟

«هاربيت وينسلو»، اعترضت على نفسها بصمت. «إن الغرور لخطيئة. لا تكوني معشوقة سخيفة مفتونة في هذه الساعة المتأخرة. فأنتِ لا تقودين أحداً بقسوة، في المكسيك أو في واشنطن. هُسّ، أيتها الطفلة، هُسّ، يا آنسة هاربيت، اثبتي الآن».

لم تكن تخاطب نفسها حينذاك؛ لقد أخذها خيالها الى ذراعيّ عشيقة أبيها، المرأة السوداء النديّة في القصر الرطب الساكن حيث تحركت الأنوار صاعدةً وهابطةً الدرجات.

«أنظري اليّ»، عاد أرّويو ليكرر قوله، أنظري اليّ وأنا أواجهك (هذا ما كان يريد قوله، على أية حال، فكّرتْ؛ وحيدة تجلس الآن وتتذكر)، لستُ بقادر على الحراك بينما أواجهكِ، لأنكِ جميلة، ربما، لكن الجمال ليس هو السبب الوحيد للبقاء هكذا، متحجراً حيال شخص أو شيء: أفعى ـ كشرتْ ـ مثلاً، أو سراب في الصحراء؛ أو كابوس لا تستطيعين الافلات منه، يسقط للأبد في نفق النوم، يركض للأبد خارج نومكِ؛ لا، قال أرّيو، انكِ تفكرين بأشياء حزينة وبشعة، أيتها الغرينغا، انني أعني الجمال، أو الحب، أو لأنني تذكرت فجأةً مَن أنتِ أو انكِ جعلتني أتذكر مَن أنا، أو ربما اننا تذكرنا شخصاً ما كلٌ حسب طريقته لكننا ممتنون للشخص الذي نواجهه وجهاً لوجه لاستحضار تلك الذاكرة الحلوة الينا من جديد؛ نعم ـ رفعتْ راحة يدها ـ بإمكاني تصوّر أشياء كثيرة لم تكن هنا الليلة، أو تصوّر رغبة لم تكن لدينا أبداً، قال أرّويو، واضعاً راحة يده في مواجهة راحة يدها: راحة يدها الباردة والجافة، وراحة يده الدافئة والجافة كذلك، كلاهما راكع، وركبهما تمخّض(١) عالياً زَبَداً من الملاءات، والسرير مثل رغوة ساكنة تستطيع العودة الى الحياة ما إن يتحرك القطار من جديد، تسرع نحو صدامها التالي، المعركة، الحملة، أي شيء يأتي تالياً في حياة أرّويو. عندها سوف يجيش سرير عائلة ميراندا الذي كانا يركعان عليه معاً وبحب من تلقاء نفسه، غير منتبه الى الجسدين اللذين منحاه الآن ايقاعه الوحيد: بحرٌ من مَدّ وجَزْرٍ بطيء بارد والتماعات فجائية من الحرارة آتية من الأعماق غير المشكوك بها حيث يستطيع أحد الأخطبوطات أن يتحرك بخوفٍ غير محسوس وأن يتقمّع(٢) الى الأعلى غيومٌ من رمالٍ سوداء، باعثة الدفء في المياه بحمّى اللاحركة المتكشفة فجأةً، محطمةً مرايا البحر الساكن، مشظيةً سطح الحقيقة.

---

(١) من مخيض Churning. ـ المورد ـ.

(٢) يتقمع: يتخذ شكل قمع Funnel. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

أغلقَ كلٌ منهما قبضته فوق قبضة الآخر.

قال بأنه كان وكأنه مُسمَّر طوال ما يقرب من ثلاثين سنة، كطفل، وكولد، وكشاب، الى المزرعة. وبعدها كان هذا النشاط، لم يبدأه هو. انضمَ اليه ببساطة. ولقد فهم بأن هذا نشاطه هو، وكأنه قد تبنّى الثورة في خاصرة صحراء تشايهواهوا، أجل، يا الغرينغاويتا، هكذا بالضبط. لكن هذا لم يكن الشيء المهم. المهم هو أنه قد تحرك، أخيراً، هو وكل الآخرين، ينشطون، يجيشون، ويقومون وكأنهم من سُباتٍ مخدِّر ـ بطيئين، وبنيّين، وظامئين، وحيوانات جريحة، يقومون من سرير الصحراء، من تجويف الجبل، من قدم القرى العارية التي عضتها البراغيث، هل تكلمتْ مع لالونا، المرأة ذات الوجه القمرَي، التي جاءت من بلدة صغيرة في شمال المكسيك، هل عرفتْ؟ حسناً، لقد أثير في تلك الحركة، والآن، والآن ـ شدَّ يدها بيده ـ والآن سوف يقول ذلك لها فقط، لن يخبر لالونا أبداً، سوف تفهم لكنها ستشعر بأنه قد تمت خيانتها لأنهما كانا الاثنان مكسيكيين، والآن سيخبر الغرينغا، لأن باستطاعته الافصاح عن ذلك الشخص من أرض بعيدة بُعد وغرابة الولايات المتحدة، العالم الآخر، العالم الذي ليس هو المكسيك، عالم اليانكيين البعيد والفضولي، الشاذ والحدودي، الذي لا يستمتع بالطعام الطيب أو الثورة العنيفة أو بامرأة مُستَعبَدة، أو بالكنائس الجميلة، ويخالف كل التقاليد في سبيل المخالفة فقط، وكأن ثمة أشياء جيدة فقط في المستقبل وفي البِدَع؛ كان قادراً على إطلاع الغرينغا على هذا ليس فقط لكونها مختلفة وإنما لأنهم الآن، المكسيكيين، كانوا، للحظة فقط، ربما مثلها، ومثل الغرينغو العجوز، ومثلهم جميعاً، لا يستريحون، يتحركون، ناسين ولاءهم القديم لمكانٍ واحد ولفضاءٍ واحد ولمقبرة واحدة.

هذا ما سيقوله لها: «أيتها الغرينغا، لقد حُبِستُ من جديد».

«ماذا تعني؟» سألت، وقد أجفلت من هذا الرجل التي كانت كلماته دهشتها.

«أعني هذا. افهميني. حاولي. كنتُ مشلولاً عندما أواجه المزرعة، وكأنما كانت شبحي. وبعدها خرجت وتحركت. انني الآن مشلولٌ من جديد».

«ألأنكَ عدت الى هنا؟». حاولت أن تكون لطيفة.

«لا، لا، لا.» هزَّ رأسه بقوة. «أكثر من هذا، انني سجين ما أفعل مرةً أخرى. وكأنما ما كنتُ أتحرك من جديد».

كان محبوساً في مصير الثورة، حيث أصابته هي بالدهشة، هذا ما أراد أن يقوله. لا، كانت المسألة اكثر من انه عاد الى المزرعة. اكثر بكثير من هذا ـ أتاح لرأسه أن يسقط فوق

Twitter: @ketab_n

فخذيّ هارييت العاريين: كلنا لنا أحلاماً، لكن عندما تتحول أحلامنا الى قدرنا، هل علينا عندها أن نفرح لتحولها الى حقيقة؟

لم يعرف، ولا عرفت هي أيضاً. غير أن هارييت بدأت تفكر عندها بأن هذا الرجل قد يكون قادراً على القيام بما ينبغي ألاّ يقوم به أي كان: لقد عاد الى البيت من جديد، كان يحاول إحياء واحدة من أقدم أساطير البشر، العودة الى اللار(*)، إلى التراب، الى بيت منشأنا الدافىء.

هذا ما لا يمكن القيام به، حدَّثتْ نفسها، وليس لأن المكان لن يكون تماماً هو المكان فقط. حتى ولو كان نفسه فلا شيء قابلٌ لأن يبقى على ما كان عليه: فالناس يكبرون، والأشياء تتداعى، والمشاعر تتغير. لن يكون بمقدورك العودة الى البيت من جديد، حتى الى المكان نفسه والناس أنفسهم، وإن بقيَ المكان والناس بالصدفة، فإنهم ليسوا ذاتهم، لكنهم ببساطة هنـاك، في ماهياتهم. لاحظتْ بأن اللغة الانكليزية تستطيع أن تُصرّف من الأفعال نوعاً واحداً من الوجود ـ أن تكون. البيتُ ذاكرة. الذاكرة الحقيقية الوحيدة: فبيتنا هو من أجل الذاكرة. ومع هذا فهو الرغبة الحقيقية الوحيدة لقلوبنا: الإلتماس المشتعل لجناتنا الصغيرة المتقلقلة، المدفونة عميقاً في قلوبنا، المُغلقة على الفقر أو الثراء، على الدماثة أو القسوة. أهو شذرة متوقدة لا تدركها نفوسنا ولا تشع الاّ للطفل؟. سألتْ.

لا، أجاب بحدسية، فالطفل ليس سوى شاهد. لقد كنتُ شاهد المزرعة. ولأنني كنت الطفل غير الشرعي في جناح الخدم، فلقد أُجبرتُ على تخيّل ما اعتبروه هُـم تحصيل حاصل. كبرتُ وأنا أشمُّ، وأتنفس، وأسمع كل غرفةٍ، وكل زاوية في هذا البيت. كنت أستطيع أن أعرف دون أن أتحرك، ودون أن أفتح عيني، هل تسمعين أيتها الغرينغاويتا؟ كنتُ أستطيع التنفس مع المكان وأن أرى ما يفعله كل شخص في غرفة نومه، وفي حمّامه، وفي غرفة الطعام، لم يكن ثمة ما هو سرّي أو عام عليّ أنا الشاهد الصغير، يا هارييت، أنا الـذي رأيتهم جميعهم، وسمعتهم جميعهم، وتخيلتهم وشممتهم جميعهم وذلك ببسـاطة التنفس مع الايقاع الذي لم يملكوه لأنهم لم يحتاجوه، لقد اعتبروا كل شيء تحصيل حاصل، كان عليّ أن أتنفس في المزرعة، وأن أملأ رئتي بأصغر رقاقة دهان فيها، وأن اكون الشاهد الغائب لكل عملية جماع، تخيلية كانت أم مضجرة،
رقيقة كانت أم باردة، كنت الشاهد الغائب لكل عملية تبرز،
متصلبة بالذُرة التي لم تُهضَم، لقد سمعت كل ذلك ،

(*) اللار Lar: إله أو روح حارس (عند الرومان). ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

هل تسمعين، كل تجشؤ، كل بصقة، كل تبوّل، ورأيت الديوك الرومية المهزولة تُلوى أعناقها، والثيران تُخصَى، والماعز تُنتزع أحشاؤها وتُوضَع على النار، رأيت الزجاجات وهي تُسد بالفلّين ومعبّأة بنبيذ وديان تشايهواهوا المترجرج، القريبة جداً من الصحراء التي تذوقوها مثل نبيذ الصبّار، ثم تكون زجاجات الدواء غير مسدودة وبداخلها زيت الخروع للاسهال، وترتفع الحُمّى مهددة بالموت، والولادات وأمراض الأطفال، كنت أستطيع لمس المخمليات الحمراء والأورغنديات(١) البيضاء الداكنة والتفتاويات(٢) الخضراء للتنانير الفضفاضة وقلنسوات السيدات، ومشدّات مناماتهن الطويلة مع قلب المسيح المقدس وقد طُرّز عليها: الارتعاش، والصلوات الذليلة للقناديل النَذْرية(٣) التي تنزّ وشمعها البرتقالي اللون بهدوء وكأنما تجمدتْ في هزّة جماع أبدية مقدسة؛ وهي متعارضة، أيتها الغرينغا، مع ثريات القصر الفسيح الأنيق، والأرضيات الخشبية الباهظة والأجواخ الثقيلة والشرّابات الذهبية وساعات الجد الجدارية والكراسي ذات الأذرع والرؤوس وكراسي قاعة الطعام مخلعة الأوصال المغطسة بالدهان الذهبي ـ رأيت هذا كله، ثم جاء يوم أخذني فيه صديقي العجوز، أقدم رجل في المزرعة، رجل من الجائز أن يكون عجوزاً وعمره من عمر المزرعة نفسها، رجلٌ لم ينتعل حذاءً أبداً ولم يصدر صوتاً (كان اسمه غراسيانو، تذكرته الآن)، ارتدى قميصاً فلاحياً وبنطالاً أبيضين، كان رجلاً كجلدٍ غير مدبوغ، يلبس ثياباً رُقّعتْ مرات ومرات الى درجة بأت من المستحيل التمييز بين الرقع على ثيابه والتغضنات على جلده، وكأنما كان الجسد أيضاً قد رُقع آلاف المرات: كان غراسيانو بشعره القصير الخشن على رأسه وذقنه هو العجوز المُكلّف بتعبئة الساعات كل مساء، وذات ليلة جاء هذا الرجل وأخذني معه.

لم أسأله. أخذني من يدي، وعندما وصلنا الى الساعة في غرفة المعيشة حيث كانوا جميعاً يتناولون القهوة والبراندي بعد العشاء، ناولني غراسيانو مفاتيح البيت. كان الرجل الوحيد في جناح الخدم الذي إئتمنوه عليها. ثم أعطاها لي في تلك الليلة لأحملها ريثما يُعبّىء ساعة الجد الجدارية الكبيرة في ردهة غرفة المعيشة.

أيتها الغرينغا: لقد حملت تلك المفاتيح في يدي للحظة واحدة. كانت ساخنة وباردة، كأن المفاتيح تحدثت، هي أيضاً، عن حياة وموت الغُرف التي فتحتها.

---

(١) الأورغندي: ضرب من قماش الموصلين الرقيق الشفاف. ـ المورد ـ.

(٢) قماش التفتا. ـ المترجم ـ.

(٣) نَذْري: مُقدم وفاءً لنذر. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

حاولتُ تخيّل الغُرفَ التي ستفتحها المفاتيح الساخنة؛ وتلك التي تفتحها المفاتيح الباردة.

كانت لحظة واحدة فقط.

قبضتُ على المفاتيح كأنما أقبض على البيت برمته. كان البيت تحت سلطاني خلال تلك اللحظة. كانوا جميعاً تحت سلطاني. ولا بد انهم أحسّوا بذلك لأنهم (أنا واثق) توقفوا، لأول مرة في حياة أي شخص، عن ثرثرتهم وشرابهم وتدخينهم ونظروا صوب العجوز الذي يعبّيء الساعة، ثم رأتني سيدة جميلة ترتدي ثوباً أخضر وتقدمتْ نحوي، ركعتْ أمامي، وقالت: «كم هو جذّاب!».

لم تشارك بقية المجموعة اعجاب السيدة الصغيرة بجاذبية السنوات التسع لعمري. رأيتُ حركات تنمُّ عن التشاور، وسمعتُ أصواتاً منخفضة، ثم كان صمتٌ مُربك ما إن التفتتْ السيدة الصغيرة كأنها تريد مشاركة فرحها معهم، ولكنها قوبلت بنظراتٍ جليدية، ثم سألتْ بصمت «وما الذي فعلته الآن؟». كانت العروس الشابة لابن أبي الأكبر. كانت أم الأطفال، أبناء أخي، الذين أتيتِ لتعليمهم الانكليزية، أيتها الغرينغا. كان عليها، منذ ذلك الحين، قبل عشرين سنة، أن تفهم عادات عائلة ميراندا. نظرتُ، قابضاً على مفاتيح البيت.

عندها، عوى الرجل الذي كان أبي: «غراسيانو، خذْ تلك المفاتيح من الطفل المزعج».

مد العجوز يده مطالباً باستعادة هديته.

لقد فهمتُ دون(*)غراسيانو. أعطيته المفاتيح، جاعلاً إيّاه يعرف بأنني الآن وقد امتلكتُ المفاتيح في يدي، قد فهمت الآن بأنه قصد بهديته الرائعة هدفاً غير معروف. كانت المفاتيح ساخنة عندما أعدتها، لكن يدي كانت باردة.

وبعدها أخذني معه دون غراسيانو الى سريره المثبت بالحائط في جناح الخدم ثم جلس هناك ينظر نظرةً بعيدة لاحظتُ فيما بعد بأنها النظرة الكائنة في عيون المشارفين على الموت غير انهم لحظتها لا يعرفون ذلك. أحياناً، وعندما نراهم، نعرف قبلهم مَن سيموت، ومتى. ثمة بُعد في العينين، تحديقة باطنية تقول: «أنظرْ اليّ. اني سأموت. أنا لا أعرف ذلك بعد لكنني أدركُ هذا لأنني أنظرُ الى نفسي عبر نفسي، وليس من خارج نفسي. أنتَ يا مَن تراني من الخارج، قُلْ لي إن كنتُ على خطأ، وانظرْ هنا، يا رفيقي، لا تدعني أموت وحيداً».

(*) السيد. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

بالطبع، فإن دون غراسيانو لم يقل هذا، لكنه تحدثَ عن أشياء أخرى في تلك الليلة. قال، انني أتذكر (تذكرَ أرّويو)، بأن كثيراً من المرات أراد المالكون أن يمنحوه ثيابهم المدينية البالية، وذلك إجلالاً له وإظهاراً لتقديرهم. نصحني بأن لا أقبل أبداً بالأشياء المستعملة كهذه. قال لي بأن أرتدي ثياب عملي دائماً. قال ذلك تلك الليلة. تحدثَ عن الاحسان وكم هو يكرهه. تحدثَ عن الحديث، عن التحدث كما نتحدث نحن، وليس ترديد أحاديث المالكين كالببغاء. قال بأن عليّ ألاّ أفسّر أي شيء أبداً؛ فمن الأفضل أن نعاني الضرب بالسوط على أن نتشكى أو نفسّر. إن كان عليكَ أن تحيا، فمن الأفضل أن تفعل ذلك، دون أن تقول حتى هذا «لم أكن أقصد ذلك»، أو «انني متوعك». حملني قريباً اليه وكانت ضربات قلبه اكثر ضعفاً من ضربات قلب سحالي الصحراء الصغيرة التي كنتُ أمسكُ بها أحياناً وهي تفرُ هاربةً في زاوية متصدعة في جناح الخدم.

إن الاحسان، قال، هو عدو الكرامة ـ ليست هذه هي الكبرياء بل خطيئة، قال، فالكبرياء هي الكرامة ببساطة. الكبرياء ليست حقاً، قال، مفتشاً بيديه تحت اللفافة الصوفية المكورة التي استخدمها لاراحة رأسه عليها، إذ ان الكبرياء ليست حقاً. أما الكرامة فحق. ثم أخرج صندوقاً جميلاً عريضاً من خشب الورد، أيتها الغرينغا، كان مخبأً هناك في اللفافة المكورة ببراعة، قائلاً بأن الكرامة هي حق، وأن الحق هنا بالضبط في هذا الصندوق: كان قد أعطاني المفاتيح لكن كان عليه أن يستردها وإلاّ سوف يعرفون بأن شيئاً ما يُدبَّر. لكن ماذا كان يوجد في داخل هذا الصندوق الخشبي الذي سيتركه معي، طالما انهم لا يعرفون عنه ومن الواجب عليّ أن أعرف بالمقابل، طالما أنني كنت الوريث الشرعي لأملاك الميراندا.

أخذت الصندوق، مفعماً بالحيرة، غير مدرك أبداً لأي شيء، ولكنني كنتُ ممتلئاً بالرهبة مما كان يحدث لي هذا اليوم، ولكن مؤكداً لدون غراسيانو بأني سأصون ذلك الصندوق الصغير وكأنه حياتي.

أومأ برأسه مبتسمًا. «سوف يأتي أجدادنا الى قبري ويستقبلونني لأنني حفظتُ الأوراقَ بأمانة».

هذا كل ما قاله. لم يقل شيئاً آخر.

ثم أطلق تنهيدة عميقة وربَّتَ على رأسي وقال لي ان أذهب الى سريري وأن أجيء لأراه في اليوم التالي.

أقسمُ لكِ، يا هارييت، بأنه لم يقل «اننا سنتحدث غداً»؛ لم يقل «اعملْ على أن تأتي

Twitter: @ketab_n

غداً لنتمكن من أن نتحدث اكثر». هو بالتأكيد لم يقل «اسمع، يا توماسيتو، لسوف أموت وأريدك أن تكون هنا معي، لذا لا تخذلني غداً». لا، أيتها الغرينغا، هو لم يقل «اسمع، يا توماس، ابقَ معي، ابقَ الى جانب سريري هذه الليلة وراقبني وأنا أموت: أريدك أن تراني أموت؛ أنتَ مدينٌ لي بهذا لقاء أخذي لكَ الى داخل البيت وجعلك تراهم وجعلهم يرونك، وليس كما يحبون أن يظهروا، وسط الحشود المتجمهرة، أنتَ تعرف، انهم يفضّلون ألاّ يجعلوا أحداً يطّلع على ذلك، انهم ينظرون متجاوزينك، وكأنك لم تكن هناك، ولقد أردت أن أقول لهم: ها هو، لا تستطيعون النظر من خلال توماس أرّويو. إنه ليس هواءً، انه دم. انه لحم، وليس زجاجاً. انه ليس شفافاً. انه كتيم غير شفيف، يا أنتم يا مجموعة الزانين بأمهاتكم صعبي الارضاء، انه صلبٌ كأسمك جدار سجنٍ لا تحبونه لكم أبداً، أو أحبه لي، أو يحب هو أن يوضع فيه.

كان هذا وداع غراسيانو لسنيه الطويلة في مزرعة ميراندا.

وفي اليوم التالي وُجدَ ميتاً على سريره. شاهدته وهم يخرجونه ليدفنوه. «إنه غراسيانو»، قالوا. «مَن يا ترى سيعيء الساعات الآن».

كان عجوزاً هو أيضاً، يا هاربيت، مثل عجوزك الغرينغو. دُفِنَ هنا في الصحراء نفسها التي وجدها الجنرال الانديانى عندما جاء. لكنه عندما دُفن، كان جميع أسلافنا في الحشد، أنتِ تعرفين، الأباتشي والتوبوسوس واللاغينيروس الذين طافوا الأراضي حين لم يكن لها مالك، الذين قاموا بالصيد وقُتِلوا هناك، وكذلك الاسبانيون، الذين جاؤوا بجوع لمدن هذه الصحراء الذهبية، كما ظنوا، وهؤلاء الذين جاؤوا بالصليب من بعدهم، عندما وجدوا أن ليس ثمة ذهب، وأخيراً هؤلاء الذين جاؤوا ليستوطنوا الأرض مُدّعين الحق بها بأحذيتهم الفضّية المرززة(*) ومهاميزهم الحديدية، مستولين على الأرض من الهنود، الذين عادوا يطلقون النار ويسلبون ويسحقون حوافر الفحول حديثي الولادة فوق الصحراء، والذين قُتِلوا، أو شُحِنوا بالسفن الى السجون في الغابات الاستوائية حيث سيموتون من الحمّى المشؤومة، أو توجهوا الى الجبال، مرتقينها أعلى فأعلى كل مرة، حتى تلاشوا مثل الدخان الذي تشاهدينه أحياناً فوق قمة التاج للقمم الأكثر ارتفاعاً، ومع هذا كانت تلك تقدماتهم اليومية للموت الذي ندين به لأنفسنا وللآخرين كل يوم: عمود رمادي من سديم يغادر هذا العالم، قائلاً بأننا سعداء لانفصالنا عن شيء ما كل يوم، حتى وإن كان مجرد نفخة من سماءٍ غائمة، وذلك لأننا عندما نرحل للأبد نكون قد اعتدنا عليها، ولسوف نتبيّن أنفسنا

(*) أحذية مرززة Spikes: حذاء مزود بنتوءات معدنية في النعل لمنع الانزلاق. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

في موتنا الذي تقدمنا زمنياً، أيتها الغرينغويتا، هل ترين موتي على انه جزء من حياتي؟

لا، قالت، فالحياة شيء والموت شيء آخر: انهما متضادان، عدوان، وعلينا أن لا نضمهما الى بعضهما مخافةَ أن نتوقف عن حماية الحياة، التي هي هشّة زائلة يمكن أن تتوقف عن أن تكون في أية لحظة. آه، اذن فهي تحوي موتها الخاص، قال أرّويو منقضاً. لا، لا ـ هزّتْ هاريت خُصل شعرها المفكوكة ـ الحياة مُحاطة بأعدائها، الشيطان، الآخر. أسقطتْ نظرتها وأضافت: غير اننا نستطيع أن نُنقّذ بالأعمال الصالحة والحشمة الشخصية، التقشف ـ نظرتْ باستنكار الى زجاجة المسكل الموجودة في كل مكان، ثم وبّختْ نفسها لافتقارها الى الاحسان ـ والنعمة الالهية، دائمة الحضور، الممنوحة لنا لأنها وفيرة ولهذا فهو الرب. نظر أرّويو بقسوة لأنه لم يستطع أن يكتشف في عينيها قبل أن تنزلها ما يحوّل كلماتها الى حقيقة: كانتا مجرد قناعات، وهذا ليس بالشيء نفسه الذي تتحدث عنه، فهل عليه أن يحترم تلك القناعات؟.

«أتعرفين، أيتها الغرينغويتا؟ لقد عاش دون غراسيانو زمناً طويلاً جداً».

«أتمنّى أن يعيش العجوز الأميركي حصته من الزمن».

«حصته من الزمن!» تساءل أرّويو، ثم ضحك، موسداً رأسه على رابيتها. «دعيه يعش من السنين ما عاشه حتى الآن، دعيه يضاعف عمره، أيتها الغرينغويتا، وسترين كم سيكره حياته. سوف يكرهنا اذا ما ضَمِنّا له ذلك. لا، أيتها الغرينغا، نحن نموت لأن دروبنا تتقاطع. الصحراء كبيرة. وغراسيانو، دون غراسيانو، دُفِن فيها. لقد عاش هنا دائماً. جاء أجداده ليروه يهجع في الأرض. جاء الغرينغو العجوز الى هنا. لم يستدعه أحد. ليس له أجداد هنا. سيكون موتاً متوحداً. لن يزور قبره أحد. لن يكون لقبره اسم. قولي له أن يرحل بسرعة، أيتها الغرينغا. انه ليس واحداً منا. انه لا يؤمن بالثورة. انه يؤمن بالموت. انني أخافه، أيتها الغرينغا. ليس له أجداد في هذه الصحراء».

حدّثني عن أجدادك، طلبت ذلك، شاعرةً بأنه بعد الحميمية التي دامت للحظة، فإن الانفصال قد بدأ يدّب ويسري، ولقد أرادت للحميمية أن تطول قدر ما يمكن؛ لقد كانت متأكدة، إن لم يكن من ألفة أو عداوة الحياة والموت، بأنه، وفي الحياة ذاتها، فإن الانفصال هو القَدَر المشترك، ألّا نكون معاً؛ أن نكون منفصلين، قالت لأرّويو بلطف، بأن الانفصال هو الموت في الحياة، أليس هذا ما يعتقد به؟.

أجاب بالتقاطه لحكاياته، قائلاً بأن الرجال البيض أولاً، ثم الهجينين(*) الذين

(*) الهجينون Mestizos: أبناء ابوين أحدهما أوروبي والآخر هندي أحمر. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

سرعان ما احتلوا الأرض، قد عانوا هم أيضاً مثل الهنود؛ وفقدوا هم أيضاً ممتلكاتهم الصغيرة لصالح المزارع الكبيرة المتعدية، لقد تم استثمار الممتلكات الضخمة من خارج الحدود أو من مكسيكو سيتي، مسببةً تضخمات آنيّة لجميع هؤلاء الذين حازوا الأموال لشراء الأراضي بالمزاد العلني عندما انتزعت من رجال الدين؛ كما أن أصحاب الأراضي الصغار، مثلهم مثل أبناء قومه، قد تم تركهم في مواقع تاريخية حرجة. اذهبْ الى التلال، يا أرّويو الصغير، عشْ مع الهنود وكُنْ نفخةً من دخان، أو جُب الصحراء خلال النهار مثل سحلية، مختبئاً في ظلال شجيرات الصبّار، واضربْ في الليل كالذئب، راكضاً عبر الأوقيانوس الجاف، اليتيم، أو كُنْ عاملاً هنا في المزرعة: ربما تُعطى المفاتيح ثانيةً إن تصرفتَ بشكلٍ حسن، يمكنك تعبئة ساعات الحائط وأنت في عمرٍ متقدم، يا توماس، صُنْ كرامتك برفضك الثياب المستعملة. هل لكَ أن تمرر لي حبّات الفول؟

«عدتُ لأدّمر ذاك المصير، هل تفهمين؟». نظر نحو هارييت وتلاقت عيونهما تتفحصان بعضهما من أعلى الى أسفل، عيون غريبة زرقاء أبرزتها حواجب منتفخة مثل الجيوب، شوارب، نِكاتٌ متفرقة عن العانة، ومع هذا فإن نبرته ما زالت حادّة وحقودة الى حدّ انها لم تستطع أن تجد فيها ما هو ظريف: «عدتُ كي لا يكون لأحدٍ أبداً الخيار الذي كان لي في المكسيك».

فكّرتْ كم سيضحك الغرينغو العجوز على جزمٍ كهذا، ولماذا لم تكن تضحك، هي أيضاً، أو لم تعد غاضبة مثلما كانت في البداية، عندما التقيا ولم تناده بلقب جنرال؟ لماذا؟ فتشتْ في روحها وعثرت على حرارةٍ ذاوية هناك؛ لكنها كانت حرارة رمادٍ خامد، نارٌ ميتة، هي الأشد سخونة، ونارهم الأكثر مرونة. أكانت نار أرّويو أيضاً، أم كانت ـ أغلقتْ عينيها الآن بسرعة كي لا ترى خنزيري البحر هذين السابحين اللذين كانا عينيّ أرّويو ـ حقاً نارها هي، محفوظة من أجل نعمتها هي بعدما قام أرّويو بإضرامها، لكنها ليست ناره، لا، لحظته الوحيدة، هو الأداة لاحياء نارٍ كانت موجودة دائماً هناك لكنها كانت نارها هي، العائدة الى سقوط بيت هالستون، الى الأصياف التي لم تُرَ أبداً في منطقة ساوند ولم ترها أمها ووالدها وإمرأة والدها السوداء، نار عائدة الى كل هذا، نار كانت نارها ويريد الآن أن يعزوها لنفسه، بثقة متضخمة نكدة ومبالغ فيها بذكورته وبتكلفٍ فظّ. رأته الآن مرةً أخرى بأوضاعه غير المدروسة، التلقائية، مصارع ثيران وسط حلبة مهجورة في الليل، مُحاطاً برائحة الجثث الميتة، صادحاً(*) غير وهمي في واحدة من الأوبرات الايطالية التي رأتها برفقة

(*) الصادح Tenor: أعلى أصوات الرجال، أو المغني بهذا الصوت. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

أمها في المسرح الوطني، لكنها مجردة من الديكور الآن، من الأزياء، من الستائر الثقيلة المقصبة بخيوط الذهب: مغنياً عارياً، أوه، يكاد أن يكون طفلاً. . . قامت بما لم تقم به أبداً طوال حياتها، إنقضّتْ مثل عصفورٍ رقيق انما جائع عليه وكأنها الآن، بهذا الفعل، كانت في داخله هو، وكأنها، قبل ذلك، كانت مملوكة له والآن هو مملوكٌ لها: كان هذا هو الفرق، شعرت الآن بأنها قادرة على شطره إن رغبتْ بذلك، وقبل أن يكون قادراً على الرد مثل سيف وقطعها الى نصفين، قبل هذا كان من الممكن أن تكون ضحيته، والآن يمكن أن يكون ضحيتها هي؛ ولذا ها قد تأبى أرّويو رافضاً، اللعنة عليه، اللعنة على البشع، رفض لأنه أراد أن يشنقها، أن يخنقها، ، ساحقاً متنهداً، طاعناً، رافضاً أن يصرخ مثلما صرخ وهو مع المرأة ذات الوجه القمري، اللعنة عليه، رافضاً أن ينكمش وأن يُضرَب، رافضاً أن يعترف بأنه وهو في سعيرها إنما هو أسيرها، لكنه دافعاً إيّاها مرة أخرى لأن تشعر بأنها سوف تختنق أولاً قبل أن يستجيب ويدعها تتذوق النصر.

رفضته بصوتٍ وحشيّ، حلقيّ، أسوأ صوتٍ شعرت بأنه قد صدر عنها على الاطلاق، وصرختْ ماذا بك، ما الذي يجعلك هكذا، أيها اللعين، ما الذي يجعلك ترفض امرأة للحظة هي حُرَّة وكاملة القوة مثل تلك التي نلتها من قبل؟

ولهذا، لم تغفر هارييت وينسلو له أبداً.

Twitter: @ketab_n

يتهادى العجوز بمشيته في خطٍ مستقيم، يدمدم لنفسه قصصاً كان قد كتبها، قصصاً قاسية عن الحرب الأهلية الأميركية حيث مات فيها رجالٌ وعاشوا لأنهم مُنحوا وعياً متشظياً: لأن باستطاعة الرجل أن يكون ميتاً على الفور ـ متدلياً من أحد الجسور بحبلٍ حول رقبته ـ ومراقباً لموته من الجانب البعيد للجدول: (*) لأن باستطاعة الرجل أن يحلم بفارسٍ وأن يقتل أباه، كل هذا في اللحظة ذاتها.

ينثرُ الوعيُ المتجوّلُ والمتسلسلُ نفسَهُ مثل غبار الطلع في يومٍ ربيعي؛ والشيء الذي يكسره هو نفسه الذي ينقذه. لكن، ومع هذا الوعي المتشظي للكون، فإن سؤالاً واحداً يسافر معنا خلال الحياة، يسأل: ما هي الذريعة الأقوى للحب؟.

واصل الغرينغو العجوز دمدمته رغم سير هاربيت الى جانبه، غير مهتم إن كانت تسمعه أو تفهمه. إن وعينا المتشظي يلفّقُ حُباً، إن إقتضت الحاجة الى ذلك؛ يتخيله أو يدّعيه، لكنه لا يعيش خلواً منه، طالما ان الحب وسط التشتت المطلق يمنحنا مقياس خسارتنا، حتى وإن كان مجرد ذريعة.

يجيءُ الزمن لينكر حتى الذريعة؛ كان قد كتب: «عليكَ التخلي عن الرهان الكبير إن خسرتَ كثيراً، وعن أملك الأحمق في نجاحٍ نهائي، ومثابرتكَ، وحبّكَ للعبة».

نظر اليها، تسير الى جانبه الآن، تجاريه في مشيته فشخةً فشخة، قادرة على مجاراة خطوة الغرينغو الطويلة، الصموتة، بخلاف الأعقاب السريعة والمتقطعة والمتكتكة لأطفال العالم الاسباني. نظر اليها، الى هذه المرأة الذكية، الواثقة، الرشيقة ذات الاحدى والثلاثين سنة، والتي ذكّرته بابنته وبزوجته حين كانت شابة. كانت تتبعه عن قرب ليستطيع كلاهما

(*) مشهد في رواية الكاتب الأميركي أمبروس بيرس «حادثة غير متوقعة على جسر اول كريك». ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

مراقبة أرّويو الحيوي والفعّال في السهل البعيد المُغبَّر، وهو يخطب، وربما مدمراً ما كانت هاريت وينسلو قد شيدته بنعومة. كانت تتبعه عن قرب وفهمتْ أخيراً كلماته: لقد نالكِ وكأنكِ مجرد شيء؛ لقد تركتِ نفسكِ تُغتَصبين بواسطة الشهية الحيوانية لذاك الرجل؛ لقد أخذكِ لارضاء غطرسته وغروره، ليس اكثر.

«لا. انه لم ينلني. أنا الذي نلته».

توقف الغرينغو العجوز ونظر اليها لأول مرة بغضب. بدت عيناه المريرتان الزرقاوان حزينتين مثلما هي كلماته، لكن عينيه ناقضتا كلماته: كانتا متقدتين حقاً. «اذن أنتِ، يا هاريت، مَن كان وحيداً وجائعاً».

كان يعني: لم تكوني بحاجة لأن تكوني وحيدة، لأنكِ ومنذ أن التقيتُ بكِ كنتِ تحيين حياةً ثانية، كنتِ قد أُحببتِ دون أن تعرفي ذلك، في آلاف الشظايا لمشاعري وأحلامي. حتى في مرايا قاعة الرقص، التي دخلتيها بلا زهو كأنما الى حلمٍ منسّي، حتى هناك، ودون أن تعرفي، كنتِ تعيشين وتُحَبين.

«لا»، ردّت هاريت. «أنا لم أنله للسبب الذي تظنه، لأنني أعرف بأنني كنتُ قادرة على العثور على السلوان في مكانٍ آخر».

لم يطرف. لم تسمع أفكاره. لم تجفل التحديقة المريرة الزرقاء.

«اذن لماذا، بحق الاله، لماذا؟».

«قال بأنه كان مزمعاً على قتلكَ. قلتُ له أن بإمكانه أن ينالني إن كان ذلك سينقذ حياتك».

لم يستجب العجوز على الفور؛ استغرقه الأمر بضعة دقائق كي يتشرب كلماتها قبل أن ينفجر في الضحك، ضحكة جؤورة بدموع تسيل على وجهه، انعطفتْ كأنما تقوستْ بفعل الريح القلوية التي سرقت منه التنفس. وقفتْ تراقب، بغير فهم، مالئةً فضاء ضحكته بمزيد من التبرير، وفيض من الكلمات: قال أرّويو بأنه كان قادراً على قتلك في تلك الليلة، عندما لم تطعه ورفضتَ أن تقتل الكولونيل؛ قال بأن هذا سبب كافٍ؛ لقد تمردتَ عليه وهو رئيسكَ؛ لقد طالبتَ بالانضمام الى جيش أرّويو، هو لم يَدْعُكَ؛ لقد اعتقد بأنكَ كنتَ تحاول الفوز بثقته ولم يستطع أن يفهم لماذا تفضّل أن تثبت ذلك بقذف قطعة بيزو فضية في الهواء على أن تقتل كولونيلاً فدرالياً. قلتُ له: «تقول بأن الكولونيل مات مثل رجل شجاع. ألم يكن هذا كافياً؟». «لا»، قال لي. «كان باستطاعتي أيضاً أن أقول لكِ بأنّ العجوز ماتَ مثل جبان». «لماذا كان عليكَ أن تقول هذا؟».

Twitter: @ketab_n

«لأنني رأيته يقبّلكِ الليلة الماضية. لقد رأيته. رأيته معكِ في مخدعكِ، وفي وقتٍ آخر، ووقتٍ آخر. إن هذا ليس بالشيء اللطيف، أنا آسف. تعلمتُ أن أتلصص وأنا طفل. كان أبي مالك أراضٍ غنياً. تلصصتُ عليه بينما هو يشرب ويزني، غير عارفٍ بأن ابنه كان يراقبه، ينتظر اللحظة ليقتله. لكنني لم أقتله. لقد فرَّ أبي. وها الغرينغو الجريء يفلت الآن لأن كلينا يعرف بأنكِ لن تمارسي الحب أبداً مع قاتل».

«أقسمُ بأني اتخذتُ قراري بالمجيء الى المكسيك قبل أن يسجنوا السيد ديلاني بتهمة إختلاس فدرالية ـ».

«شيكٌ بمبلغ خمس وسبعين مليـون دولاراً؛ باسم خزينة الولايـات المتحدة، السيد ستانـ ـ».

«لا أريد أن يُلمَس الرئيس دياز بهذا المقدار مثل بتلة وردة؛ إن لـرئيسنا، الحميد هيرست، اهتمامات عديدة في المكسيـ ـ».

«هل كان معه أحد على الحصان؟» «نعم، أبي». «يا إلهي!».

«لم يعدْ أبداً من كوبا. فُقِدَ في المعركة. قبرٌ فارغ، يا الهيْ».

«لقد تلصصتُ عليه وهو يشرب ويزني. فرَّ مني. يا الهي».

توقف الغرينغو العجوز عن الضحك وطفق يسعل سعالاً عميقاً موجعاً.

«لقد تم خداعك منذ البداية»، قال ذلك بصعوبة، متسائلاً إن كان باستطاعتهما، الغرينغوين، وضع عواطفهما الحقيقية في النور، في النهاية، دون أن يقتلوها كما تذبل الورود عند لمسة الشمس والهواء حينما تُنقَل من الأركان المنعزلة المُظَللة حيث تنمو «في البداية، استقدمتكِ عائلة ميراندا الى هنا لتساعديهم في إبعاد الشك بهم والهروب بسهولةٍ اكبر. كان من الممكن أن ينجو كابيتيانيو(*) فرنسا بجلودهم لو أنهم فكروا باستخدام معلّمة ليلة فرارهم بالتحديد. لكن هذه ليست فارينّيس(١) يا هارييت. وها قد تم إقناعك بأنكِ ستنقذين حياتي عن طريق منحكِ جسدكِ للجنرال».

وعاد العجوز لينفجر في ضحكةٍ مريرة. «إن كانوا أغنياء أو فقراء، فان المكسيكيين ينالون الأفضل فينا دائماً. انهم يكرهوننا. نحن الغرينغويون. أعداؤهم الأبديون».

«أنا لا أفهم»، قالت هارييت، متأثرة وغير مصدّقة. «كان حقاً ينوي أن يقتلك»

«هل قال لماذا؟».

(*) Capetians: ملوك فرنسا من ٩٨٧ ـ ١٣٢٨. ـ الموسوعة ـ.

(١) مدينة فرنسية. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

«لأن رجلاً لا يخاف بمثابة خطر على رفاقه وعلى أعدائه. أظن أن هذا ما قاله. لأنه في بعض الأحيان ثمة شجاعة أسوأ من الخوف».

«لا. أريد السبب الحقيقي».

قصدَ أن يقول، ما هو سببها، سببها هي، متخيلاً إيّاها أسيرة ومُحَررة من قِبل ماضِيها هي، الماضي المحلوم به، أصياف مياه المدِّ الرطبة، الضوء في البيت القديم، والدها، المرأة السوداء، المصباح على طاولة أمها، الوحدة والسعادة عندما ذهب والدها بعيداً ولم يرجع أبداً، المُحب ذو الاثنين والأربعين عاماً الذي سأل، ألستِ سعيدة؟ أنتِ امرأتي المثالية.

«أنتَ على حق. لقد قال أيضاً بأنه كان يغار».

عاودَ العجوز السير، يفكرُّ ملياً بأحداث الساعة، لكنه توقف عندما قالت هاربيت هذا، ثم لملمها بين ذراعيه وضغط رأسها الى صدره.

«أوه، أيتها الطفلة، يا طفلتي المسكينة الجميلة»، قال الغرينغو العجوز، محارباً المشاعر التي شعر بها مذ أن أخبرته بأن أرّويو أراد أن يقتله وأنها منحت نفسها لتنقذه. «أوه، يا فتاتي الجميلة الصغيرة. أنتِ لم تنقذيني من أي شيء».

عندها، سأله الوعيُ المتجّولُ الذي كان خاتمَ خياله وسحره، إن لم يكن عبقريته: هل كنتَ تعرف بأنها كانت تبتدعكَ تماماً مثلما كنتَ تبتدعها؟ هل عرفتَ أيها العجوز، بأنها خلقتْ خطةً للحياة من أجلك، هل عرفت بأننا جميعاً مادةُ خيال الآخرين؟».

«ألا تفهمين؟ أريد أن أموت. لهذا جئتُ الى هنا. لأُقتل».

وبينما هي رابضة على صدر العجوز، شمَّتْ هاربيت العطر المنعش على قميصه؛ رفعتْ يداً مُحبّة وربتتْ على وجنتيّ العجوز العجفاوين النظيفتين ـ الحليقتين المتحررتين لأول مرة من الذقن البيضاء غير الحليقة عادةً. كان عجوزاً وسيماً. لقد أخافها، فجأةً، أن تلاحظ بأنه كان نظيفاً، حليقاً، مُعطراً، وكأنه يتهيأ لاحتفال عظيم. لكنها ذهلت على غير توقع بالهياج البعيد في القرية. كان أرّويو يخاطب الناس، متحركاً بسرعة وبتسلطٍ بينهم. كان الغرينغوان يرقبان من بعيد، لكنهما شاهداه بتفصيلٍ قريب: قاسٍ ولطيف، مُنصف وظالم، يقظ ومسترخ، ممتعض وواثق بنفسه، نشط وكسول، متواضع ومتغطرس: مثال الهندي اللاتيني. راقباه وقد وقفا متعانقين، مستغرقين في الروائح الغالبة والخِدع، متشكلين كصورةٍ ظّلية عكس الشمس الغاربة، بعيدين عن مدنهما وأنهارهما، خاضعين لشعور الالهام الذي يأتي «مثل وجه الله في الصحراء» مرةً أو مرتين في العُمر.

همس العجوز في أذنها بسرعة: «لن أقتل نفسي أبداً، لأن هكذا مات والدي وأنا لا

Twitter: @ketab_n

أريد أن أضاعف آلمه».

قال لها انه لا يملك الحق في أن يتشكى، وأقل من ذلك الحق في أن يبحث الآن عن الحنو حيث دنت منه المحنة. ليس له الحق لأنه هزأ من لا سعادة الآخرين؛ لقد أمضى حياته متهماً الناس لكونهم غير سعداء. لقد أحاط عائلته بكراهية مخالفة لهم.

«ربما أطفالي هُم البرهان على انني لم أكره الكون بأسره. لكنهم كرهوني، على أية حال».

أنصتتْ اليه، لكنها لم تقل سوى ان الحياة تستحق أن تُعاش وهذا ما سوف تثبته له؛ كان هناك طفلة في القرية، طفلة عمرها سنتان... لكن الغرينغو العجوز كان يضمّها مبتعداً بها، قائلاً بأنه عرف ذلك، وبأنه ما إن دخل المكسيك حتى تيقظتْ حواسه. بأنه شعرَ، بينما كان يقطع الجبال والصحراء، أنه يستطيع أن يسمع ويشمّ ويتذوق ويرى كما لم يفعل من قبل على الاطلاق، كأنه عادَ شاباً من جديد، وأفضل مما لو كان شاباً من جديد ـ ابتسمَ ـ عندما أعاقتْ قلة التجربة التشبيهات والمقارنات، وها هو الآن وقد شعر بنفسه متحرراً من غُرف التحرير الملوّثة والردهات المُضاءة بالمصابيح الصفراء، ومن الحانات المقززة حيث مات ابنه وركدتْ حياته في حين رفعَ جميع موتى كاليفورنيا كؤوسهم من الويسكي نخب الزلزال الوشيك المُسلَّط فوق الرؤوس والاختفاء الوشيك لألدورادو في البحر، للأبد، ونخب الحظ الجيد للجنس البشري: متحرراً من هيرست، متحرراً من قاتل أحد أبويه الشاب الذي يدور حول كاتب شهير مثل صقور المكسيك كلّية الوجود، ومخلّفاً هؤلاء الذين لم يروا فيه ذكرى عجوزٍ عاجز وإنما الأثر الضئيل لفارسٍ في الفضاء.

«أريد أن أكون جثة جميلة». ومضتْ العينان الزرقاوان.

«أن تكون غرينغوياً في المكسيك... آه، إن هذا لطلقة الرحمة».

الآن، هنا، بين الجبال نحاسية اللون والمساء الوامض، نصف الشفاف، وروائح التورتيللا والمَرَق الحار، وأصوات الغيتار البعيدة، وما إن ابتُلِعَ أرّويو في قفص مرايا قاعة الرقص التي جنّبها الدمار، كان باستطاعته أن يستمع وأن يتذوق وأن يشمّ بطبيعية فائقة تقريباً، مثل الرجل الذي شُنِقَ على جسر أول كريك، الذي استطاع لحظة موته أن يرى تعريقات كل ورقة شجر؛ لا بل أكثر: كل حشرة بالتحديد عليها؛ لا بل أكثر: الألوان اللماعة في كل قطرات الندى فوق مليون نصل ورقة شجر.

قال له وعيهُ المتسلسل، مقترباً من التوحد النهائي، بأن هذا هو التعويض الهائل على حالات الحب التي خسرها لأنه استحق أن يخسرها. ولقد عوّضته عنها المكسيك بحياة:

Twitter: @ketab_n

حياة حواسه المتيقظة من السبات باقترابه من الموت، جلال الطبيعة على أنه آخر مُتعة في حياته: هل ستفسد كل هذا بمنحه الجسد الذي كان مملوكاً لأرويو الليلة الماضية؟.

«كان لدي غرورٌ أخير»، قال الغرينغو العجوز مبتسماً. «أردتُ أن أُقتَل بواسطة بانشو فيللا نفسه. هذا ما قصدته عندما كتبتُ ملاحظةً وداعية لصديقة عزيزة، امرأة شاعرة، قائلاً: لن تريني مرة أخرى؛ قد تسمعين عني اني وقفتُ أمام جدارٍ مكسيكي حجري وأُطلق عليّ الرصاص حتى التمزق. إن هذا ليبز السقوط من على درجات القبو».

وقف ينظر في عينيّ هارييت الرماديتين. تركَ الدقيقة تمرّ بصمت، وبعمق، حتى يستطيعا أن يشعرا بها حتى الامتلاء.

«أخشى أن أقع في حبكِ»، قال لها، كأنما هذه الكلمات كانت أولى الكلمات التي تفوّه بها على الاطلاق. كانت الجواب النهائي على الحلم المجنون للفنان مترافقةً مع وعيٍ منشطر. كانت قد رأت الكتب في حقيبته المفتوحة. عرفت بأنه أحضر الـ كيشوت ولكن ليس لأنه أراد أن يقرأه قبل أن يموت. رأت الأوراق المخطوطة والأقلام الغليظة. ربما عرفت بأن لا شيء يُرى الى أن يسمّيه الكاتب. اللغة تسمح لنا بأن نرى. جميعنا عميان بلا الكلمة. قبّلها، قبّلها كعاشق، كرجل، ليس بحسّية أرّويو، وإنما بإشتهاءٍ مُشترَك.

«ألا تعرف بأنني أردتُ انقاذكَ لأنقذ أبي من موتٍ ثان؟»، سألتْ بتوكيدٍ عاجل تأتى من إدراكها الجديد. «ألا تعرف بأنني مع أرّويو أستطيع أن أكون مثل أبي، حرة، وحِسيّة، ولكنني بكَ أملكُ أباً، ألا تعرف هذا؟»

«نعم!» قال. «نعم!» مثلما قالت لأرويو عندما جعلها أرويو تشعر مثل بغيٍ ووجدتْ متعةً بالغة في أن تكون ما كانت تحتقره. حاول أن يجعل مسافةً بينهما، فقط ليتأكد من وجود دموع في هاتين العينين الجميلتين، لكنه عاد وشدّها الى صدره بسرعة، مبعداً نفسه عن عينيها، ليكون بمقدوره أن يقول ما كان عليه أن يقوله الآن، وانه اعتقدَ بأنه قد عرف كل شيء، وأن معرفة كل شيء هو أن تعرف بأن شيئاً ما يزال بحاجة لأن يُعرَف. كانت قد تغيرت للأبد، هذا ما قاله احتضانها له، دفؤها، التصاقُ هذه المرأة الجميلة التي من الممكن أن تكون زوجته أو ابنته لكنها لم تكن احداهن، وإنما ذاتها، في خاتمة المطاف. لقد كان الشاهد ذا الامتياز للحظة التي يتغير فيها المرء، رجلاً كان أم امرأة، للأبد، ويتشبث بقَدَرية باللحظة التي وُلِدَ أو ولدتْ فيها ومن ثم يتركها تذهب، دون إشفاق وإنما بحزن. لقد تغيرتْ للأبد؛ تغيرتْ ابنته في حضن ابنه ، وليس ثمة من شيء يستطيع أن يلفّقه، ليس من سخرية، ليس من إتهام، ليس من معجمٍ للشيطان، لا شيء

Twitter: @ketab_n

من هذا يمكن أن يمنع ذلك. كان قد تم ترك كل هذا للقبول بالتغير الذي اجتازته هارييت في حب أرّويو العنيف، والمطالبة بشيءٍ منها باسم الحب الذي لا يمكن أن يكون، الحب بين العجوز المُهيء نفسه للموت، والفتاة الشابة التي أتت حيّة: «والآن، أخبريني بالحقيقة، باسم أي شيء مقدس لديكِ؛ لا تدعيني أموت دون أن أسمع سرّكِ».

(وحيدة تجلس الآن وتتذكر. يا عاشقتي. يا ابنتي).

«حسناً. لم يمت أبي في الحملة. لقد مَلّ الحياة معنا وبقي في كوبا ليعيش مع زنجية. لكننا أخبرنا الجميع بأنه مات وأخذنا نتقاضى معاش التقاعد ليتسنى لنا أن نعيش. كتبَ لي بالسر، طالباً مني أن أتفهم. ما الذي كان بمقدوري أن أفهمه حين لم اكن أعرف كيف أشعر؟ هو لم يقل ذلك، لكننا قتلناه، أنا وأمي، ليتسنى لنا أن نعيش. أسوأ ما في الأمر هو انني لم أعرف أبداً إن كانت قد عرفت ما عرفته أم انها تسلمت الشيك الشهري بإيمانٍ حقيقي. ها اني أقولُ لكَ، لم أكن أريد أن أفهم، أردتُ أن أشعر...».

من أجل إعادة الجلد والحُس والحركة الى الحياة، ومن أجل جعلهم شيئاً واحداً. لم يفهمها أحد. هل فهمها؟ هزَّ العجوز رأسه. أقسمتْ بأنها عرفتها مَن هو، الاّ أنها لن تخبر أحداً على الاطلاق. ستكون هذه طريقتها في حبّه منذ الآن.

«سوف أنسى اسمك الحقيقي».

«شكراً لكِ»، قال الغرينغو العجوز ببساطة، وأضاف بأنه أسِفَ لمجيئها لكي تمنحَ حياةً وبدلاً من ذلك عليها أن تبقى لتشهدَ على موت.

«تقصد، رغم انني جئتُ لأعُلّم، كنتُ أنا التي تَعَلمتْ»، قالت، ماسحةً عينيها وأنفها بكامل كُمّها، وتابعة الغرينغو العجوز الآن، مؤمنة منذ هذه اللحظة بأنها عذراءه الطاهرة، مقدّسة تلك الدقائق حين نجحا بتوحيد وعييهما المنشطرين ـ الواحد في الآخر ـ، قبل التبدد النهائي الذي شعرا بأنه قريب: الوقت، المكسيك، الحرب، الذكرى، الجَسَد نفسه، كل هذا منحهم المزيد من الوقت الذي كان مسموحاً به لأغلبية الرجال والنساء.

«ربما»، قال العجوز. «كلنا نحاول أن نكون فاضلين. إنه ماضينا الطبيعي».

«انكَ تريد مني أن أقول لكَ بأنني لم أذهب الى الفراش مع أرّويو لأنقذ حياتك وأشعر بالفضيلة، ولكن لأنني أردتُ جسده، وهذا ما استمتعتُ به».

«نعم، أود أن تقولي هذا. رغم أن ماضينا الطبيعي الآخر يقتضي منا قول الحقيقة، الاّ اننا لا نستطيع الابقاء على سر. ان هذا، أيضاً، لكي نشعر بالفضيلة، طبعاً، إن واشنطن، عندما كان ولَدَاً، لم يستطع أن ينكر انه قطع شجرة الكرز. أعتقد بأن خواريز الشاب كان قادراً على اخفاء انه خطط لنيل ابنة رئيسه المُفضَلة.

Twitter: @ketab_n

«لقد أحببتُ ذلك»، قالت هاربيت، غير واعية لما كان يقوله.

قالت بأنها أحبت الطريقة التي أحبَ بها (سمع ذلك وعزا بهجتها الى نفسه، الى جسده العجوز)؛ أرادته أن يعرف. «أريدكَ أن تعرف كذلك بأن توماس أرّويو لم يكن يملك الحق في جسدي ولهذا سأجعله يدفع ثمن ذلك».

نظرت هاربيت الى الغرينغو العجوز تماماً مثلما أراد هو أن يُنظَر اليه قبل أن يموت. شعر بأن نظرتها أكملتْ سياق خياله المتشظي عن هاربيت وينسلو الذي بدأ في إنعكاسات المرايا في قاعة الرقص الذي ما كان الآ مُستَهل الطريق للحلم، ثم ترذذتْ الى ألف لحظة حُلمية والتأمتْ الآن في الكلمات التي قالت للغرينغو العجوز بأن هاربيت لن تسمح بشهادة حيّة على حسّيتها، وبأنها تمنح العجوز الحق في أن يحلم بها، أما أرّويو فلا.

Twitter: @ketab_n

أدارت المرأة ذات الوجه القمري آلة الفونوغراف، ووضعت خلسةً الابرة على الأسطوانة الدوارة. خرج من مكبّر الصوت الذي على هيئة قَرنٍ مسنود ذي لونٍ أبيض داكن (فكرّت هاربيت) ومُزَّين بتجسيم كلب أسود وأبيض صغير ينصت الى صوت سيده،(١) الصوت المُهدِّىء ولكن ذي الصرير لنورا باييس وهي تغني «على ضوء القمر الفضّي».

على ضوء ضوء ضوء القـ . . .

فكّرتْ هاربيت بنهر الواباش وبقية أنهر شمال أميركا البطيئة، ثم أبت أن تنظر عبر نوافذ القطار الساكن الى الصحراء المكسيكية.

لم تقلْ المرأة ذلك، لكن صوتها الهامس جعلها تفهم بأن الموسيقى الصارّة إنما قُصِدَ منها كبت كلماتها: كانت هذه المرأة دائمة الخوف من أن يسمعها الرجال، فكرتْ هاربيت بازدراءٍ مُعيّن.

قرع جرس كنيسة المزرعة الصفيحي.

قالت المرأة التي تُدعى لالونا بأنه كان من الغريب سماع قرع جرس دون اكتشاف سبب قرعه. هكذا عرفتْ بأن الثورة وصلت الى بلدتها الريفية الصغيرة في دورانغو: بدأت الأجراس تقرع في وقتٍ لم يكن بإمكان أحد أن يقول بأنها صلاة المساء أو صلاة منتصف الليل أو أية صلاة أخرى. كأنما كان زمناً جديداً، قالت، زمناً ليس بإمكاننا تخيّله، وعندها فكرّت في عاديّة زمننا، ارتباطنا جيلاً بعد جيل بالمواسم التقليدية، والساعات التقليدية، وحتى بالدقائق التقليدية؛ كانت قد أُنشِأَتْ حسب ذاك النمط، بريئة، ليست غنية جداً ولكنها مكتفية الى حدّ معقول يفي بتربيتها. أبوها تاجر حبوب، وزوجها مُرابٍ في البلدة

(١) ماركة فونوغرافات واسطوانات كانت رائجة حتى الأربعينات والخمسينات. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

الصغيرة ذاتها حيث عليكِ أن تنهضي، طفلةً كنتِ أم امرأة، في الخامسة ليتسنى لكِ أن ترتدي ثيابكِ بينما ما تزال الظلمة مخيمة (كان هذا في غاية الأهمية، ألاّ ترين جسدكِ على الاطلاق)، ثم أن تكوني في الكنيسة في السادسة صباحاً وتمشي عائدةً، وأنتِ تحسين بالجوع حتى وإن كنتِ قد ابتلعتِ جسدَ المسيح(*) (سر القربان المقدس الذي بعثَ الحيوية في ذكرياتها، السر الذي عذّب مخيلتها: جسدٌ في قطعة خبز، جسدُ رجلٍ وُلِدَ من امرأة لم تعرف جسد رجل أبداً، أنتِ تعرفين، يا آنسة وينسلو، نحن نتحدث بموارية فظيعة هنا، تَمَّ تعليمنا كفتيات على أن لا نقول كلمة سيقان، رغم انني أمشي على هاتين الساقين، أن لا نقول أبداً كلمة أرداف، لكنني على هذه أجلس ـ ضحكتْ بخفوت، الى حدٍّ بدتْ كأنها تنهدت؛ جسد رجلٍ كان هو الرب، جسد رجل شاركَ الوهيته مع رجلين آخرين؛ تخيلتهما كرجلين: رجل آخر ملتحٍ، عجوز وجبّار، يجلس على عرش، هو في الوقت نفسه الشاب الذي سُمِّرَ على الصليب؛ ورجلٍ ثالثٍ، طيفيّ، رجل دائم الشباب، ساحر قال انه روح، ومقدّس إذ وصل الى هذا الحد، والذيُ كان بالتأكيد مسؤولاً في خيالها الطفولي عن كل التحولات الأخرى: واحدٌ في ثلاثة، ثلاثة في واحد، واحد في العذراء، ومن ثم خارج العذراء ذاتها، ثم مات، ثم بُعِثَ حيّاً وافترضَتْ عودته الى ثلاثة دون أن يتوقف عن أن يكون واحداً ومن ثم ثلاثة ـ في ـ واحد في رقاقة القربان(*)، عدة، عدة ملايين من قطع الخبز الصغيرة كلها تحتوي عليه، ويقوم الساحر بالكثير، روح العالم الطيفيّ). باتت الكنيسة شبحاً، كما باتَ كذلك منزلي، كما باتَ مصيري؛ كنا جميعنا أشباحاً نطوف بالتناوب ـ الفطور، ثم الدروس، فيما كان يُعرَف بالتدبير المنزلي، ثم الغذاء، ثم عمل الكعك، ثم الصلوات، ثم العشاء، ثم عزف قصير على البيانو، ثم خلع الثياب في العتمة والدخول في الفراش: مثل طفلة، وستقولين بأن هذا لم يكن سيئاً. لكن عندما ارتبطتْ حياةُ رجل بحياة عروسٍ طفلة، يا آنسة هارييت، عندها تحولت هذه الحياة الى ظلام، الى تكرار، مثلما هي الأشياء عندما تصل الى نقطة الثبات ولا تزهر حياةً من جديد من تلك الحيوات التي كانت من قبل، قبل الرجل، الأب، الزوج؛ تكونين هناك لتري أنكِ ظللتِ عروساً طفلة، وبأن الزواج كان احتفال خوف: الخوف من أن تُعاقبي لأنكِ لم تعودي بنتاً صغيرة؛ ومع هذا يأخذكِ هذا الرجل، يا سنيوريتا، ويعاقبكِ بذكورته كونكِ لن تكوني بنتاً صغيرة بعد الآن، لخيانتكِ له بواسطة دمكِ الجنسي وشعركِ ، وأنا التي سرعان ما

(*) المقصود: تناول القربان المقدس الدّال على جسد المسيح. ـ المترجم ـ.

(*) القربان عبارة عن رقاقة مستديرة من الخبز كناية عن جسد المسيح، مغمسة بالنبيذ الذي هو كناية عن دمه «كلوا هذا جسدي. اشربوا هذا دمي». ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

أثبتُ على اني عاقر كنتُ لهذا السبب اكثر سوءاً ـ لم يكن ثمة عُذر لتفاصيل جسدي الحميمة، لإثارتي، لثديي الخاليين من الحليب. كساني بمنامةٍ طويلة خشنة غليظة وبها شق طولي، وكان القلب المقدس قد طُرِز هناك بخيطٍ سميك، أحمر فضّي، رمز متجمد لأنوثتي الدنسة، وهو الآن مقدس في هذه المواجهة العمياء معه كزوج: فعل سريع، تنهيدة ثقيلة، وبعض الثواني،..... ما كنتُ لأحصل على أية متعة، ولقد رفضتُ أن أحصل عليها، معه أو دونه؛ لقد خنتُ جميع تعاليمي وعانيتُ نفسي مرات قليلة أمام المرآة، لكنني لم أعد لأفعل ذلك ثانيةً، ليس لأنني أغريتُ بترك أصابعي تتجول في أنحاء جسدي، ولكن لأنني بدأت أرى نفسي في تلك المرآة كطفلة بدائية، كحيزبون حمقاء تغمغم بهذيان طفولي، كامرأة خفيفة العقل منهارة تغني أغاني أطفال فاحشة وتؤذي في تخيلاتها لحمي الذابل مثل الخوخ ـ أجراس، صلاة منتصف الليل، صلاة المساء، اعترافات، عشاءات ربّانية، عيد العذراء، Mea Culpas، عقائد، دخان كثيف مقدس في الكنيسة وخارجها، عِظات دينية، خوفٌ من جهنم، حبٌ للمسيح، حبٌ للمسيح الرجل، حبٌ للمسيح الرجل العاري على صليبه، في نعشه، المسيح الطفل الحبيب يلعب عارياً على ركبتيّ أمه المرتجفتين. توقفت الحياة جامدةً وكان لزوجي، كل ظهيرة سبت، محاسبوه المستقبلون للعمال في البلدة، التجّار والحِرَفيون بقبعاتهم البنيّة اللبادية وقمصانهم الخالية من القَبة وصدرياتهم، وكذلك البائعون المتجولون الأكثر فقراً، وبائعو الشموع، وبائعو السكاكر، وبائعو المكانس، وقليل من النسوة الملتفات بشالاتهن الخافية لوجوههن، وصفوف تطول من أيدي عمال الحقول الذين لم يلتحقوا بأية مزرعة والذين كانوا جميعهم يدينون لزوجي بالمال: صفٌ طويل من الرجال والنساء يتمعج في شارع مسطح، مُغبّر، وقائظ ليوم سبتٍ، شارعُ بيوتٍ واطئة مغلقة النوافذ، بيوت غَلّقتْ نفسها بنفسها، لأقفال تطوّقُ كل رواقِ عرباتٍ كبير مثل أحزمة العِفّة، يا سنيوريتا، بيوتٌ سجنتْ نفسها، والشرفات الواطئة المتدلية المُخرَمة مثل أقفاصٍ على وجوه البيوت ـ مثل خطوم الكلاب، يا سنيوريتا، أميغا(١)، يا صديقة، هل لي أن أناديكِ بهذا اللقب؟.

(١) صديقة بالاسبانية. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

رأيتهم في بعض الأحيان وحاولتُ أن ألتقي بعيونهم عندما كنت أسير خارجةً للاعتراف في ظهيرة أيام الآحاد، لكنني ذات يوم مررتُ برجلٍ مثير للرهبة. كان عاملاً كادحاً ذليلاً يرتدي ملابس بيضاء وسومبريرو(١) ممسوكاً بها بين يدين قويتين، لكن وجهه، لاحظتُ ذلك، كان جديداً؛ لم يكن أيما ذل فيه: كان فيه كبرياء مخيفة، نظر اليّ مركزاً على عينيّ وقال لي عند هذا بالضبط بتحديقته ما أردت أن أسمعه على وجه الاحتمال (أكملتْ لالونا: «أنا فقير ومُكبَّل بالديون. أنت غنية ومكبلة بافتقارك للحب. دعيني أحبك في ليلةٍ ما»)؛ تلك كانت الكبرياء الضارية، الدائمة لعينيه، التكشيرة الظريفة المداعبة، المتحدية لأسنانه الباسمة البيضاء، أناقة شاربه الكبير الأسود، شعر رأسه الأشعث، غير الهامد، والمتغطرس. لم أستطع مساعدة نفسي، يا سنيوريتا. كل ما تعلمته قال لي بأن لا أقوم بما قمت به. كان عليّ أن أحني رأسي وأمضي الى الكنيسة، وأن أتلو الصلاة مستعينة بالمسبحة التي بين يدي. ولكنني بدلاً من ذلك، توقفت.

«ما اسمكَ؟»، كان هذا ما استطعت أن أسأله لذاك الرجل الذي بدا رأسه ضخماً جداً بالنسبة لجسمه القصير القوي.

فُتحَتْ مصاريع كل البيوت فجأةً، كانت وجوه جميع البيوت مرئيّة على حين غرّة في ظلال تلك المداخل.

«دوروتيو»، أجاب. «دوروتيو أرانغو».

هززتُ رأسي ومشيت. وصلت الكنيسة. ركعتُ في زاوية الاعتراف، بتواضع، مثل أي امرأة محجوبة بالقاطع المُخَرم عن يدي الكاهن، ولكن ليس عن تنفسه. اعترفتُ بقائمة آثامي العاديّة العَرَضية. هزَّ رأسه. «أنتِ تنسين شيئاً».

«ما هو، يا أبتي؟».

«لقد وقفتِ لتحدّثي رجالاً غرباء في الشارع. عمّال أرض. رجالاً يدينون لزوجكِ بالمال. ماذا يعني هذا يا ابنتي؟ انني أخشى عليكِ!».

عندما عدتُ الى منزلي كان صف الناس قد اختفى، والمصاريع قد أُغلِقتْ.

في اليوم التالي، في الكنيسة، ألقى متلقي اعترافاتي موعظةً عن المحبة. إستشهدَ بالقديس بطرس حول المسيح عندما طردَ المرابين من الهيكل. ومع هذا فلقد أكّد لنا على أن غضب المسيح المقدس كان دفاعاً عن الهيكل، وليس عدم محبة تجاه التجّار. لقد غفر المسيحُ لهم، إذ ان صوته كان المحبة الأبدية للجميع.

---

(١) القبعة المكسيكية العريضة. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

في تلك الليلة، وعلى العشاء، قلتُ لزوجي ولعائلته، التي تجتمع عادةً معنا، بأنني فكرتُ بما قاله الكاهن في القدّاس وتساءلت عمّا اذا كانت المحبة تعني غفران الديون أيضاً.

وقعت الكلمة مثل شريحة جليدٍ مطقطقة على الطاولة.

الديون، كررتُ القول. غفران الديون. وليس الآثام فقط.

أُمرت بالانسحاب عن المائدة دون عشاء: كنتُ دائماً بنتاً صغيرة، هل ترين ذلك، يا سنيوريتا، أميغا، هل لي أن أناديكِ بيا صديقتي؟.

عندما صعد الى غرفتي لم أكن خائفة، لأنني عرفتُ ماذا عليّ أن أقول.

أنا أحبكَ حسب طريقتي. استمعْ اليّ، قلتُ له، من أجل صالحك.

أنتِ غير محتشمة، قاطعني، تقولين أشياء بذيئة على المائدة، تقومين بأشياء بذيئة في الشارع، تتوقفين لمكالمة رجالٍ مجهولين، رجالٍ وضيعين، كيف تجرؤين على هذا، أيتها البغي الغبية الصغيرة؟.

نظرتُ اليه مباشرةً، كما نظر اليّ الرجل الذي يُدعى دوروتيو، وقلتُ له: عليكَ أن تخاف. كان عليكَ أن تنظر الى عينيّ الرجل كما فعلت أنا. عليكَ أن تخاف. هؤلاء الرجال مختلفون. لقد تحملوا ما استطاعوا تحمله. والآن سوف ينظرون اليكَ مباشرةً، في عينيك، وعندها يأخذون حياتك. حاذرْ.

ضربني وقال لي بأنه سيرسلني الى القبو إن أسأت التصرف مرة أخرى.

ماذا كان يوجد في القبو؟

لم أكن قد ذهبت الى هناك قط.

لكن في الليلة التالية، يوم الاثنين، شرعتْ أصوات الهدير والهرير تجيء في كل الأوقات من أسفل داخل البيت، وكأنما حدث الأمر ببساطة عبر ايراد ذكر ذاك القبو حيث هددني بارسالي اليه كعقاب، إذ حشده بالرعب، والأصوات، والأشباح، والوحوش، والأصوات الطنانة، وبأدوات ـ أرهفتُ سمعي، حاولتُ أن أميّز مصدر الصوت، ولادة التناغم الذي ربما يكون قد وصل الى أُذنيّ بعد ترشحه عبر آلاف الطبقات من الطوب والخشب، اللَبِن وورق الجدران، المسامير والملاط، نعم، وحتى اكثر من هذا: سواتر جميع مَن كانوا في ذلك المنزل، أنا، زوجي، العائلة، الرجال والنساء المنتظرين في الخارج في ظهيرات أيام السبت، دمدماتهم الصامتة وتكهناتهم: هل سأُقرَض بعض المال، هل عليّ أن أسدد ديني، هل سيكون ثمة عفو، هل سيكون ثمة عفو، هل سيكون ثمة عفو؟

أخبريني، سنيوريتا، يا صديقتي (هل لي أن أناديكِ هكذا؟)، كيف كان لي أن أميّز

Twitter: @ketab_n

المصدر الحقيقي للأصوات من خلال الطبقات الكثيرة جداً للوجود وغير الوجود والحقد واليأس والخوف من نسياني لطفولتي والخوف من عدم إمتلاكي لشيء سوى طفولتي، الخوف من أن لا أكون امرأة حقيقية أبداً، الخوف من أن أموت، كما قلت، ذابلة وذليلة، أن أهلك على غير طائل، مثل إجاصة تُرِكَتْ لتتعفن في مقبرة؟

أكانت الدمدمات الآتية من القبو هي الخارجة من بيانو تعزفُ برقة قطعة الفالس المفضّلة لديّ، **سوبري لاس أولاس**، مرةً تلو مرة تلو مرة؟

لا، زعقَ زوجي عندما اختنقتْ الدمدمات الآتية من أسفل داخل المنزل بالدمدمات الآتية من الشوارع، انها صرخات المسجونين، سوف نقتل جميع الأوغاد الذين امتشقوا السلاح، كل واحد من الفئران القذرة، لكنني سأجيء بهم أولاً الى هنا الى قبوي لأسلخهم وهم أحياء، فئران، انهم هكذا، ما هُم عليه دائماً، قال، وارتعشَ فنجان شايه فوق الصحن؛ حسناً، لن تكون مسألة كلام وحسب الآن، سوف يُسلَخون ـ وطبعَ أرضية خشب الأرز بجزمتيه الصغيرتين ذات الأزرار الملفوفتين بطماق الكاحل(١) الذي بلون الخشف(٢) ـ سوف يُسلَخون، سوف يُقَشَّرون بكل معنى الكلمة مثل موزٍ متفسخ، مثل تفاحات نخرتها الديدان، مثل إجاصات متعفنة في مقبرة. ها! تساءلَ، وسقطَ فنجان الشاي على طماقي كاحليه ولطخهما ـ إذا لم يصطفوا كل سبت ويدفعوا ديونهم، فانهم سيصطفون كل أيام الأسبوع ويُجلَدون حتى الموت؛ وهذه هي الأصوات التي ستسمعينها من القبو، يا عزيزتي، قال وهو ينحني ليمسح طماقيّ كاحليه: **ها أنتِ تعرفين الآن**.

«ولكن قبل الآن؟» تجرأت لأسأل. «قبل هذا، ماذا كانت الدمدمات هناك في الأسفل؟».

«كيف تجرؤين على سؤالي!» صرخَ، ونهضَ، مهدداً إيّاي، وفي تلك اللحظة بالتحديد، أقسمُ لكِ، **يا أميغاي**، يا صديقتي، شرعتْ الأجراس تقرع بلا أي سبب على الاطلاق، لم تكن هناك صلاة الفجر، لم تكن هناك صلاة المساء، لم تكن هناك ساعة عرفتها في وقتها، ثم حدثَ إنفجارٌ حطَّمَ مدخل رواق عرباتنا ودخل علينا الرجال بألفعتهم الملطخة وأحزمة الرصاص المتصالبة على صدورهم الضخمة، مفتتين ظهر فنجان الشاي الرقيق، وأشار أحدهم على زوجي ـ «ها هو، ها هو مصّاص الدماء!» ـ وكان الرجل الذي رأيته في الصف يوم السبت ذاك منذ زمن بعيد، الرجل بالكبرياء المخيفة في عينيه، الرجل الذي قال

---

(١) طماق الكاحل: وقاء للجزء الاعلى من الحذاء محيط بالكاحل. ـ المورد ـ.

(٢) الخشف: ولد الظبي. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

لي بلا كلمات: «أنا فقير ومكبَّل بالديون. أنتِ غنية ومكبّلة بافتقارك للحب. دعيني أحبكِ في ليلةٍ ما» ـ كان ذاك الرجل في غرفة معيشتي الآن.

عرفتــه.

كنتُ قد رأيتُ وجهه مرات ومرات، في ملصقات المطلوبين المثبتة بالدبابيس على لوحة الملاحظات في الكنيسة، الى جانب الدعوات لاقامة التاسوعيات(٣) من أجل أرواح الذين في المطهر(٤)، أو التذكير بعيد القـديس أنتوني: كـان دوروتيو أرانغـو، كُتِبَ على المصقات، سارق مواشي، وكان الآن في قاعة إستقبالي. لم يكن ينظر إليّ حتى وإنما يقول بعنف: «خذوا مصّاص الدماء الى الزريبة وأطلقوا النار عليه بسرعة. ليس لدينا متسع من الوقت. الفدراليون يتعقبوننا الآن».

ثم توقفت الأجراس عن القرع وأصدرت البنادق في الزريبة أصواتاً خشنة، ممزقةً الظهيرة وكأنها كانت قطعة كتّان، ثم تُركتُ وحيدةً في قاعة الاستقبال وأُغمي عليّ.

عندما عدتُ الى الوعي ـ يا صديقتي، سنيوريتا وينسلو، هل لي أن... ؟ لم يكن من أحد هناك. كان ثمة صمت فظيع يحيطُ بي. لقد ذهبوا، ولم أردْ أن أذهب الى الزريبة خلف البيت لأرى ما عرفت بوجوده هناك.

ثم جاء الفدراليون وسألوا عمّا جرى. كنتُ مخدرة. لم أعرف. ربما قُتِـلَ زوجي. دوروتيو أرانغو...

«بانشوفيللا»، قالوا، مصححين ما قلت. لم أفهم ذلك الاسم وقتذاك.

«لقد ذهبوا الآن»، قلت ببساطة.

«اننا نسحقهم، لا تقلقي»، قالوا.

«لستُ قلقة».

«أأنتِ متأكدة من انهم ذهبوا؟».

هززتُ رأسي موافقة.

لكنني في تلك الليلة، وما زلتُ رافضة أن أخرج الى الزريبة لأرى ماذا سيكون هناك، سمعتُ دمدمات في القبو، الاّ انها مختلفة الآن. أقصد، كانت الأصوات القديمة هناك، لكن الآن ثمة ما هو اكثر، دمدمة جديدة هي التي أستطيع سماعها، موسيقى تنفس مختلف عن اللهاث المُقلِق الذي جعله زوجي مصدر خوفي (هديته الأهم للخوف الذي منحه لي

(٣) التاسوعيات: عبادة تستمر تسعة ايام. ـ المورد ـ.

(٤) المطهر: موطن تُطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذابٍ محدود الأجل. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

باسم الزواج، على انه المرادف للزواج: كان الزواج خوفا، هذا ما كان عليّ أن أتعلمه وأن أقبله منه، والاّ فليس هناك من حقيقة لرباطنا، هل تفهمين): لم أخرج وأدفنه. لم أعرف عدد الأجساد التي كانت ملقاة حولي، الموتى الثوار ـ ليسوا ضحايا، رفضتُ أن أدعوهم هكذا، مجرد موتى، إذ متى سنعرف، يا سنيوريتا، يا أميغاي، مَن كان على حق ومَن كان على غير حق؟ لستُ أنا. ليس وقتذاك. ليس الآن. وبعثَ فيّ ذلك الصوت الجديد خوفاً جديداً: ربما في قبو منزلنا (أسميته منزلنا الآن فقط بعد أن مات زوجي بكل تأكيد) كان الآن ما هو أفضل، كنز، نعم (إن أوهام طفولتي، يا سنيوريتا هاريت، تشارف على نهايتها)، لكنني عرفت بأنه يجب عليّ الاحتفاظ بها بعيداً عن درب الموت الذي صار درب زوجي.

لم أعرف ماذا أفعل في الليلة الأولى بعدما حدث كل هذا.

حلمتُ بزوجي انه لم يمت، وإنما هو مختبيء بين الدجاج في القِّن الشبكي، وانه رجعَ اليّ تلك الليلة، فاتحاً أبواب غرفة النوم في اللحظة التي صرختُ فيها بذعر: كان ما يزال حياً، لكنه كان معجوناً بالدم.

ثم حلمتُ بأن كائناً من يكون مختبئاً في القبو فإن الفدراليين سوف يأخذونه مني عندما يعودون. إن هذا، ولسبب معين غامض، لم أحتمله.

وفي صباح اليوم التالي، ذهبتُ مبكرة جداً الى الزريبة.

لم أنظر الى الأرض، لكنني سمعت الذباب الطنّان.

فلعتُ ألواحَ القِّن، رفعتها الى أعلى، حملتها أو دفعتها أو جررتها على أفضل نحوٍ أستطيعه الى أعلى درجات القبو.

أدّى عدم اعتيادي على العمل الى تمزق ثوبي الطويل الأسود، وجرح يديّ اللتين لم تقوما بغير خبز الكعك وتحريك حَبَّات المسبحة ولمس الحلمة المتوحدة.

كنتُ راكعة على ركبتيّ لأول مرة في حياتي من أجل شيء غير الصلاة.

كنتُ أتعرق، ثم تنقعتُ بعطورٍ بعثتْ رائحة ما كنتُ لأعرف انها موجودة فيّ، يا آنسة وينسلو.

كنتُ متألمة ومكدومة وجريحة إذ كانت المسامير ناغلة في الألواح المغطية للمدخل المؤدي الى القبو.

أردتُ حماية ما كان موجوداً هناك.

أو ربما فعلتُ ما كان عليّ أن أفعله اذا ما قررتُ منحَ زوجي دفناً مسيحياً.

كانت الأفعال متشابهة، لكن جسمه لم يكن حاضراً.

تركتُ جسدي يستريح على ألواح الخشب الغليظة الخشنة وقلتُ لنفسي: «انتِ

Twitter: @ketab_n

تشمّين جسداً آخر. انكِ تشاركين نَفَساً آخر. إن القبو لا يخفي الرعب الذي قال عنه زوجك».

اذن ماذا كان هناك في الأسفل؟

أردتُ تمييز الأشياء التي طفقتُ أشتهيها خلال تلك الافاقة الطويلة عن تلك التي طفقتُ اكرهها. اذا لم يكن زوجي مدفوناً هناك في الأسفل، اذن ثمة ما كان عائداً له كان هناك بالتأكيد، ثمة ما هو مُنتن، عَفِن، غازيّ، مُشعر، غائطي، دهن الشِواء وكريه: استطعتُ شمّه. واستطعت شمّ شيء آخر، شيء أردته.

ثم قُرِعت الأجراس ثانيةً وعرفتُ بأن الفدراليين قد رحلوا وأن رجال فيللا قد استعادوا البلدة. لكن ربما كنتُ مخطئة وأن الأجراس التي لم تعنِ شيئاً عَنتْ شيئاً آخر. لم يكن العالم ليغيّر حقائقه من أجلي فقط.

حُسِمَتْ شكوكي برصاصة مسدس عالية الصوت جاءت من القبو، تبعتها رصاصة ثانية، ومن ثم ساد الصمت.

كانت هذه المرة الثانية التي أسمع فيها الرصاص داخل منزلي، لكنني لم أكن خائفة هذه المرة.

شلعتُ ألواح الخشب بيديّ، إذ عرفت بأن عليّ أن أحرر الرجل الذي أطلقَ الرصاصتين. عرفتُ بأن عليّ أن أنتزع وأفتح أبواب القبو بصعوبة وأرى الكلبين مُمددين ميتين هناك أولاً: الكلبان فقط. لا شيء اكثر.

ثم أراه يأتي خارجاً بشفتيه نظيفتين.

«كانا مجرد كلبين». كانت هذه كلماته الأولى لي، يا سنيوريتا، **يا أميغاي**، هل لي ان أناديكِ صديقتي الآن؟ هل تفهمين، يا آنسة وينسلو؟

Twitter: @ketab_n

عندها رأت هاريت وينسلو الجنرال توماس أرّويو يرجع الى عربة القطار، رأسه ينحني على نحوٍ غير طبيعي وكأنه يتفحص عقبيّ جزمتيه الـمُغبرين، غير بادٍ عليه انه لاحظ العجوز وقد حرر هاريت من بين ذراعيه قائلا: «كتبت في احدى المرات شيئاً في غاية الطرافة. كانت الأحداث توائمُ نفسها منذ بدء الخليقة بحيث يمكن أن أموت هنا».

ومضتْ عيناه حينما تكلم. غمغمَ بأنه جاء الى هنا ليقُتل لأنه كان عاجزاً عن قتل نفسه بنفسه. شعرَ بالحرية ما إن عبر الحدود عند خواريز، وكأنما قام بالسير في عالم مختلف. وهو الآن متأكد من هذا: كلٌ منا يملك حدوداً سرية في داخله، وان عبور هذه الحدود هو الأشد صعوبة لأن كلاً منا يأمل في أن يجد نفسه وحيداً هناك، لكنه لا يجد سوى انه في صحبة الآخرين اكثر من أي وقتٍ مضى.

توقف عن الكلام للحظة ثم أضاف: «إن هذا غير متوقع. إنه مروّع. إنه مؤلم، وانه جيدٌ كذلك».

حكّ خدّيه النظيفين الحليقين بإيماءة استسلامٍ رجولي وسأل، قبل ان يترك هاريت: «كيف أبدو الليلة؟».

لم تجب بكلمة. قالتْ له هزة رأسها بأنه كان عجوزاً وسيماً.

قال أرّويو لرجاله: «احترموا الغرينغو. إن المسألة بيني وبينه».

كل ما تذكرته هاريت هو دخول الغرينغو العجوز عربة الجنرال أرّويو الخاصة، وذاك الذي كتبه حول الوعي المتشظي، وكانت تحاول ان تفهم بأن أرّويو، وهو المغاير لغموض الغرينغويين، قد اقترب من احدى شظايا وعي هاريت في داخل ذهنه، هذا الجنرال الذي كان حكيماً وشجاعاً لأنه لم يَفهم شيئاً عن العالم خارج أرضه، هذا الرجل المتفاخر

Twitter: @ketab_n

والمتغطرس الذي لعب بمعتقدات قومه وطالب بقانون الوعاء الكبير لخير العالم: رأت هذا بوضوح في ضوء الصحراء، الأثنان يموتان، الصحراء والضوء، وانما ليس الجنرال: الزعيم المكسيكي، الاسباني، المتبوع بحاشية من الخدم، والزبائن، والمرافقين، والمتملقين والمرتزقة، رجلٌ قام باخضاعها لمسِّه وكان شاهداً على حِسِّيتها، كان حاضراً في الصدام السري بين روحها وبين استجابات جسدها، رجلٌ رأى اللحظة حينما تغيّرت هاريت وينسلو للابد ـ التي كان ينبغي أن تنشأ غنيةً في نيويورك لكنها نشأت متكلفة السمو في واشنطن بواسطة راتب تقاعد وغيابات شتّى، وهناك في داخل العربة كان الشاهد الآخر على تحولها، الرجل الذي جاء ليُقتَل، مهندس الطوبوغرافيا العجوز في فرقة متطوعي انديانا الذي عرف قيمة الأوراق، الأوراق التي منحتْ الشرعية لمطلب الجنرال أرّويو: المحصول والأخذ بالثأر والشبق والفخر والقبول الجزئي من قبل أنداده: قفز وعي هاريت وينسلو المتشظي عبر الفراغ الى داخل ذهن الجنرال توماس أرّويو، الذي كان مثلها، بلا أب، كلاهما كان ميتاً أو غافلاً عما هو كائن، أو عما هو مثل الموت، كلاهما كان غافلاً عن طفليهما، هاريت وتوماس: انه الموتُ دائماً في خاتمة المطاف والغفلة عنْ الأشياء، ودائماً هو قطعة اللاوجود الصامتة وعديمة الحِّس وهو اللاوعي.

كان أرّويو الآن يرتقي درجات عربة القطار ـ وكانت تركضُ باتجاهه، صارخةً، قف! قف! وركضتْ المرأة ذات الوجه القمري من طرف العربة الآخر وكانت تجاهد لتحضنها حينما سمعتا اطلاقات الرصاص، مصحوبةً بالأصوات المغرغرة لغيظ أرّويو، ولكن ليس من صوتٍ من جهة العجوز الذي نجح في الخروج مترنحاً على المنصة والأوراق المحترقة في يديه، وكان أرّويو خلفه، مستمراً باطلاق النار، باهتياج غيظ لم ترَ مثله هاريت وينسلو من قبل أو لم تتوقع ان تراه ثانية على الاطلاق، اذ بينما كان أرّويو شاهداً على حسِّيتها، كانت هي شاهدة على الموت. كان أرّويو واقفاً وباحدى يديه مسدس يصعد منه الدخان، وباليد الأخرى صندوقٌ طويل مسطّح وخاو من خشب الورد المتشقق.

كانت قد زعقتْ على أرّويو ليوقفه: كانت تفكر، لقد عرفا بممارستهما للحب مع بعضهما من كانا، وقام كل منهما بوداع أبٍ غائب، ولكنهما قاما أيضاً بوداع شبابهما: عن وعيٍ من ناحيتها؛ وبحدسية صرفة من ناحيته؛ وتوسلته باسم شبابهما الضائع ان لا يقتل الأب الوحيد المعروف لكليهما.

كانت صرخة لذتها الأولى معه؛ بينما صرخ هو لأول مرة مع المرأة ذات الوجه القمري، بعد عيشه الطويل في صمت المزرعة المفروض على عبيدها.

Twitter: @ketab_n

سقط الغرينغو العجوز ميتاً، وأرادت هاربيت وينسلو ان تصدّق بأنه مات وهو يتساءل، كما تساءلت الآن، إن كانت الشمس ستخرج الليلة، لأن الشمس، وليس الظلمة، ستكون رعبها من الآن فصاعداً (وحيدة تجلس الآن وتتذكر). سقط الغرينغو العجوز ميتاً وكانت الأرض وحيدةً للأبد وسط البحر، وكانت الصحراء وحيدةً للابد وسط الأرض: سقط ميتاً فوق محيط الأرض الفريد؛ سقط الغرينغو العجوز ميتاً وتحولت الكلمات الى رماد؛ سقط الغرينغو العجوز ميتاً وسيكون على رفاقه ان يتكلموا الآن لأن الأوراق بتاريخها لن تعود لتتكلم نيابةً عنهم. سوف يقولون: لقد عملنا في هذه الأرض لآلاف السنين قبل أن يأتي المسّاحون والمحامون والجيش ليقولوا لنا، هذه الأرض ليست لكم، لقد بيعت هذه الأرض، لكن إبقوا هنا على أية حال، عيشوا هنا واخدموا المالكين الجُدد، لأنكم ان لم تفعلوا ذلك، فستموتون جوعاً. مات الغرينغو العجوز وراحت الكلمات التي على الورق تطير عبر الصحراء قائلةً، نحن نحب ان نقاتل، نشعر بالموت اذا لم نكن نقاتل، صلّوا لله ان لا تنتهي هذه الثورة، لكن اذا انتهت، فلسوف نقاتل في ثورة جديدة، نقاتل حتى نهوي في قبورنا. سقط الغرينغو العجوز ميتاً؛ وراحت الكلمات المسفوعة تطير بعيداً وراء المزرعة والقرية والكنيسة، قائلةً، نحن لم نعرف أحداً خارج هذه المنطقة، نحن لم نعرف ان هناك عالماً خارج حقول ذُرتنا، الآن نحن نعرف أقواماً من جميع الجهات، نغني أغانينا معاً، نحلم أحلامنا معاً ونتجادل فيما اذا كنا اكثر سعادة ونحن معزولون في قُرانا أم الآن، نحوّمُ في كل مكان، مُصابين بالدوار جرّاء الكثير من الأحلام والكثير من الأغاني المختلفة. سقط الغرينغو العجوز ميتاً وتناثرت أغنيةُ الكلمات المسفوعة عبر الصحراء المسكونة بأشباح البحيرات والأنهر والمحيطات: كلها لنا الآن لأننا أخذناها، الفتيات، والثياب، والنقود، والخيول؛ كل ما نريده هو ان نستمر هكذا الى ان نموت. كان الغرينغو العجوز قد مات، تَغَربل(*) ظهرهُ بثقوب الرصاص وتبددت الكلمات بالريح القلوية التي لن يتنفسها بعد الآن، أصمَّ للأبد عن سماع الكلمات التي تقول، كنا نُضرَب إن لم نقف استعداداً للعمل في الساعة الرابعة صباحاً حتى غروب الشمس، نُضرَب إذا ما سمعونا نمارس الحب، المرتان الوحيدتان اللتان نجونا فيهما من الضرب كانتا حين كنا أطفالاً نبكي، أو عجائز نموت. عندما مات الغرينغو العجوز، سقط بوجهه في الغبار، وتقدمت الجبالُ خطوةً لتكون أقرب، وبحثت الغيوم الواطئة عن مراياها في الأرض، رائيةً الى صورتها في الكلمات الناريّة: كان السيد الأسوأ هو الذي قال بأنه يحبنا كأب، محقراً إيّانا

(*) من غربال . ـ المترجم ـ .

Twitter: @ketab_n

يختفقه، معاملاً لنا كأننا أطفال، كأننا حمقى، كأننا متوحشون؛ ولم نكن أيّاً من هؤلاء؛ عرفنا بتفكيرنا بأننا لم نكن أياً من هؤلاء. عندما عضّ الغرينغو العجوز على الغبار في المكسيك، سقط المطر فوق الصحراء كأنما ليثبّت كلاً من الدم والغبار، ونقّعتْ الأمطار الغزيرة كفَنَ الأرض لكي تستحيل الكلمات المسفوعة مثل الماء، قائلةً، كانت الاشياء بعيدة جداً، أما الآن فانها قريبة ونحن لا نعرف ان كان ذلك حسناً أم سيئاً؛ ان جميع الاشياء الآن قريبة جداً الى حد يمكننا أن نلمسها، ونحن خائفون: أهذه هي الثورة؟ عندما ذهب الغرينغو العجوز الى الأبد، بدت الجبال مثلَ رمالٍ متحجرة وكانت السماء تحتضر تحت مطرٍ من الكلمات التي قالت بأن كل شيء كان بعيداً لكن بانشو فيللا قريب، وانه مثلنا، وكّلنا فيللا!

عندما مات الغرينغو العجوز لم تجرؤ الحياة على أن تتوقف.

كانت هاربيت وينسلو والغرينغو العجوز قد راقباه مبكراً، وهو على مرمى السمع، يخطبُ، ويُقنعُ، ويضعُ ذراعيه حول اكتاف رجاله يقرص خدَّ تلك المرأة، قائلاً بأنهم ليسوا بحاجةٍ لدروسٍ ولجان، ان ما يحتاجون اليه انما هي القنابل للحرب والحب للسلام، البنادق الرشاشة في النهار والقبلات في الليل، أين يمكن للرجل أن يثبت نفسه؟ في المعركة أو في الفراش، وليس في بعض الانتخابات، صرخَ فوق نهيق الحمير ذات الخطوم المرغية: أن الثورة عائلة واحدة كبيرة، جميعنا نمضي معاً، الأمر المهم بالنسبة لنا هو أن نمضي متقدمين معاً، انني أعتمد على فيللا كأبٍ لي وانني أعتمد عليكم كعائلة لي، كل ما عدا ذلك يمكن أن ينتظر، ما عدا كسب هذه الحرب. مسح على جسد طفلٍ عارٍ وصفعَ عجيزته مداعباً، وراقباه من بعيد، متخيلين بأنه يملأ آذانهم بـ، لقد جعلتُ المرأة الغرينغا تتلوى، لكن هذا ليس مهماً، لا شيء مهم سوى امتلاك الأرض، كل شيء سوى ذلك يمتلكنا، وانه لأمر سيء أن تمضي في الحياة وأنت تفكر بما تملكه وخائف من ان تفقده، بدلاً من أن تعيش كرجل وتموت بشرف وكرامة.

لكن الغرينغو العجوز كان ميتاً الآن، وكان المطر قد توقف وتعبأت الصحراء برائحة نبات الكريوسوت المبلول، وكان الجنرال توماس أرّوبو يخاطب عائلته الكبيرة، الصامتة، حافية الأقدام: أنظروا، انظروا الى ما إدّخرته لكم، قاعة الرقص، الأماكن الخاصة التي كانت لهم فقط: أنا لم ألمس تلك القاعة، حرقتُ كل البقية، حرقتُ صورة عبوديتكم، ومخزنهم حيث كان يمكن ان يظل أطفال أطفالنا يملكون القميص التحتاني على ظهورهم،

Twitter: @ketab_n

لقد حرقتُ ذلك، الإسطبلات حيث اكلت الخيول أفضل مما اكلنا، والثكنات حيث قام الجنود الفدراليون بمراقبتنا منها طوال اليوم، ينكشون أسنانهم ويشحذون حِرابهم، هل تتذكرون كل ذلك؟ قاعات الطعام حيث التخموا انفسهم، وغُرف النوم المملوءة بغطيط نومهم، الماء الملوَّث، المراحيض الجماعية المقرفة، الكلاب المسعورة التي أراها وأخافها في أحلامي، يا الهي، لقد دمرتُ كل ذلك من أجلكم، ما عدا تلك البناية التي، ان نجونا وظللنا أحياء، سوف تؤول اليكم. قاعةُ رقصٍ من المرايا.

«أمضيتُ طفولتي أتلصص. لم يعرفني أحد. عرفتهم جميعاً من أماكن اختبائي. كل ذلك لأنني اكتشفت ذات يوم قاعة رقص المرايا واكتشفتُ ان لي وجهاً وجسماً. كنت أستطيع أن أرى نفسي. توماس أرّويو. من أجلكِ يا روزاريو، يا ريميديوس، يا مسيح، يا بنجامين، يا خوزيه، يا الكولونيل غارسيا، يا تشينتشو مانسالفو، حتى من أجلكِ أنتِ، يا لاغاردونيا، باسم البراغيث ومضاجع النوم القشّية، باسم...».

كان كل واحد منهم يراقبه الآن بنوعٍ من الخوف، خائفون على أنفسهم وخائفون عليه. كانوا يراقبون قائدهم، يراقبون حاميهم، يراقبونه بحزن. راقبه بدريتو، بدريتو، الذي كان ولَداً في الحادية عشرة من عمره عام ١٩١٤ ومعه قطعة بيزو فضيّة مثقوبة في جيب قميصه، قطعة بيزو قام باستعادتها في الكنيسة من بين أقدام المؤمنين: أنظروا في هذه المرآة وسوف ترون أنفسكم.

«أنا لستُ أفضل من أي واحد منكم، يا أطفالي، لكنني أنا الذي حفظتُ الأوراق. كان على أحد ما أن يحفظها. ان الأوراق هي البرهان الوحيد الذي بحوزتنا والتي تثبت بأن هذه الأراضي لنا. إنها وصية أسلافنا. نحن مثل الأيتام دون الأوراق. انني أقاتل، أنتم تقاتلون، كل واحد منكم يقاتل من أجل أن تُحترم هذه الأوراق. حياتنا... أرواحنا...».

«لن أفهمك على الإطلاق»، كانت هارييت قد قالت.

وكان المطر الآن قد توقف، وكان الغرينغو العجوز الذي طلب منهم احترامه مُمدداً ميتاً تحت قوس قزح مندلق عبر الغَسَق. تمرأتْ الصحراء لنفسها، تآكلت عند باطن البحر القديم، الرمل الخشن للشاطىء العظيم الذي خلّفته المياه وراءها، والجنرال توماس أ رّويو، الذي لم يتكلم كثيراً لأنه كان محتفظاً بالأوراق، كان عليه الآن ان يتكلم باسم الأوراق التي احترقت. تعتمد الذاكرة الآن على قائدهم، لكنها تعتمد أيضاً عليهم. غير ان

Twitter: @ketab_n

المرأة ذات الوجه القمري عرفت بأن توماس أرّويو لم يكن رجل كلمات لكنه الرجل الذي احتفظ بالكلمات.

لهذا قالت، في غاية الهدوء، مخاطبةً الاميركية المرتعشة: «عندما يتكلم كثيراً، فإن أمراً ما سيقع له. الصمتُ هو صديقه الأفضل».

كانت القوات نفسها هي التي أنهت كلمات قائدها بسرعة، كانوا يموجون فوق تيّار أصواتهم، متعجلين إيّاه للتحرك، قائلين له بأنه على حق، وبأنهم قادرون على العيش على الرغم منه. «آن لنا ان نتحرك. آن لنا ان نترك المرايا خلفنا، أيها الجنرال. سوف تسوء الأمور وتنقلب علينا اذا لم ننضمّ الى فيللا. قد نكون لواءً عائماً، لكننا لن نستطيع الوصول بمفردنا الى مكسيكو سيتي.

«ان مصيري يخصّني أنا»، قال أرّويو، عندما كان بمفرده.

«ماذا ستفعل له الغرينغا؟» سألت المرأة ذات الوجه القمري لاغاردوينا في الساعة التي يهمس فيها المرء بالسرّ لئلا يوقظ الأرض: ماذا ستفعل ضد رجلي؟

لكن لاغاردوينا قوقأت وقالت بصوتٍ مرتفع، غير عأبئة باستكانة العالم، بأن الأوراق والمرايا لا تساوي ويلسون wilson(*) واحد في نظرها، كما قال كل واحد في قوات فيللا.

«ما الذي يهمكِ؟» سألت المرأة ذات الوجه القمري.

وتذكرت لاغاردونيا بأنها كانت وحيدة وبريئة في قريتها في دورانغو، ومُحافَظٌ عليها بواسطة طهارة عمّتها جوزيفا أرّيولا، عندما مرّت أول قوات ثورية وخرجتْ الى الشارع، مُستَثارة، ورأتْ ولداً وسيماً، لكنه ولَدٌ ذو موتٍ مكتوب في عينيه، الولد الذي لفت نظرها، الولد الذي تحركَ وبدا انه يدعوها اليه كي لا يكون بمفرده. شعرت بنوع من الحزن ولكن بدفء لذيذ أيضاً، شيء كالشفقة، ولم تعد أبداً الى البيت لكنها ظلتْ الى جانب الولد، الذي كان أباً لابنتها الى أن قتلته رصاصة في معركة لا أسيسيون. وهكذا تحولت الى بغي، قالت.

(*) قد يكون المعني وودرو ويلسون رئيس الولايات المتحدة، أو هنري ويلسون سفيرها لدى المكسيك خلال الثورة. راجع ثبت الشخصيات. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

«إن مصيري، على الأقل، يخصّني أنا»، قال الجنرال توماس أرّويو محدّثاً نفسه مرات عديدة في أحلامه القلقة ليلة أن قتل الغرينغو العجوز ثم أمطرت في الصحراء وراحت الأوراق المحترقة تصرخ في الريح.

Twitter: @ketab_n

دخلَ بانشو فيللا بلدة كامارغو ممتطياً حصانه ذات صباحٍ ربيعي مشرق: كان رأسه النحاسي الصلب متوجاً بقبعة كبيرة مطرزة بالذهب، قبعة ملطّخة بالغبار والدم، ليست بقبعة فاخرة انما هي أداةُ قوة ورمز للنضال، مثلما هما يداه العريضتان ذواتا الجلد المتصلب وركاباه البرونزيان اللذان صقلتهما ريحُ الجبال. مظهرٌ جَمَّلَه تقادمُ العمر من البارود، والشوك، والصخور، ورائحة الصنوبر للسهول اللانهائية المبهرة وقد التصقت بزيّه الخشن المتخذلون الظبي، وكساء ساقيه من الشامواه، ومديته الفولاذية الضخمة ومهمازه الفضّي الاستعراضي، والأزرار الذهبية والفضية لسترته القصيرة وبنطاله، كل شيء يشعُ بالفضة والذهب، وهي ليست بكنزٍ نفيس كي يُدَّخر بل معادن لتزييننا في المعركة وفي الموت: سترةً من الضوء.

كان فيللا رجلاً من الشمال، طويلاً ونشيطاً، وكان جذعه أطول من ساقيه القصيرتين الهنديتين، لكنه كان يملك ذراعين طويلين ويدين مفعمتين بالقوة ورأسٍ من المحتمل انه بُتِرَ منذ أمدٍ بعيد من على جسد رجل آخر، في أزمانٍ قديمة وأماكن بعيدة، رأسٌ مفصولٌ من الماضي وقد لُحِمَ مثل برميلٍ معدني نفيس بجسدٍ فانٍ، مفعم بالقوة انما بلا قوة، آتٍ من الحاضر. عينان شرقيتان، باسمتان لكن بوحشية، موضوعتان في سطحٍ من أخاديد الوجه؛ ابتسامة متهيأة، وأسنان مُشّعة مثل حبّات الذرة البيضاء؛ شاربٌ مهزولٌ وذقن غير حليقة منذ ثلاثة أيام؛ رأس تمت رؤيته في مونغوليا والأندلس وجبال الريف(*) خلال الرحلات البدوية في أميركا الشمالية، وكان الآن هنا في كامارغو، تشايهواهوا، يكشّر

(*) the Rif: سلسلة جبال في شمال غرب افريقيا، تمتد على طول ٢٧٠ كلم من طنجة على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط المغربي ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

ويطرف بعينيه ناظراً بهما نصف مغمضتين في مواجهة انقضاض الضوء، رأس اختزن احتياطاتٍ ضخمة من الحدس والضراوة والكرم، رأسٌ جاء ليستريح على كتفيّ بانشو فيللا.

فرَّ مُلاّك الأراضي بينما كان المُرابون مختبئين. كبح فيللا الضاحك جماحَ حصانه كستنائي اللون بصعوبة وهو يخبُّ فوق شوارع كامارغو الصخرية، حيث قَدِمَ الرتل الأوسط في الفرقة الشمالية لينضمّ هؤلاء الجنرالات الآخرون قبل مهاجمة زاكاتيكاس المركز التجاري للمزارع المُدمَّرة التي نهبها ليحرر الناس من العبودية والربا والديون. قعقعت حوافرُ حصان فيللا على الحصى الكبيرة، محدثةً سلسلةً من الأصوات الرنانة التي رنَّتْ في طباقٍ(١) مع الأصوات المكتومة الغريبة للشوارع الحجرية: نحاسٌ وفولاذٌ يوجِعُ ويَشكمُ وسلاسلُ الشكيمةِ تصلصلُ وتخشخشُ، ينتصبُ عُرفُ الحصانِ مرتجفاً في حين يهسهسُ السوطُ مطقطقاً في الهواء.

خرجت البلدة بكاملها ناثرةً الحلوى من فوق الشرفات المزخرفة، مسقطةً الأقمشة المتلولبة من على أعمدة الكهرباء، كاتمة صوت التصادم بين المعدن والحجر في فيضٍ من ألوان الأعياد المكسيكية الوردية والزرقاء والأرجوانية، غامرةً المكان بدمجونات(٢) زجاجية كبيرة من المشروبات المنعشة، وبشطائر متعددة الألوان من الحلوى، وأطباقٍ خزفية هائلة تبقبقُ بالمرق الأسود والأحمر والأخضر.

كان الصحفيون هناك، أيضاً؛ الصحفيون الغرينغويون والمصورون، ومعهم اختراعٌ جديد، الكاميرا المتحركة. كان فيللا قد أفتُتِنَ بها، ولم تكن ثمة حاجة لمحاولة اقناعه ثانيةً. كان مدركاً تماماً بأن بإمكان الآلة الصغيرة الامساك بشبح جسمه ان لم يكن بلحم روحه ـ إن هذا عائد اليه فقط، الى أُمه العزيزة المتوفاة، والى الثورة، ان جسمه المتحرك، الوافر والمستبد، جسمه الشبيه بالفهد، ان هذا الجسم، أجل، يمكن الامساك به واطلاقه من جديد في غرفة مظلمة، مثل اليعازر(٣) الناهض ليس من الموت وانما من أزمنة وفضاءات بعيدة، واطلاقه في غرفة سوداء على حائط أبيض، في أي مكان، في نيويورك أو في باريس. لقد وعَدَ والش، الغرينغو المُمسك بالكاميرا: «لا تقلق، يا دون راؤول. اذا قلت بأن الضوء ليس مناسباً لآلتكَ الصغيرة في الرابعة صباحاً، فان هذا ليس بمشكلة. ستتم عملية

---

(١) الطباق counterpoint: لحن يُضاف الى آخر على سبيل المصاحبة ـ المورد ـ.

(٢) الدامجانة demigohn: زجاجة ضخمة واسعة الجوف ضيقة العنق مكسوَّة بقضبانٍ مجدولة ـ المورد ـ.

(٣) اليعازر: الرجل الذي أحياه السيد المسيح بعد موته وأخرجه حيّاً من قبره، حسب العهد الجديد ـ المترجم

Twitter: @ketab_n

تنفيذ الاعدام في السادسة. ولكن ليس بعد ذلك. إذ اننا سنسير على إثرهـا ونحارب. مفهوم؟».

كان جميع الصحفيين اليانكيين المتجمعين الآن في كامارغو يمطرونه بالاسئلة قبل تحركه الى زاكاتيكاس ليحسم مصير الثورة ضد هويرتا وليحسم، بالتالي، مصير سياسة ويلسون المكسيكية. «هل تتوقع اعتراف حكومة الولايات المتحدة بك إن أنتَ انتصرتَ؟».

«تلك المشكلة لا وجود لها. انني تابع لكارانزا، القائد الأول للثورة».

«يعرفُ الجميع بأنكَ وكارانزا ليسا على اتفاق، أيها الجنرال».

«مَن يعرف هذا؟ هل تعرفه أنتَ؟ أخبرني عن ذلك، لو سمحت».

«لقد اطّلعنا على برقية أرسلها جنرالك ماكلوفيو هيريرا الى كارانزا بعد ان أُنكِرَ عليكَ الحق في شن هجومك على زاكاتيكاس، أيها الجنرال فيللا. النَّص مختصر جداً. إذ يقول «يا ابن الكلبة».

«أوه، يا صديقي الصغير. أنا لا أعرف كيف أقول هذه الكلمات السيئة بالاسبانية. أقسمُ لك، انني قادرٌ على قولها بالانكليزية فقط. على أية حال، لقد قرر السنيور كارانزا إرسال الأخوة أريّتا للاستيلاء على زاكاتيكاس».

«لكنكَ هنا مع فرقة كاملة، مع مدفعية وعشرة آلاف رجل...».

«في خدمة الثورة، أيها السادة. في حالة حصار الأخوة أرّيتا في زاكاتيكاس، كما هي عادتهم، فإن بإمكاني أن أكون هناك في غضون خمسة أيام لمدّ يد المساعدة لهم. هذا كل ما أحتاج اليه!».

«وأخيراً، أيها الجنرال فيللا. ما رأيك بالاحتلال الاميركي لفيراكروز؟».

«ضيفٌ غير مُرحَب به ورجل ميّت سيتنان كلاهما بعد يومين».

«هل لكَ ان تكون اكثر وضوحاً، أيها الجنرال؟».

«لقد رسا رجالُ البحرية الأميركيون في فيراكروز بعد ان قصفوا المدينة وقتلوا طُلاباً شباباً مكسيكيين في المدرسة البحرية. وبدلاً من أن يُغرقوا هويرتا في المستنقع، قاموا بتقويته باستنهاض وطنية الناس. لقد قسّموا التأييد للثورة وسهّلوا لهويرتا، ذاك العربيد السكّير، ان يفرض ضرائبه الدنيئة. تم إرسال الشباب الذين ظنوا بأنهم إنما ذهبوا لمحاربة الغرينغويين في فيراكروز للقتال ضدي في كواهويلا. لستُ أدري ان كان هذا هو ما ترمون اليه، لكن يبدو لي بأنه حين لا يكون الغرينغويون أذكياء كفايةً من أجل صالحهم، فانهم يكونون في غاية الغباء».

Twitter: @ketab_n

«هل صحيح أن لديكَ ضابط أميركي قُتِلَ بإطلاق الرصاص على ظهره؟ أن نقيباً في جيش الولايات المتحدة قد قُتِلَ بجبن على يد أحد رجالك، أيها الجنرال؟».

«ما هذا الخراء...؟».

«وسمَتكَ بعض الجهات المسؤولة في الولايات المتحدة بأنكَ لستَ غير قاطع طريق، أيها الجنرال فيللا. يتساءل الرأي العام فيما اذا كنت تستطيع ان تضمن الأمن هنا في المكسيك. هل تحترم حياة البشر؟ هل بمقدورك التعامل مع أُممٍ متحضرة؟».

«من هو الخرائي الذي قال كل هذا؟».

«آنسة... أوه، هاربيت وينسلو... أوه، من واشنطن، العاصمة. قالت بأنها كانت شاهدة على الأحداث. كان والدها قد فُقِدَ في المعركة منذ الحرب في كوبا. يبدو انه أراد أن يتفادى الالتزام العائلي فقط، لكنه قرر بأنه يريد رؤية ابنته الصغيرة، انها امرأة ناضجة الآن، قبل ان يموت. جاءت الى هنا لتراه. انهم يتهمون جنرالاً في جيشك، أيها الجنرال فيللا. ماذا قالوا إسمه، أرت؟».

«إن اسمه أرّويو. الجنرال توماس أرّويو. تقول بأنها رأته يطلق النار على أبيها ويقتله»

«مع كامل احترامنا، أيها الجنرال، فاننا نذكرك بأن جثث مواطني الولايات المتحدة الذين قُتِلوا في المكسيك، أو في أي مكان آخر في العالم، يجب ان تُعاد حسب طلب عائلاتهم، ليُمنحوا دفناً مسيحياً محترماً.».

«أهذا ما يقوله القانون؟». نخرَ فيللا.

«هذا ما يقوله القانون حقاً أيها الجنرال».

«أرني أين كُتِبَ هذا».

«الكثير من قوانيننا غير مكتوبة، أيها الجنرال فيللا».

«قانون غير مكتوب على الورق؟ اذن لماذا بحق الشيطان نتعلم القراءة؟»، أجاب فيللا المتحيّر، بابتسامة عريضة هازئة، ثم ضحك، وضحكوا جميعهم مشاركين، وتنحّوا للرجل الذي كان مثال الثورة والذي كان يستعد لأن يُري العالم بأنه هو، وليس كارانزا، النائب العجوز المُعطّر، أحد الذين يُلقبون بقوم المكسيك المحترمين، من يستحق ذلك اللقب، وانه هو بالضبط الرجل الذي يحتقره كارانزا بشدة ويستخف به، حافي القدمين، الأميّ، شارب البلكة(*) الآتي من تلال دورانغو التعِية والذي ضُربَ من قبل أصحاب المزرعة أنفسهم الذين اغتصبوا اخواته. لا، ضحكَ، وأكّد لآمر مدفعيته المتميز الجنرال فيليب أنجيليس، خرّيج أكاديمية سانت سيير الفرنسية، انني لا أقول هذا لك، يا دون فيليب، وانما لهم هُم، لقد رأيتهم أنتَ لتوكَ، يتصرف الغرينغويون وكأن لا وجود لنا، ثم

(*) البلكة palque: شراب مسكر يُصنع في المكسيك من عصير الصبّار الاميركي ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

يكتشفوننا في يوم رائق، ثم إنتبه ولاحظ! نحن الشيطان نفسه متهيؤون لأخذ حياتهم وممتلكاتهم؛ حسناً، لم لا نسببُ لهم فزعاً حقيقياً ـ كشّر بانشوفيللا ـ لم لا نغزوهم مرةً واحدة لنجعلهم يشعرون ويعرفون ما هو الغزو؟

عندها، طار في ثورة غضب رهيبة معتقداً باحتمال وجود من لم يفهم وضعه. لقد شلّه كارانزا في تشايهواهوا، ولذلك لن يكون فيللا هو الذي يقود الطريق الى مكسيكو سيتي، وعندها سيذهب المجد الى الأولاد الظرفاء، أوه، ان ما يقبض على القلب اكثر هو ان ذلك الخليع الوغد العجوز لا يترك أية فرصة تفوته أبداً لتذكير سارق المواشي السابق الآتي من تشايهواهوا بأنهما جاءا من خلفيتين مختلفتين للغاية: لا، أن تكون محامياً مُتخماً ليس هو الشيء نفسه عندما تخاطر بمخبأك! طلبَ من سكرتيره، البروفيسور، ان يكتب استقالته من الفرقة، وبذلك سوف يثير المتاعب الجسيمة، ودعنا نرى ان كان بوسع ناتيرا والأخوة أرّيتا الظرفاء الأستيلاء على زاكاتيكاس بمفردهم، ودعنا نرى لماذا لم يرسل ذلك المنافق بابلوغونزاليس الفحم والذخائر من مونتيرّي، ودعنا نرى إن كان بوسع سلطتهم المدنية ان تفعل لهم شيئاً بلا دعم بانشو فيللا العسكري وامداداته، دعنا نقرر ذلك هنا والآن. وان مجرد التفكير بانه، مع هذا كله، ثمة بعض القرود المُعلقين من حولنا في تشايهواهوا يسببون لي المتاعب مع الغرينغويين! انفجر فيللا من الغيظ، لكنه، كالعادة، سكنَ واستكان إثر ليلة حمراء.

تلقى الجنرال توماس أرّويو الأمر بالحفر وإستخراج جثة الغرينغو أينما كانت واحضارها الى كامارغو. لا، لقد كذبوا عليه عن قصد. ليس ثمة عائلة تطالب بالجثة، ولكنها جريدة، الواشنطن ستار، هذا ما أخبروه به. لكن، عندما فرّق هذا الأمر الفيلق العائم بعيداً عن المزرعة المحروقة لعائلة ميراندا، عرف أرّويو على وجه الدقة اسم الشخص الذي كان يطالب بالجثة. رآها في أحلامه، ورأس العجوز الذابل بين ذراعيها، تنظرُ الى أرّويو الواقف على باب عربة القطار، وكأنما قتل شيئاً يخصّها، لكنه يخصّه هو أيضاً، وها هما الآن وحيدان من جديد، يتيمان، ينظران الى بعضهما بكراهية، غير قادرين بعد على تغذية بعضهما بعضاً عبر كائنٍ حيّ، أو مَلء الخواء المُعذّب الذي شعرت به في نفسها وفيه.

«أنظري الى ما يحمله في يديه! أنظري الى ما يمسكه بيديه بإحكام». كان هذا كل ما استطاع ان يقوله أرّويو. رأت الأوراق المحترقة وكان أرّويو يقول بان الغرينغو قد أحرق روحه، وأقرّت هي بأنه أحرق شيئاً اكثر من هذا: تاريخ المكسيك، غير ان هذا ليس بمبرر، لأن حياة انسان اكثر قيمة من تاريخ بلد، وكانت هارييت وينسلو قد اقتنعت بأن صحراء

Twitter: @ketab_n

تشايهواهوا قد صرخت معها، بالرغم من كل شيء: قاتل، خنزير، مشحم، جبان مقرف! وصرخت فيه: لقد نلتني، لكن كان عليك ان تقتله، كذلك.

«جاء الى هنا ليغيظني»، قال أرّويو، لاهثاً. «مثلكِ تماماً. انتما الاثنان أتيتما لاغاظني. أيها الغرينغويون أبناء العاهرات!».

لا، أنتَ أغظتَ نفسك بنفسك، قالت، عندما انتهى ذلك النهار الطويل، انت أغظتَ نفسكَ لكي تثبت لنفسكَ من انت. اسمك ليس أرّويو، على اسم امك، اسمك ميرّاندا، على اسم أبيك. نعم، قالت، بينما بدءَ المطرُ رمادَ الأوراق، أنت الوريث الممتعض، المتنكر كمتمرد.

«أنت يا ابن الزنا المسكين. أنتَ توماس ميراندا».

قالت ذلك بوحشية، قاصدةً ان تجرحه، غير انها كانت تعرف بانها كانت قادرة على قولها بهدوء للعجوز المُلقى الى جانب عجلات عربة القطار، وكل ثقب رصاصة مرئيّ بوضوح في ظهره، لكنها قالت ذلك بغضب من أجل العدالة، لتذكّره بأنها هي، أيضاً، قادرة على الضرب، على ردّ الضرب، ورد الصاع بصاعين. ما كان باستطاعة توماس أرّويو ان يفهم أي شيء. لقد قتل الغرينغو العجوز. وما كان بوسعه ان يتخيل بأن هارييت وينسلو ما تزال تحتفظ بارادة القتال، لا بد انها تشعر بالاستنزاف مثله. الغرينغو العجوز، والأوراق المحترقة.

«إن بامكاني احتمال أي شيء منكما ايها الغرينغويان. أي شيء، ما عدا هذا»، قال أرّويو، مشيراً الى بقايا الأوراق.

«لستَ بحاجةٍ لأن تقلق» أجابت هارييت وينسلو، بما تملك من بقية دعابة وشفقة قليلة. «لقد اعتقد بانه كان ميتاً أصلاً».

لكن أرّويو أراد في ذلك المساء أن يحرق روحه. «ما هي حياة عجوز مقارنةً بحقوق شعبي؟».

«لقد اخبرتك للتو، لقد قتلتَ رجلاً ميتاً. كُنْ شكوراً. لقد وفّرت على نفسكَ تكاليف اعداد عملية اعدام».

كان فصيل الاعدام هو ما طالب بتجهيزه بانشو فيللا من توماس أرّويو عندما شاهد جسم العجوز المخروق بالرصاص، وحالما تفحصَ الشجاعة الشهيرة التي أرهبتْ كلاً من

Twitter: @ketab_n

رجاله وأعدائه. تحسس بانشو فيللا ظهر الغرينغو العجوز المخروق بالرصاص وتذكرَ شيئاً قاله أحد الصحفيين اليانكيين حين أجرى المقابلة معه في كامارغو: «لديّ مَثَلٌ أقوله لك، أيها الجنرال فيللا. «ان ما ندعوه موتاً إنما هو الألم الأخير».

«من قال هذا؟».

«أوه، عجوز مرير».

«اذن هو مكتوب؟»

«كما قلتُ، من قِبل عجوز مرير».

«أوه، من قِبل. . . ».

أمرَ فيللا باعداد فصيل الاعدام تلك الليلة تحديداً. في منتصف الليل. حذّر بانه سيكون إعداماً سرياً، وغير مسموح لأحد الاطلاع على ذلك سواه هو، فيللا، والجنرال أرّويو، وفصيل الاعدام. وليذهب السيد والش وكاميرته إلى الجحيم. فهذا الأمر لا يعنيه.

أسندوا الغرينغو العجوز الى الحائط ببعض الصعوبة، بمواجهة فصيل الاعدام، وكان رأسه ساقطاً فوق صدره، وركبتاه رخوتان، ووجهه قد تشوّه قليلاً بأحماض دفنه الأول في الصحراء

أُعطي الأمر في الفِناء خلف مقر قيادة فيللا؛ أحدثَ ضوءُ المصابيح الموضوعة على منطقة منخفضة من الأرض خيالات غريبة فوق وجوه الرجال. رنّت الرصاصات وهوى الغرينغو العجوز للمرة الثانية بين ذراعي صديقه القديم، الموت.

«ها قد أُطلقَ عليه الرصاص الآن من الأمام طبقاً للأصول، ووفقاً للقانون»، قال بانشو فيللا.

«ماذا سنفعل بالجثة، أيها الجنرال؟»، سأل قائد فصيل الاعدام.

«سنرسلها الى من يطالب بها في الولايات المتحدة. سوف نقول بانه مات خلال معركة ضد الفدراليين، انهم قبضوا عليه ورموه بالرصاص».

لم ينظر فيللا الى أرّويو لكنه قال بانه لا يريد أن يُجرَّ حول جثة أي غرينغو تمنح ويلسون المبرر للاعتراف بكارانزا او للتدخل ضد فيللا في الشمال.

«حسناً، نحن سنقتل بعض الغرينغويين»، قال فيللا بتكشيرة ضارية، «إنما في الوقت المناسب وعندما أقرر أنا».

إستدار نحو أرّويو دون ان يغيّر ملامحه. «كان رجلاً شجاعاً، أليس كذلك؟ غرينغواً شجاعاً؟ لقد سمعت عن كل ما قام به. الآن أُطلق عليه الرصاص بانصاف، من الأمام،

Twitter: @ketab_n

وليس من الخلف كجبان، لأنه لم يكن جباناً، أكان جباناً، يا توماس أرّويو؟».

«لا، أيها الجنرال. كان الغرينغو اكثرنا شجاعة».

«هاكَ يا توماسيتو. امنحه طلقة الرحمة. انتَ تعرف بانك مثل ابن لي. افعلْ ذلك بشكلٍ متقن. علينا ان نفعل كل شيء ببراعة ووفقاً للقانون. لا أريد منكَ هذه المرة ان تسبب لي أية اخطاء. علينا ان نكون مستعدين لأي شيء. يبدو لي انك أخلدت لاستراحة طيبة في المزرعة، كنتَ هناك لمدة كافية حتى انك أصبحتَ مشهوراً، أليس كذلك؟».

(«أرّويو»، قال الصحفي اليانكي. «الاسم هو أرّويو»).

«نعم أيها الجنرال»، أجاب أرّويو ببساطة.

سار أرّويو الى حيث تمدّد جسم الغرينغو العجوز عند الحائط، ركع الى جانبه، وأخرج مسدسه الكولت ثم منح طلقة الرحمة باتقان. لم يتدفق أي دم من عنق الغرينغو العجوز الآن. وبعدها اعطى فيللا الأمر باطلاق النار على أرّويو التعس، الذي كان وجهه الصورة الحيّة للألم وعدم التصديق. ومع هذا، استطاع ان يهتف «فيفا فيللا!»(*).

سقط أرّويو الى جانب الغرينغو العجوز، وقال فيللا بأنه لن يتسامح مع ضباطٍ يمارسون ألعابهم الصغيرة مع الأجانب ويسببون له مشاكل غير ضرورية. وحين يصير أوان قتل الغرينغويين، فانه الوحيد، بانشو فيللا، سيقول متى ولماذا. سوف تُرسَل جثة العجوز وتُعاد الى ابنته ولسوف تُنسى المسألة الى الأبد.

كانت العينان، العينان المتألقتان الزرقاوان للجنرال الانديانى العجوز، قد أُغلقتا للابد تلك الليلة في كامارغو بيديّ صبيّ يتصف بعينين سوداوين كالمرمر، وبحزاميّ رصاص عُلِقا متصالبين على صدره. صبي سأل ذات يوم، «أتريد ان تلتقي ببانشو فيللا؟».

أخرج بيدريتو من جيب بنطاله قطعة البيزو المثقوبة بواسطة مسدس الكولت ٤٤ ذاتها التي ألقى بها أرّويو الى الغرينغو العجوز، ووضعها في جيب القميص الملطخ للرجل الذي مات مرتين. قام فيللا نفسه بمنح طلقة الرحمة لتوماس أرّويو.

(*) فليحيا فيللا - المترجم -

Twitter: @ketab_n

عاينت هارييت وينسلو جسد العجوز المثقب بالرصاص لكنها قالت نعم، هذا هو أبي، ودفنته في مقبرة أرلنغتون الى جانب أمها، التي ماتت بالقرب من مصباحها على طاولة المصباح القديمة، وقد نخرتها الظلال أخيراً. وهكذا، فلقد فكّرت هارييت بأمها الفقيرة أولاً، التي أرادتها بكل إصرار ان تكون سيدة شابة مهذبة ومحترمة ـ رغم ان الشهامة كانت بادية على نحو قليل بالنسبة لعائلة تمرّ بظروف متوترة! إن صفاء الروح يتطلب مجاملة اجتماعية في كل يوم يُعَاش: حضور سيد مهذب. لقد التمست الأعذار لكلٍ من الأجحاف والاختلافات في الرأي، وكانت واثقة من ان السعادة ستعمّ في النهاية وتستوجب النصر. فكّرت هارييت وينسلو كيف انها سترتاح ذات يوم الى جانب أمها والى جانب كاتب عجوز وحيد ذهب الى المكسيك لكي يُقتل.

«جاء الغرينغو العجوز الى هنا ليموت».

في ليلة مصرعه، تجولت دائخةً عبر المخيم؛ ثم شعرت فجأةً بجوع غامر عرفت بأنه ليس جوعاً جسدياً في الأصل انما الطعام هو القادر على تهدئته. اقتعدت الأرض، بدافع النزوة، الى جوار امرأة تطبخ التورتيللا فوق كانونٍ صغيرٍ ينبعثُ منه الدخان. وسألت، بلا كلام، إن كانت تستطيع المساعدة. تناولت قسماً صغيراً من خليط الوجبة الحبوبية وشكّلت منه قطعة تورتيللا، مقلدةً المرأة المقعية بجوارها. ثم تذوقتها.

«أتحبين التورتيللا؟»، سألت المرأة.

«نعم».

«انها جيدة. سوف نرحل قريباً. لقد مضى علينا وقتٌ طويل هنا».

«أعرف. هذا هو مكانه. انه في الحقيقة لم يرد ان يرحل».

«آه، حسناً، لا يمكننا البقاء. علينا ان نواصل الرحيل. انني أتبع رجلي، انني أطبخ

Twitter: @ketab_n

له وأحمل أطفاله، الحياة لا تتوقف بسبب أية حرب. هل ستذهبين معه؟».

«من تعنين؟».

«مع جنرالنا أرّويو. ألستِ امرأته الجديدة؟».

وبينما جلست تأكل طعامها من التورتيللا بجانب المرأة في تلك الليلة الضاربة في القِدَم في الصحراء، أو فيما بعد، بينما كانت جالسة بالقرب من قبر العجوز المنقوش عليه اسم أبيها، أو حتى بعد ذلك، وهي امرأة عجوز، وحيدة، تتذكر كل تلك الأشياء، إذ هيأت نفسها لحالةٍ من الحنو كانت قد خانتها ربما لمرة واحدة في حياتها، وعندما طالبت بجسد العجوز، عارفة ماذا ستكون عليه النتائج. لقد منحها الحنو الجديد على وجه التحديد فعالية وتأثير تلك الخطيئة، التي تدين بها الى شاب مكسيكي ثوري والذي وهب حياةً، والى كاتب أميركي عجوز بحث عن الموت: لقد منحاها حياةً تكفيها لأن تعيش سنيناً عديدة، هنا في الولايات المتحدة، هناك في المكسيك، وفي أي مكان آخر: كانت الشفقة هي اسم الشعور الذي خالج هاربيت وينسلو حين نظرت في وجه العنف والمجد، وكان كلاهما أخيراً بلا أقنعة ليُظهرا مستقبلهما الحقيقي: مستقبل الموت.

ثم جاءت الحرب العظمى، وامحَّت الثورة الكائنة على الحدود الجنوبية من على صفحات الجرائد الأولى الى ان هاجم فيللا بلدةً حدودية في نيومكسيكو، وأُرسل الجنرال بيرشنغ لمطاردته عبر جبال تشايهواهوا ولم يستطع بالطبع العثور عليه، ليس فقط لأن فيللا كان يعرف عن ظهر قلب تلك الوديان الضيقة المتحدرة والدروب المُغبرَّة، ولكن لسببٍ آخر، سبب اكثر قوة: ما كان بانشو فيللا ليُقتل الاّ على يد خائنٍ من الداخل.

لهذا السبب كانت هاربيت وينسلو تفكر بأنها، ورغم كل شيء، قد تمنَّت لو انها كانت حاضرة على اعدام الجنرال توماس أرّويو، لترى بأم عينيها طيران ذلك المصير الذي طالما اعتقد بانه مصيره الخاص، بانه متجذرٌ في ارادته، وليس في ارادة شخص آخر. لكنه مات على يدي قائده بانشو فيللا مما أدّى الى انهاء أي مصير على الاطلاق. لقد سألت نفسها طوال الوقت عمّا يمكن ان يكون توماس أرّويو قد قام به وانقذه (لقد قتلته الثورة)، ماذا سيكون مصيره ضمن مستقبل المكسيك. ربما يكون الغرينغو العجوز قد أحرق، لحظة ان مات، مستقبلين مزدوجين: مستقبل توماس أرّويو ومستقبل المكسيك.

تركت هاربيت وينسلو، إثر حدوث الميتتين، غرفتها في فندق كامارغو. سمعت في منتصف الليل وابلاً من الطلقات النارية في البعيد: مات الغرينغو العجوز للمرة الثانية. ثم كانت دورة ثانية من الاطلاقات ـ موت اول ـ تبعتها اطلاقة مفردة. مات أرّويو مرتين

Twitter: @ketab_n

كذلك.

وعند حاجز الاستقبال للفندق ـ فِناءٌ قرميدي مزيّن بنباتاتٍ في أصصها وعصافير كناري ـ كانت المرأة ذات الوجه القمري بانتظارها.

لم تتكلم. تبعتها هارييت الى كنيسة مُدمرة. كان بانشو فيللا واقفاً على الباب وقال لهما: أدخلا وشاهدا رجليكما.

كان جسدا توماس أرويو والغرينغو العجوز ممددين هناك. بدأت المرأة ذات الوجه القمري تنتحب، ثم تصرخ باكية، لكن هارييت وينسلو تذكرت بان توماس أرّويو كان قد صرخ للمرة الأولى مع هذه المرأة التي لا عزاء لها، بدافع اللذة الخالصة لكونه قادراً على الصراخ أثناء ممارسته للحب مع امرأة، وتذكرت هارييت وينسلو بانها وبنفس الطريقة قد صرخت من اللذة مع هذا الرجل الميت.

«يا ذَكَري الأوحد، يا ولدي، يا رَجُلي، أعولت امرأة توماس أرّويو في ليلة سهرها عند جثته قبل دفنها في كنيسة في كامارغو، حيث كان مسيحٌ داخل قفص من زجاج، مُتَوجٌ بالشوك ومُغطى بعباءة من السخرية، يحدّق بهم من على قاعدته فوق صندوق فارغ عار.

كان كل الذي قالته هارييت وينسلو لجثة الغرينغو العجوز: «ثمة قبر فارغ بانتظارك في مقبرة عسكرية، يا أبي.».

ولقد غادرتا كامارغو معاً أيضاً في الصباح التالي، وهما في غاية الألم وترتجفان من البرد: تابوتان خشبيان فوق عربتين مجرورتين ببغلين مُتعبين. رافقهما كلٌ من لاغاردونيا، واينوسنسيو مانسالفو، وبيدريتو اليافع الى أن وصلوا تقاطع الطرق. لم يتكلم أحد. كانت لاغاردونيا تحمل طفلتها الصغيرة ملفوفة بشالها، وعندما وصلوا الى التقاطع، شكرت هارييت وينسلو مرة أخرى «سوف ترين، ستعيش ابنتي لتراني أُدفن في أرضٍ مقدسة الى جانب عمتي جوزيفا أرّيولا في دورانغو».

«أتمنى لكِ ان تعيشي عمراً مديداً»، قالت هارييت وينسلو.

«من يدري؟ لكنني سأموت وأنا أفكر بأخي الصغير الذي لم يولد، الملاك، وأُسدي لكِ التشكرات...».

«أين سيدفنون الجنرال أرّويو، يا دونا؟» سأل اينوسنسيو مانسالفو المرأة ذات الوجه القمري.

أجابت، بعينين جافتين، بأنها ستدفنه في الصحراء، حيث لن يُسمع منه أي شيء آخر أبداً.

Twitter: @ketab_n

«أتمنى لو انني أستطيع الذهاب معك»، قال اينوسنسيو. «لكن عليّ مرافقة المرأة الأميركية. انها أوامر الجنرال فيللا».

هزّت امرأة توماس أرّويو رأسها، نخست البغل العجوز، وبدأت رحلتها نحو غايتها غير المعلومة في اللحظة التي جاء بها الكولونيل فروتوس غارسيا ليقدّم آخر احتراماته لقائده. اختفت العربة ببطء في غيمةٍ من غبار ونظر فروتوس غارسيا الى هارييت وقال بأنهما سيرافقانها حتى الحدود، انيوسنسيو مانسالفو وبيدريتو اليافع أيضاً، كان ولداً شجاعاً ولقد أحبَ الغرينغو العجوز كثيراً. كما انه أضاف بشائبة خبث اسباني، لن تساور أحدهم أية ظنون وهما برفقة ولد.

«عليك ألاّ تقلقي»، أضاف بجدية اكثر الآن. «لقد قمتِ بما كان عليكِ القيام به. جاء الغرينغو العجوز ليموت في المكسيك. يا الهي، من كان باستطاعته التنبؤ بأنه سيموت الى جوار غرينغا؟ في الحقيقة، لقد مات لأنه اجتاز الحدود. ألم يكن هذا بسبب كاف؟».

«لقد فعلتُ ذلك أيضاً. لقد اجتزتها». قالت هارييت.

«لا تقلقي. سوف نحترمكما أنتِ والغرينغو العجوز. سنحترم الغرينغو العجوز لأنه كان شجاعاً ولأن ثمة أسى كان في عينيه. ولأن هذا كان آخر أمر أصدره جنرالنا توماس أرّويو: احترموا الغرينغو العجوز».

«وأنا؟»

«أنتِ، لأنكِ التي سوف تتذكر ذلك كله.».

ثم قال وداعاً ومضى بحصانه بعيداً.

على طول الطريق من كامارغو الى سويدا خواريز، كان لدى هارييت وينسلو وقت طويل لتفكر فيه بحياتها بعد ان عادت الى واشنطن. لكنها شعرت بحضور دافىء بجانبها الآن: ولدٌ مكسيكي. لقد أحب بيدريتو الرجل الميت الذي أُخِذَ الى قبر النقيب وينسلو في أرلنغتون. أخذ اينوسنسيو مانسالفو على عاتقه جميع الأمور في رحلتهم: الطعام والمأوى، الطريق والسلامة. كان يعرف هذه الطرق الخالية من العلامات معرفةً تامة. كانت هذه المنطقة ضمن معسكر الثورة، وكان الجميع هنا من أنصار فيللا.

في خواريز، وبينما كانت هارييت تستعد لأن تعبر الى الطرف الآخر، تكلم بيدريتو اليافع لأول مرة. «لقد تم الأمر كما أردته، أيها العجوز». قال مودعاً جثة الغرينغو، في حين كانت هارييت تُقلبُ الأوراق الروتينية اللازمة من أجل الدخول الصعب لجسدٍ ميت الى الولايات المتحدة الأميركية. «وحسبما أردت، أيها العجوز. لقد منحك بانشو فيللا بنفسه طلقة الرحمة».

Twitter: @ketab_n

إتكأ اينوسنسيو مانسالفو على درابزين الجسر وهو يدخن. وبينما هو يحترق في قيظ ربيع الحدود دعا اليه هارييت بفظاظة. أطاعت أمره. كان هذاوداعها للمكسيك. وبلا كلام، حدّق الاثنان لبعض الوقت في المياه السريعة انما الضحلة الداكنة للنهر الذي يسمّيه الأميركيون الشماليون الغراندي ويسميه المكسيكيون البرافو.

نظرت هارييت لأول مرة الى مانسالفو نظرة حقيقية. كان رجلاً نحيلاً، بعينين خضراوين وشعر أسود مثل شرقيّ، وثمة شقان عميقان خددا وجنتيه، شقان علّما زاويتيّ فمه، وشقان عبرا في جبهته، دائماً خطان اثنان، كأنما حرفيان توأمان قد حزّاه بسرعة بمنجل، ليدفعاه بأسرع وقت للخروج الى العالم. حتى ذقنه الوسيمة كانت مشقوقة. مضغت هارييت شفتها، انها حتى اليوم، حتى هذه الدقيقة، لم تنظر أبداً الى هذا الرجل.

حدّقت فيه وهو يقف بلا حراك على نحو غامض، مشقوقاً الى اثنين من أعلى الذقن، وعرفت بانه سيظل مبقياً عينيه دائماً على الحدود الشمالية للمكسيك، لأنه بالنسبة للمكسيكيين كان الغرينغويون دائماً هُم السبب الوحيد للحرب.

ورغماً عنه، نظر مانسالفو عبر الطرف الشمالي الأميركي للحدود. «إعتاد الغرينغو العجوز على القول بان ليس ثمة حدود أخرى بقيت للغرينغويين، ليس نحو الشرق او الغرب، ليس نحو الشمال، وانما نحو الجنوب فقط، دائماً نحو الجنوب»، قال مقاتل العصابات، باسطاً قصاصة جريدة.

استطاعت هارييت، وقد انحنت على الدرابزين بجانب مانسالفو، ان تشم كحولية الرجل، عرق البصل والتبغ الأسود. نظرت معه، الى وجه الغرينغو العجوز في القصاصة المأخوذة من جريدة شمال اميركية. رمى اينوسنسيو مانسالفو القصاصة في النهر.

«يا للعار»، قال «لا أستطيع ان أقرأ الانكليزية. انك لا تستطيعين الآن ان تقرأي لي ما كان مكتوباً فيها».

ثم استدار مانسالفو وامسك هارييت بعنف من ذراعيها. «يا للعار! لماذا لم تقعي في حبي؟ إذاً كان جنرالي ما يزال حياً اليوم». وأفلتها.

«دائماً نحو الجنوب»، ردّد اينوسنسيو مانسالفو. «يا للعار. انهم على حق عندما يقولون ان هذه ليست بحدود. انها ندبة».

ثم سار مبتعداً وراقبت هارييت ظهر اينوسنسيو مانسالفو المتراجع، سترة الشامواه فوق قميص بلا ياقة، القبعة المكسيكية عريضة الحواف المغطاة بالوسخ تنفث وسخاً على ايقاع مشيته المكسيكية كراعي بقر.

Twitter: @ketab_n

لم تنظر هاربيت اليهما ثانيةً، لم تنظر اليه، ولم تنظر الى الولد. وعندما عبرت الى ألـ باسو، كان حشد مندفع من الصحفيين بانتظارها. كانوا قد تحققوا اكثر مما فعل مسؤولو الجمارك، من ان النقيب وينسلو، المفقود في المعركة في كوبا، قد اضطرب بالتأكيد، انه ضحيـة فقدان الـذاكرة وسـوء المعاملة في معسكـرات السجن الاسباني، لكنـه متشرب بالشجاعة العسكرية التي لاحظتها ابنته الرائعة والتي نجت من معارك الثوار المكسيكيين الدموية. . . أنصتت هاربيت واستوعبت القصة التي نسجتها الصحافة، وتقبلتها على انها شظية من الوقت الذي سوف تحرسه. كان التابوت قد وُضِعَ فوق قلامةٍ(*) عسكرية تمهيداً لنقله الى محطة القطار.

«أنتِ أخبار وطنية، يا آنسة وينسلو. ان صديقك في واشنطن، سيدٌ يُدعى ديلاني، قد صرّح بأن مجلس الشيوخ سيكون له الشرف بالاستماع الى شهادتـك حول الهمجيـة السائدة حالياً في المكسيك».

وقفت هاربيت ساكنـة. كانت خـائفة، وهي تـراه يتحرك مبتعـداً، من ان تفقد التواصل مع رفيقها، الجثة «المُستعادة»، وعيٌ متجوّل ضلع في الموت، اكثر من أي وقتٍ في الموت، وعيٌ آهلٌ بالأشباح، آباءٌ مقتولون وأبناء ضائعون.

«آنسة وينسلو. . أخبار وطنية. . . ».

وفصلها سديمٌ أزرق عن العجوز مرةً أخرى: بسطتْ هاربيت يدها كأنها تستعيد الجثة الشاردة من السديم البشري، ضبابٌ بخاري من العجلة والطاقة؛ لتحول دون ان يكونا منفصلين، هما، الغرينغوان اللذان أتيا الى المكسيك، هو وقد أتى بقصدية، وهي وقد أتت بغير قصد، ليواجها الحدود التالية للوعي الأميركي، الحدود الأكثر صعوبة، وكادت هاربيت ان تصرخ، أخبار وطنية، أخبار وطنية، محاولةً تحرير نفسها من مجموعة الصحفيين كي لا تكون منفصلة عن جثة العجوز، أكثر الحدود صعوبةً، الأكثر غرابة، لأنها كانت الأكثر قرباً ولهذا فالمرء غالباً ما ينسى، غالباً ما يتجاهل، وغالباً ما يخاف عندما تتحـرك ناهضةً من سباتها الطويل.

(«يا للعار. لماذا لم تقعي في حبي؟»)

«اسمي فيسـك، من **إحداثيـات سان فـرانسيسكو**. لم تجيبي عـلى سؤالي. هـل ستشهدين، وبذلك نستطيع ان نجلب التقدم والديمقراطية الى المكسيك؟ لاحظي. . . ».

(*) القلامة Limber : الجزء الأمامي من عربة مدفع ـ المورد ـ

Twitter: @ketab_n

«نحن نجلب؟ مَن؟» سألت هاريت، وهي تدور حول نفسها، مذهولة، مفصولة عن رجلها الميت، عن رفيقها، رائيةً على أحد الجوانب جسراً مسفوعاً متدلياً وغباراً راكداً؛ وعلى الجانب الآخر، الممر الزئبقي لقضبان السكة الحديدية والسديم الأزرق لمحطة القطار: لُفَّ التابوت بعلم الولايات المتحدة.

«مَن! الولايات المتحدة، يا آنسة وينسلو. أنتِ مواطنة أميركية».

«اسمي فيسك. لقد اتصلتِ بي وأعلنتِ بأن والدك قد قُتِلَ بوحشية».

«أخبار وطنية...».

«كنا فخورين بمساعدتك. والآن أنتِ...».

«هل تعتقدين بأنه ينبغي علينا التدخل في المكسيك؟».

«ألا تريدين الثأر لموت والدك؟».

«إحداثيات سان فرانسيسكو...».

«الواشنطن ستار...».

«ألا تريدينا ان ننقذ المكسيك من أجل الديمقراطية والتقدم، يا آنسة وينسلو ؟».

«لا! لا! أريد أن أتعلم أن أعيش مع المكسيك، أنا لا أريد إنقاذها»، قالت دون تفكير، وفرَّت من مجموعة الصحفيين، فرَّت من جثة العجوز، ركضت عائدةً صوب الحدود، صوب النهر، صوب الشمس المُتعَبة لذاك اليوم التي تموت فوق الحدود الغربية، ركضت كأنها نسيت شيئاً لم تقله للصحفيين، كأنها أرادت أن تقول شيئاً لهؤلاء الذين تركتهم خلفها، كأنها قادرة على جعلهم يفهمون بأن تلك الكلمات لم تعنِ شيئاً، «انقاذ المكسيك من أجل التقدم والديمقراطية، وبأن الأمر المهم هو العيش مع المكسيك رغماً عن التقدم والديمقراطية، بأن كل واحد منا يحمل مكسيكه وولاياته المتحدة في داخله، حدود عتمة ودموية لا نجرؤ على اجتيازها الاّ في الليل: هذا ما كان الغرينغو العجوز قد قاله.

نظرت الى بيدريتو اليافع وايناسنسيو مانسالفو على الجانب الآخر من النهر. نادت عليهما، طالبةً منهما ان يغفرا لها موت توماس أرّويو، لكنهما لم يسمعاها، حتى وإن سمعاها، فانهما ما كانا ليفهماها. **لقد حملتُ فقط أمنية أرّويو بأن يموت شاباً، بأن آخذ وقته، بأن أحرسه له.**

لم يسمعا نداءها حين تفجَّر الجسر وسط اللهب: «لقد كنتُ هنا. ستبقى هذه الأرض جزءاً مني على الدوام».

كان ظهراهما قد استدارا اليها، وشاهداها تدخلُ للأبد في قاعة رقص مخططة بالمرايا دون ان تنظر الى نفسها، لأنها، في الواقع، كانت تدخلُ حُلماً.

Twitter: @ketab_n

نظرتُ الى داخل البيت، قال أرّويو فيما بعد (فيما بعد، وحيدة تجلس الآن وتتذكر)، ورأيتُ أمي وقد تزوجت. تزوجت أمي في بيت أبي. رأيتُ زوجة أبي كعانس. شئتُ لها أن تكون هكذا. لم يلمس أحد زوجةَ أبي الشرعية. هو لم يلمسها. لـمَسَ أمي؛ ووُلدتُ. زُوِجَّتْ أمي اليه، وما كانت عروساً بشكل قانوني. لم تكن ما تخيلتها وأنا برفقة غراسيانو العجوز في ذاك المساء الذي وسَمَني للأبد، يا الغرينغاويتا. كانت صفراء مثل جبنة متفلعة قديمة، ومتجعدة جرّاء تركها مدةً طويلة دون أن تؤكل. كانت سوداء كثيابها. إن سواد الثياب يحاكي سواد كل أعماق لحمها المخبوء. إماتة الجسد بكبح الشهوات، إماتة الجسد بكبح الشهوات: هذا ما كنا نسمعه منذ طفولتنا في الكنيسة، كبح شهوات الجسد، الاعتراف بكل الخطايا، مغفرة جميع الخطايا قبل أن نموت ـ هل كنيستكم قاسية ولطيفة ككنيستنا، أيتها الغرينغا، وسريعة في عزو الخطيئة لكنها سريعة أيضاً في مغفرتها؟ لقد تساءلتُ، عندما جاءت زوجةُ أبي الشرعية الى الكنيسة في أحد الأعياد، إن كانت ستنال المغفرة بعد اعترافها بخطاياها؛ إذ انني لم أستطع تصوّر أبي راكعاً يقول «اغفر لي»: إذ كانت هي حاملة خطايا أبي طالما انها كانت متقبلة غِناه، واسمه، وعنايته؛ كان عليها أن تدفع مقابل كل هذا بالاعتراف نيابةً عنه. ما كان لي أن أراه راكعاً أبداً. وبدلاً من ذلك لم يمنح أمي البهجة، ولا الغِنى، غير أنه لم يمنحها الخطيئة أيضاً: لم أكن خطيئة، أنا لها بالملكية فقط ولم أكن، ها اني أُعيد، خطيئةً. ما كنتُ أملكُ شيئاً أعترفُ به، أبداً. ولا حتى تحويلي للزوجة الشرعية الى امرأة ذابلة، سوداء، غير ملموسة. وهو؟ كانت اكثر رغباتي سرّيةً أن أكون معه بعد أن مات. ليس عندما مات؛ لقد استحقَ دون غراسيانو هذا اكثر مما استحقه أبي، ولم أمنحه له. لا. أقسمتُ بأنه لو أُتيحَ لي أن أكون حاضراً، ولو بدافعٍ من قدرٍ غريب، على موت أبي، لرفضتُ أن أمنحه عينيّ، حتى ولو توسّلهما لتقوداه على الدرب

Twitter: @ketab_n

المؤدي الى الموت. أقسمتُ بأنني سأُبقي على عينيّ الى حين تعفنه، سأخرجه من القبر وآخذه معي وأبقى معه طوال الأيام والليالي اللازمة لكي أرى جسده يتفسخ، وشعره ينمو ثم يتوقف، وأظافره الزاحفة تخمش سكون العالم، ثم تتوقف، هي أيضاً، جفونه تتفتت ونظرة الموت تظهر من جديد، تتحداني أن أحدّق بها، وعظامه تتبدى بيضاء ونظيفة مثل رؤوس عجولٍ ميتة في الصحراء. كم من الوقت سيقتضي ذلك، هل تعرف، لكي يتحقق ذلك الموت الحقيقي، عُري العظام الكامل (سألتهُ قبل أن يتمكن من سؤالها)؟ كم من الوقت سيقتضي لكي يظهر الجوهر المُطلَق لخلودنا على الأرض، يا أرّويو، كم من الوقت، فوق كل شيء، نحتاج لأن نحتمل ليس فقط مشهد ما سنكون عليه بل الخلود على الأرض كما هو حقيقةً، بلا حكايات جنٍ ملفقة، بلا إيمانٍ في الروح أو قبولٍ بالبعث؟ كم من الوقت مضى عليكَ وأنتَ تراقب أباكَ، يا أرّويو؟ كم من الوقت مضى عليك وأنتَ تراقب موتاً إثر موت، يا أرويو، دون أن تعلم، أنتَ أيها الشجاع المسكين المُغفَّل، أن الموت ليس سوى ما يحدث في داخلنا ـ حسناً، أنتَ على حق، ولكن ليس حسبما تعتقد، ليس على أن الموت غير منفصل عن الحياة كما تعتقد، وإنما الموت داخل الحياة في الوقت الذي نظنّ فيه بأننا نعيش؟ أنا، هارييت وينسلو، كنتُ أعيش وفق أساليبٍ عدة موتاً في داخلي، مدركة بأنني ميّتة وهذا لأنني عرفت بأن الموت لا يوجد إلاّ في داخلي، فقط في داخلي، وما عدا ذلك لا يُحسَب. والآن أخبرني، أيها الجنرال توماس أرّويو، أخبرني إن كنتُ قد خرجتُ من نفسي، بشكلٍ ما، على نحوٍ غامض، أنا نفسي لا أعرف كيف، وعشتُ موتي في داخلي فقط، قد خرجتُ الآن للحياة خارج نفسي، الحياة التي تجاهلتها، ها إني أعترفُ بها الآن؛ وأنتَ جزء من تلك الحياة، لكنكَ جزء وحسب، يا رجلي الصغير، لا تكن فخوراً بنفسك، هناك ملايين الأشياء المتسارعة الى الأمام، وهناك كلماتي، وأحلامي، ووقتي، حتى وان تضاعفَ كما قلتَ عن وقت العجوز الذي سوف يكرهنا إذا ما منحناه الهدية، كما قلتَ، السبعين سنة الأخرى ليعيشها، فلسوف يبغضنا من أجل ذلك: أوه، هل حوسِبَ من قِبَل الآخرين بدلاً من أن يُحاسَب من قِبَلك، ،يا أرّويو؟ انه جزء من الحياة خارجي تلك التي تبدو الآن بشكلٍ خارق انها الوحيدة داخلي، هل تفهم؟ وهكذا هي عشيقتك المرأة لونا، وكذلك هي المرأة المسكينة التي أنقذتُ حياةَ ابنتها حتى وإن كنتُ أشكُ في جدوى ذلك، لو انني أستطيع إنجاب طفل ومن ثم أنقذ حياته مثلما أنقذتُ حياة مَن هي غير معروفة، وغير مُسمَّاة. أرّويو، إنني أعرف، أنا لم أنظر أبداً الى قومكَ، وأتمنّى لو أني فعلت، لا بد أنني خسرتُ شيئاً، ما الذي خسرته؟ هل هناك زوج من العيون كان يجب أن تلتقي بعينيّ، هل أنا منبوذة في تأسيس عالمٍ خارجي، لأول مرة، عالم خارج عالمي الموصَد، هل أنا منبوذة، يا أرّويو؟

Twitter: @ketab_n

ينبغي عليك أن تخبرني. **ليس باستطاعتي احتمال ذلك كله في وقتٍ قصير كهذا**. انني ضعيفة وأجنبية، كما أنني، حتى في رقتي الهزيلة، أحتاجُ الى حماية. هل تفهم هذا؟ومع هذا فلقد تعلمت. اني أبذلُ جهداً، أقسمُ على ذلك. اني أحاول أن أفهم كل هذا، أن أفهمك أنتَ، وأن أفهم بلدك، وشعبك، لكنني جزء من شعبي، ولا يمكنني إنكار مَن أنا، يا أرّويو وكل ما أملكه هنا ليس أباً أو أمّاً أو أي شيء آخر لكنه العجوز فقط، إنه الشيء الوحيد الذي بإمكاني أن أميّز نفسي فيه هنا، مثلما أحاول أن أفهمكم جميعاً. هو فقط، هل تسمع؟ لقد جعلتني أسمعكم جميعاً (قُلْ لي إن كنتُ أنسى شيئاً، يا أرويو)، ولقد حاولت أن أفهم لماذا تقوم بفعل كل هذا. لكنكَ إذا ما أتيتَ بعملٍ أستطيع من خلاله أن أرى أنكَ ستعمل على إدامة تلك الأشياء التي يقاتلون ضدها، الموتِ الكائن في داخلهم الذي يفرّون منه في هذه الحركة المُغرقَة التي وقعنا فيها جميعاً، إذا ما فكّرتُ بأنك تنوي ايذاءهم مثلما أوذيتَ أنتَ نفسك حين كنتَ ولَدَا، يا أرّويو، فإنك عندها، يا أرّويو، ستكون قد قتلتني وبعثتَ بي من جديد الى العزلة التي هي موتي الخاص بي، الموت الوحيد الذي عرفته على الاطلاق. لكنني لن أغفر لكَ هذا أبداً، يا أرّويو. لا تأتِ بأي عملٍ ضد شعبكَ. لا تأتِ، أيضاً، بأي عملٍ ضد شعبي **الوحيد**: العجوز الذي يكتب، يا أرّويو. أنا لن أغفر لكَ هذا، قالت.

ثم كانت الجثث المتخلفة عن الصدام القتالي في ليلة الخنازير الصارخة صراخاً طويلاً وحاداً متناثرةً حول الساحة أمام الكنيسة. رأت هـارييت النسخة طبق الأصـل لاحدى لوحات الفنانين العظماء التي كرهها عمّها الكبير ورَغِبَ بها في نفس الآن؛ رغبَ بها اذا ما كانت مشهورة ولا تُقدّر بثمن، لكنه كرهها حينما لم تستطع حتى شهرتها أن تخفي تشويهها للحقيقة، ومنظوراتها الخيالية غير الحقيقية وذات التصوير المسرحي الذاتي. (هل كره عمّها الكبير شيئاً اكثر من كرهه للمسرح بديلاً عن الحياة: كل الأشياء التي لم تنسجم وتختفي في مخططه للأشياء صامتة ومتكتمة ليستطيع هو، السيد هالستون، غزو مركز العالم الجليل؟؟ الى أي مدى كان كرهه هذا، كادت أن تصرخ بسورة غضب). لقد ذكرتها تلك الجثث بمسيح مانتينيا(*) وهو في غاية التوحد فوق طاولة موته، وبقدميه وكامل جسمه ينتأ خارج قماشة اللوحة، يركل المتفرج كأنما يبتغي بعنف أن يوقظه أو يوقظها على حقيقة أن الموت لم يكن نبيلاً بل هو وضيع، ليس صافياً رائقاً بل تشنجيّ، ليس واعداً بل نهائي لا يُلغَى، ولا

(*) Mantegna, Andrea، أندريا مانتينيا (١٤٣١ ـ ١٥٠٦): رسام ايطالي يتمثل فنه بشخوص إنسانية جامدة في مواجهة خلفية سوداء ترمز الى أوضاع مسرحية، وباستخدام مسرحي رفيع المستوى للمنظور قصير الخطوط. من أعماله الباقية: «استشهاد القديس كريستوفر» ١٤٩٥ بالفريسكو. ورسومات «القديس سباستيان» ١٤٦٠. و «موت المسيح» ١٥٠٦. ـ الموسوعة ـ.

Twitter: @ketab_n

يمكن إسترداده: العينان الزجاجيتان نصف المغمضتين، اللحية الهزيلة الضعيفة ذات الشطرين، القدمان المتقرحتان، الفم نصف المفتوح الذي لا يتنفس، المنخران المسدودان، تجلط الدم على جانبي الأنف، الشعر المجدول المشرب بالغبار والعَرَق، الاحساس المروّع بحضور الموت الحادث حديثاً، الاحساس بشتائمهم وقَسَمهم واندفاعهم ومشيهم ووقوفهم منتصبين قبل ساعات من الآن فقط. كان أرّويو على حق حين تحدّثَ عن موت أبيه وسَهر الابن على ما تبقى منه: ماذا لو انهم انبثقوا فجأةً عائدين وأثبتوا أننا ميتون أصلاً (هذا ما كانت قد عرفته قبل لحظة عندما إستلقت مع أرّويو في عربة القطار) وكنا نضاعفُ وقتنا في ظروفٍ أخرى، وفي مكانٍ آخر، وفي زمانٍ آخر. هل كانت كل هذه الأجساد المتناثرة الممددة حول الساحة قد شُدَّتْ بعناية هناك مثل كثيرٍ من الدمى حائلة اللون (باهتون مثلما الضباب الخفيف الذي روَّع أرّويو فوق الأراضي الواطئة التي إلتمست للتو طريقها الى قمم الجبال) والتي هي ببساطة البرهان على انهم أنفسهم ـ العجوز والجنرال الشاب، والدها الهائم على وجهه وأمها الباقية الثابتة، بيدرو الصغير والمرأة ذات الوجه القمري ـ كانوا جميعاً أجساداً مُحتَلة بالموت، جثثاً مسكونة الآن بأناسٍ يُدعَون هارييت وينسلو، توماس أرّويو، أمبروس بيرس... توقفت في رعبٍ بارد، كأنما تُسّمي أحداً، خاصة لأنها أول مرة، وكان هذا في الحقيقة إنتهاكاً لحياته: إذ بقولها لهذا الاسم فإنها حكمت حالاً على العجوز بالموت، رأته الآن ممدداً هناك بين الجثث فوق أرض المعركة، متسائلةً إن كان أرّويو قد قتله، أم هي في تخيلاتها، أم هو في تشهيه الخاص المُعتِم المتاهي؛ إسمٌ قرأته على أغلفة الكتب التي حملها العجوز معه، إسمٌ لم يكن بالتأكيد اسمه، لأنه لم يرد أن يُسَمَّى واحترمت هي رغبته المعلَنة، واحترمت بالتالي رغباته غير المُعلَنة أيضاً: كانت تتعلم أن تحاذر ما هو غير مرئي عبر ما رأته، وما قد رأته، عبر ما لم تستطع رؤيته. كانت تلك الجثث مفعمة بالحياة قبل بضع ساعات، وكانت تراها الآن وقد شُقَّتْ وإنفتحتْ بالحراب، أحشاؤها مندلقة الى الخارج، وأمخاخها أُصيبت بالرصاص، وصدورها مخروقة بشظايا القنابل والألغام، وسيقانها مُنَقطة بحُفَرٍ حمراء بركانية بفعلٍ مسحوق الكبريت، وأردافها معجونة بالبراز الأخير، وسراويلها مُبلَلة بالبول الأخير ـ المنيّ الأخير، ربما، اذا ما كانوا قد ماتوا وبهم إنتصاب يحدث لبعض الرجال حينما يواجهون الموت. كان أمبروس بيرس إسماً ميتاً مطبوعاً على غلافي كتابين إرتحلَ العجوز معهما. لم تستطع أن تدعوه سرفانتس، باسم المؤلف على الكتاب الآخر. ولذا، فربما تكونُ دَعَوتُهُ ببيرس كأنها إحتمالٌ بعيد تماماً. لكن هذا الاسم الأخير سبب لها قشعريرة: كان إسماً خفياً، لأنه ببساطة لم يكن للعجوز إسم؛ كان، الآن، إسماً ميتاً. إسماً ميتاً تماماً مثلما هي الجثث التي إنبطحت بإتقان حول ساحة القرية. هل كان لها أسماء في يومٍ ما؟

Twitter: @ketab_n

مَن كان هناك بين الأجساد التي رأتها الآن تُشَكِّلُ منحنيات عبر الساحة ممن رأتهم في العيد وفي الصباح، بينما كانت النسوة النائحات يقُمنَ دُكاناً في الزوايا ويبدأنَ بتحويلاتهن الطقوسية لكلٍ من الحياة والموت الى إيماءاتٍ وكلمات: مَن كان هناك ممن عرفتهم؟ هل كان والدها هناك؟ هل كان الغرينغو العجوز هناك؟ هل كان والد أرّويو هناك وسط النواح والغبار المتصاعد الجمرات الخامدة لوجباتٍ منسيّة؟

«أُطلقت النارُ على أبي حتى الموت في يوكاتان. عَقَدَ الفاجر العجوز العزمَ على الحصول على فتاةٍ هندية جميلة، فقط، في مزرعة دون أوليغاريو مولينا، الذي كان الحاكم الدائم للمقاطعة. تلك كانت أيام ازدهار زراعة السيزال(١). كلنا كنا على علم بأن لا شيء يكسبنا الكثير من المال مثل محصول الأغاف. (٢) كانت يوكاتان مُدَارة من قبل الطبقة المنغلقة الالهية ـ هذا ما أطلقوه على أنفسهم، الخنازير الفاجرة. كان أبي مالك أراضٍ كبيراً في الشمال، حيث نحن الآن؛ صحراء ومواشي وبعض الكروم هنا وهناك، وكذلك نباتات الصبّار الأميركي ومحاصيل قطن جيدة. الليالي باردة، هنا في الصحراء، كما تعرفين. وفي الأعالي هواءٌ رقيق. وهناك في الأسفل يقولون انها حارة ورطبة على مدار السنة. قِشرةُ أرضٍ هَشَّة، بلا أنهر.آبار عميقة. ويقولون ان هناك أدغالاً رمادية. لم يسبق لي أن كنت هناك. يقولون بأنه اعتيدَ على إلقاء العذارى في الآبار. كان أبي ضيفاً واعتقد بأن له حقاً في نيل الفتاة الجميلة التي رآها تعمل في المزرعة. إعتاد أن يفعل هذا دائماً.

«لقد نالها، يقولون، في مساء الثورة تحديداً. كان عجوزاً حينذاك، لكنه يتميّز بفحولةٍ ما كانت له من قبل. ربما لأن الأرض كانت تفوح برائحة الكبريت والدم، اعتقدَ بأنه مُشرفٌ على الغوص في حفرة جهنم قريباً وعليه أن يُسرع ويهرع الى آخر جماعٍ له كبير ومجيد. يقولون بأنه نالها في غرفته وانها رفستْ «الناموسية» وأسقطتها عليهما وانه هدَرَ بلذة بسبب ذلك، شاعراً بتخضل دمها يلطّخُ شبكة الناموسية مثلما يقع الذباب والبعوض في نسيج القماش متهاوياً مثل الضوء وشانقاً عدداً كبيراً منها فوقهما، وترتجف قوائم السرير النحاسية، وكذلك الفتاة. والآن ثمة رجل آخر مثلي ـ حبيبُ قلبها، أنتِ تعرفين، رجلها الموعود ـ كان مكلفاً بحمل مفاتيح تلك المزرعة، وربما بتعبئة الساعة، مَن يدري؟ ورآها تخرج من غرفة أبي وضربها على وجهها بالمفاتيح، لكنها لم تصرخ، قالت انه هناك في الداخل ـ أبي في الداخل، أيتها الغرينغويتا، يفركُ تقرحاته وينظفها من الدم، رجلٌ عجوز قوي

(١) سيزال Sisal: ليف أبيض متين تُتخذ منه الحبال. أو نبات تُتخذ من أليافه الحبال المعروفة باسمه. ـ المورد.

(٢) Maguey: الأغاف أو الصبّار الأميركي أو أليافه. ـ المورد ـ.

Twitter: @ketab_n

معتدٌ بذكورته الخالدة متخيل بأنه كانَ يضاجع، عبرَ فتاةٍ عذراء واحدة، جميع نساء المكسيك في أيامهن القمرية، مستحوذاً على القمر مثلما إستحوذَ على إمرأة، أوه، الوغد المُضاجع، كم كرهته وكم تمنيت لو كنتُ موجوداً هناك حينما قام هذان الشابان، الشابان مثلي و. . . و. . . اللعنة، ليس أنتِ، يا آنسة هارييت، اللعنة عليكِ، ليست مثلكِ، مثل امرأة أخرى لم يسبق لي أن نلتها، ليست مثل لالونا حتّى، أوه، اللعنة، تلك الفتاة الأخيرة التي لم ينلْ أبي مثلها من قبل ليست مثل أي امرأة سبقَ لي وأن نلتها، أوه، اللعنة عليكِ، أيتها الغرينغا، ليس من أحدٍ مثل تلك المرأة، أقول اللعنة عليكِ واللعنة على لالونا وجميع النساء الأخريات اللواتي لا يشابهن أمي، التي هي الأخت التوأم لتلك المرأة الأخيرة التي لم ينل مثلها أبي الملعون: لقد قتلاه هناك في السرير، هل تعرفين كيف؟ إنه لشيء فظيع: لقد غرزوا مفاتيح المزرعة في فمه، كل المفاتيح، وجعلوه يبتلع المفاتيح، أيتها الغرينغا، الى أن إهتزَّ وإزرقّ لونُه بفعل المعدن، وبعدها قاما بسحبه إلى الخارج ملفوفاً بالناموسية وبالملاءات في ساعات الليل المتأخرة، حينما لا يُنتظر الفجر على الاطلاق. وضعاه في سلة الغسيل وانتظرا حتى الفجر، ثم أخذاه الى البئر العميقة، وعلّقه هناك، علّقه من خصيتيه بكلّاب يستخدمونه لرفع السيزال، أيتها الغرينغا، وقال لها: انني سأذهب لألتحق بالثورة، أما أنتِ فعليكِ أن تظلي هنا وأن لا تتفوهي بشيء. تجيئين لتريه يتعفن ويتفسخ مُعلّقاً من خصيتيه هنا حيث لن يعرف أحد مكانه. أنتِ لا تعرفين شيئاً، تذكري هذا. فقط تعالي لتريه وحدك. لا تدعي أحداً يعرف. ستخبرينني عندما يبلى ولا يتبقى منه أي شيء غير عظامه النظيفة القديمة. عندها؛ بامكانكِ أن تكشفيه وتتركي له أن يُدفَنْ دفناً مسيحياً.

«جئتُ من الشمال. هذا الرجل المجهول، قاتلُ أبي، من الجنوب. والثورة تتحرك وترحل. سوف نلتقي في مكانٍ ما. ربما في العاصمة، في مكسيكوسيتي. سوف أعانقه. سوف يأتي ليشاهد هذه الأرض حيث كان أبي في يوم ما قوياً ومهيب الجانب. سوف أهبط لأشاهد الأرض حيث هو هيكلٌ عظمي مُعَلّق في بئر».

«ولسوف تعشق الفتاة، وتأخذها من قاتل أبيك».

«ربما».

ثم نالها مرة أخرى وأحسَّتْ به هائجاً في غاية العنف وفي غاية العذوبة،

خلال مدةٍ كأنها لحظة أبدية، منتظراً إيّاها أن تبلغَ ذروة ما بلغَهُ، معتمداً ليس فقط على جذعه القوي وإنما على ضربة القلب الأخرى هذه الدّاقة والساحقة المنبعثة من عمقه. عرفتْ بأن هذه هي لحظة وانها لن تحصل عليها ثانية أبداً، ليس لأنها عاجزة عن الحصول على الجنس ثانيةً وثانية، ولكن لأنها لا تستطيع أن تحصل من أرّويو على شيء آخر.

Twitter: @ketab_n

من اللذة كانت تحدياً لجوهر الكون، وساخرة من الاحترام (ما كانت لتقوى على إحتمالها في داخلها، قبل شهر)، صرخةُ حبٍ قالت للعالم أن هذا هو الأمر الوحيد الذي يستحق أن يُفعَل، الذي يستحق أن يُنال، الذي يستحق أن يُعرَف، وليس أي شيء سواه في العالم، ليس أي شيء سوى هذه اللحظة، بين تلك اللحظة الأخرى التي منحتنا الولادة وتلك اللحظة النهائية التي أخذتْ حياتنا بعيداً الى الأبد. بين هاتين اللحظتين، دعني أحصل فقط على هذه اللحظة، صَلَّت، ثم انتزعتْ نفسها بعنف من جسد أرّوبو بايماءةٍ رهيبة، إيماءة بُغضٍ لا نهائي للرجل الذي وفرَّ لها أن تكون ما عرفت انها لن تكون عليه أبداً، وبمعرفتها هذه، اكتشفتْ ان ما كان يمنحه لها ويستطيع منحه لها في أي وقت، كان على وجه الدِقةَ ما ليس بإمكانه منحه لها: ترجمة وفرة جسمه في الرحلة الطويلة، التدريجية، المُشتَتة، الماضية على الأقدام في درب السنين. كانت هذه اللحظة الاستثنائية هي لحظتها للأبد، لكن مصدر اللحظة لا يمكن أن يكون لها أبداً. بالنسبة للفتاة التي تنتظر جثة حتى تبلى وهي مُعلّقة فوق بئرٍ مقدسة في يوكاتان، فإن امتلاكها لمصدر اللحظة أمرٌ جائز، أو هو ممكن بالنسبة لعجوزٍ حافي القدمين رفضَ ثياباً مدينية، أو بالنسبة لامرأة ولود تُسمَّى لاغاردونيا، أو بالنسبة لامرأة ذات وجهٍ قَمَري والتي سمحت لعشيقها أن ينالَ امرأةً أخرى بينما انتظرت هي بصبر وراء الباب ـ بالنسبة لقومٍ وثنيين فعلاً جاثين على ركبهم يتحركون صوبَ مسيحٍ مكسّو بالدم وملفوف بالمخمل ومُتوّج بالشوك، أو قاتل شاب آخر، صِنو أرّوبو، يسير مع الثورة من الجنوب ليلتقي بأرّوبو عند سرَّة هذه البلاد التي كانت مثل جسدٍ بُنّي، مجموع أجسادها البُنيّة، المتكونة على هيئة قرنٍ من جلدٍ قاسٍ ولحمٍ متعطش وأفخاذٍ متعرقة وأذرع عجفاء ـ بالنسبة لذلك كله، فإن هذا جائز، ولكن ليس أبداً بالنسبة لها، ليس بالامكان أن يكون لها معنى، وامتداد، وحضور مستمر متواصل في مستقبلها الخاص، بصرف النظر عمّا سيكون عليه هذا المستقبل.

كانت في تلك اللحظة، بين ذراعي أرّوبو، قد كرهتْ أرّوبو لهذا السبب على الأغلب: لقد تعرفتْ على هذا العالم ولم تستطع أبداً أن تكون جزءاً منه، وعرف هو بهذا، ومع ذلك قَدَّمَ لها العالم، وجعلها تتذوقه، لكنه عرفَ بأن لا شيء بوسعه أن يجمعهما الى بعضهما للأبد، حتى انه ربما ضحك عليها: أما كان من الممكن أن تكوني في حالٍ أفضل لو أنكِ لم تأتِ أبداً الى هنا، أيتها الغرينغويتا؟ وقالت هي لا. إذا تعاملتُ معكِ باحترام؟ وقالت هي لا. إذا أعدتكِ على الفور الى الحدود مصحوبة برجالي؟ وقالت هي لا. إذا بقيتِ هنا معي الى الأبد وتخليتُ عن لالونا وجئتِ معلي لتقابلي أخي المجهول من يوكاتان الذي

Twitter: @ketab_n

قتل أبي؟ وقالت هي لا، لا، لا. (إذا ما عشنا معاً وربّينا أطفالاً وتزوجنا وشِخْنا سوية، سي، (*) يا الغرينغاويتا؟)

لا.

«أتخشين رصاصة تقتلني في أحد الأيام؟».

«لا. انني أخشى مما يمكن أن تقتله أنتَ».

«ها، صاحبكِ الغرينغو، أهذا ما تفكرين به؟».

«وانتَ، يا أرّويو. انني أخشى مما يمكن أن تفعله لنفسكَ».

«صدّقيني، يا الغرينغا، أنا لستُ نفسي معظم الوقت. أجيءُ مُسرعاً خارجاً عبر حركة خفيفة، من كل ما قلته لكِ: إن ماضيّ هو الذئب الذي يتعقبني فوق هذه الصحراء. لقد توقفتُ هنا عند البيت الذي كان ماضيّ. لكنه ما عادَ كذلك بعد الآن. وها قد عرفتِ ذلك الآن. علينا أن نتحرك ونرحل. الحركة لم تتوقف بعد.

«هل خالفتَ الأوامر بمكوثكَ هنا فترةً طويلة؟».

«لا. انني أقاتل. تلك هي أوامري. لكن» ـ ضحكَ أرّويو ـ «إن بانشو فيللا يكره كُل مَن يفكّر بالرجوع الى البيت. إن هذا بمثابة خيانة، تقريباً. لقد قامرتُ كثيراً باستيلائي على مزرعة الميراندا ومكوثي هنا».

كان ماضياً نحو الجنوب، الى مكسيكو سيتي، لينضّم الى أخيه الذي قتل أباه.

ولم تكن هي كذلك.

«هذا ليس ممكناً»، قالت بمرارة. «أنتَ توفّر لي ما ليس باستطاعتي أن أكونه». وهذا ما لم تغفره لتوماس أرّويو أبداً.

لقد رَغِبَتْ، في النهاية، في الوصول الى يد العجوز العظمية المنمشة، بخاتم زواجها الغليظ، وأن تخبره بأنها فعلتْ ما فعلتْ لا لتنتقم له، بل لتجازي أرّويو على الخطأ الذي اقترفه بحقها: لقد عَرِفَ بأنها لن تكون ما أراها أنها ممكن أن تكون عليه. كان عليها أن تُري أرّويو، وهي محكومة بالعودة الى وطنها برفقة جسد الغرينغو العجوز، بأن لا أحد يملك الحق في العودة الى بيته ثانيةً.

ومع هذا عرفتْ هاربيت وينسلو (قالت هذا للكاتب الضائع، مربتةً على يده المُغطاة بشعرٍ أبيض) انها لم تؤذِ أرّويو لكنها منحتهُ إنتصار البطل: موتٌ شاب. كما إن الغرينغو العجوز، كذلك، قد فازَ بنصره الخاص: جاء الى المكسيك ليموت. آه، أيها العجوز، لقد

(*) بالاسبانية كما وردت في النص: أجل؟، أو ها، ما رأيكِ؟. ـ المترجم ـ.

Twitter: @ketab_n

فعلتها، أليس كذلك ـ إنك الجثة الجميلة التي أردتَ أن تكونها. آه، أيها الجنرال أرّويو، لقد فعلتها، أليس كذلك ـ لقد مُتَّ شاباً، مثلما أردتَ أن تموت. آه، أيها العجوز. آه، أيها الشاب.

Twitter: @ketab_n

وحيدة تجلس الآن وتتذكر .

Twitter: @ketab_n

ثبت الشخصيات والأحداث التاريخية

تم إستقاء كافة المعلومات حول الشخصيات والأحداث التاريخية الواردة في الرواية، وكذلك الهوامش المهورة بـ (الموسوعة)، من:
Grolier Academic Encyclopedia.
Ed 1986.

١ـ بانشو فيللا Villa, Pancho

فرانسيسكو «بانشو» فيللا، واسمه الأصلي: دوروتيو أرانغو Doroteo Arango. ولد عام ١٨٧٨، وتوفي ١٩٢٣.

قاطع طريق وثوري مكسيكي، ثم أصبح بطلاً شعبياً على غرار روبن هود، إذ دافع عن الاصلاحات الاجتماعية. فرَّ الى الجبال بعد قتله لأحد الرجال دفاعاً عن شرف أخته، حوالي العام ١٨٩٤، وهناك تحوّل الى قائد لقُطّاع الطُرق.

ساند ثورة فرانسيسكو مادیرو (١٩١٠ ـ ١٩١١) ضد الدكتاتور بورفيريو دياز، وساهم في إسقاطه. وأثناء قتاله من أجل تطويق الحكومة لصالح مادیرو، حُكمَ على فيللا بالاعدام حتى الموت من قبل قائده جين فكتوريانو هويرتا، عام ١٩١٢، غير أن مادیرو استبدل حكم الاعدام بالسجن. وسرعان ما فرَّ فيللا من سجنه. وفي العام ١٩١٣ انضم هو وأتباعه الى فينوستيانو كارانزا في انتفاضةٍ ضد هويرتا الذي انقلب على مادیرو وتحوّل الى دكتاتور.

وخلال وجوده كحاكم مؤقت لمنطقة تشايهواهوا، ولكونه الجنرال الأكثر قوة في الشمال المكسيكي، ساندَ فيللا فقراء تلك المنطقة في مطالبهم من أجل اصلاحات أساسية.

وعلى إثر طرد هويرتا في ١٩١٤، انشق فيللا على أكثر الأشخاص محافظةً، ألا وهو كارانزا، واحتلّ مكسيكو سيتي مع اميليانيو زاباتا. وبعد هزيمته في سيلايا وليون عام ١٩١٥ على يد جنرال كارانزا، ألفارو أوبريغون، انسحب فيللا الى تشايهواهوا، حيث قاد من هناك غارات فدائية (حرب عصابات) ومن ضمنها هجمات على مكسيكو سيتي، انتقاماً

Twitter: @ketab_n

لاعتراف رئيس الولايات المتحدة وودرو ويلسون بكارانزا في شهر تشرين أول/ أكتوبر من العام ١٩١٥.

وكنتيجة لغزو قوات الولايات المتحدة للمكسيك (١٩١٦) الذي قاده الجنرال جون بيرشنغ، نجح فيللا في الإفلات، وواصل قتاله ضد كارانزا.

وبعد مقتل كارانزا (١٩٢٠) في انتفاضة أغوايريبيتا، والتي أطاحت بنظام حكمه، أُعفي عن فيللا، ومُنِحَ مزرعةً كبيرةً مقابل إلقاء سلاحه.

عاش بعد ذلك متقاعداً الى أن تم اغتياله في بارال Parral، ضمن منطقة تشايهواهوا، على يد اتباع أوبريغون، عام ١٩٢٣.

٢ ـ وليام راندولف هيرست William Randolph Hearst

واحد من أكثر الرموز إثارة للخلاف والجدل في الصحافة الأميركية الحديثة.

ولد في سان فرانسيسكو في ٢٩ نيسان، ابريل عام ١٨٦٣، وتوفي في ١٤ آب، أغسطس عام ١٩٥١. هو الباني لسلسلة من المؤسسات الصحفية، والتي ضمَّتْ في أوج إزدهارها ٢٥ صحيفة يومية، و ١١ إصداراً في كل يوم أحد توزعتِ في ١٩ مدينة.

هو الإبن الوحيد لجورج وفويب هيرست. كان والده جورج قطباً في مجال التعدين ونائباً في حكومة الولايات المتحدة. اشترى صحيفة «سان فرانسيسكو ايجزامنيور» عام ١٨٨٠. وعلى إثر طرد وليام هيرست من جامعة هارفرد عام ١٨٨٧، قام باغتصاب مركز المحرر المسؤول في صحيفة أبيه. ثم وظَّف طاقماً من أصحاب المواهب وتحدّى به صحيفة «المؤرخ Chronicle» الراسخة في مجال الانتشار، مستخدماً الأساليب الباحثة عن الاثارة، والتي وسمت فيما بعد مشاريعه النيويوركية. عام ١٨٩٣ تجاوزت صحيفة «الفاحص Examiner» الصحيفة الأخرى «المؤرخ». وفي العام ١٨٩٥ انتقل هيرست الى مدينة نيويورك، حيث عقد صفقة لشراء صحيفة «الجريدة الصباحية Morning Journal» الفاشلة.

بدأ هيرست على الفور المنافسة الحادّة مع صحيفة جوزيف بوليتزر «عالم نيويورك NewYork World» التي مثّلتْ الاتجاه الصحفي في صحافة فترة ١٨٩٠، والتي عُرِفَت بـ «الصحافة الصفراء». وبداية من «الطفل الأصفر Yellow Kid» الصحيفة المُصوّرة برسوم ريتشارد فلتون آوتكولت، باتت الصحافة الصفراء ولمدة طويلة هي المثيرة، وقد اتسمت بالعناوين الكبيرة وبالقصص المتكلفة المتوترة الفاقدة لحدود المصداقية.

كانت أكثر المظاهر الدالة على الضغينة بين هيرست وبوليتزر تلك التغطية الشخصية للحرب الاسبانية ـ الأميركية. بدأ بوليتزر بالتراجع عن أسلوب الصحافة الصفراء، لكن هيرست استمر باستخدام تلك الأساليب لسنوات طويلة. وبينما أيّد بوليتزر استخدام القوة في كوبا، كما فعل هيرست، فإنه لم يحبّذ ضمَّ جزر الفلبين، الخطوة التي شجعها هيرست بقوة. ومن بين كل الأساطير المحيطة بهيرست، فإن الأكثر شيوعاً هي التي تقول بأنه كان

Twitter: @ketab_n

مسؤولاً عن نشوب الحرب الاسبانية ـ الأميركية في سبيل زيادة مبيعات الصحيفة. وفي الحقيقة، كان هيرست مجرد واحد من بين العديد من الأميركيين ذوي النفوذ والسلطة الذين أحسّوا بالحاجة الى دفع البلاد نحو التنافس مع البريطانين، والفرنسيين، والألمان على القواعد فيما وراء البحار.

ظهرت صحف هيرست في نيويورك كل صباح، وكل مساء، وكل يوم أحد. عام ١٩٠١ تغيّر اسم الـ Morning Journal الى «الأميركي American». وفي شيكاغو ظهرت صحيفة «الأميركي» المسائية عام ١٩٠٠، و«الفاحص Examiner» الصباحية عام ١٩٠٢. وبدأت صحيفة «الفاحص اللوس أنجلوسي Los Angelos Examiner» الصباحية بالظهور عام ١٩٠٣، متنافسة مع «أزمان لوس أنجلوس تايمز». وفي بوسطن بدأت صحيفة «الأميركي» المسائية بالظهور عام ١٩٠٤. كما امتلك هيرست أيضاً مؤسسة لبيع المواد الصحفية المعدة للنشر، وكانت تُدعى King Feature، وكذلك الملحق الاسبوعي لصحيفة «الأميركي الاسبوعية American Weekly»، وعدد من المجلات، ومحطات الاذاعة، وشركات الانتاج السينمائي. وفي عام ١٩٠٩ أسس هيرست «وكالة الانباء News Service» الدولية.

كان هيرست في بداية مهنته مدافعاً عن الاقتراحات التقدمية مثل الانتخاب العام للنواب وضريبة الدخل التصاعدية. كما انه حارب سلطة وقوة شركات السكك الحديدية وفوائدها، واستخدم، بشكل عام، صحفه من أجل الاصلاحات العائدة الى عامة الناس. عمل لمدة وجيزة (١٩٠٣ ـ ١٩٠٧) في هيئة النواب الأميركيين، وكان مجادلاً قوياً من أجل المرشح الديموقراطي للرئاسة عام ١٩٠٤. وبعد فترة طويلة من العداء والخصومة مع الـ Tammany Hall، عقد صفقة مع هذه المنظمة ورشح نفسه حاكماً لنيويورك بالاستناد الى دعمها عام ١٩٠٨. ولقد أدّت هزيمته الى التحطم النهائي لطموحاته السياسية الشخصية.

وفي خاتمة المطاف تحوّل هيرست الى رجل محافظ للغاية، وخصم صريح لسياسة فرانكلين ديلانو روزفلت، المُرشح الذي سانده وأيده بحماس عام ١٩٣٢.

وفي عام ١٩٤٧ رحل هيرست عن قصره سان سيمون المُترف الى منطقة بفرلي هيلز، ليتقاعد ويعيش مع الممثلة ماريون دايفيس، عشيقته طوال اكثر من ثلاثين سنة.

تسلم ابنه ويليام راندولف هيرست رئاسة تحرير صحف أبيه بعد وفاته.

٣ ـ فينوستيانو كارانزا Caranza, Venustiano

ولد عام ١٨٥٩، وتوفي عام ١٩٢٠. كان ثورياً مكسيكياً ورئيساً لبلاده.

تحدّر من أسرة ثرية في كواترو سيانيجاز، كواهويلا. عندما عارض الرئيس بورفيريو دياز ترشيحه كحاكم لكواهويلا، انضم كارانزا الى الثورة التي أطاحت بدياز في ١٩١١. وبعدها، في العام ١٩١٣، ترأس القوات المضادة لفكتوريانو هويرتا.

Twitter: @ketab_n

وعلى إثر انتصاره، وبعد ان هزمَ يانشوفيللا واميليانو زاباتا في صراع على السلطة، أصبح كارانزا رئيساً للبلاد: أول مرة عام ١٩١٥ بشكلٍ مؤقت. وعام ١٩١٧ بالانتخاب. واتسمت رئاسته بعدم الاتفاق مع الولايات المتحدة حولَ الغزو الذي قاده الجنرال بيرشنغ، وحول حقوق الملكية الاميركية. ومع انه كان يفضّل الاصلاحات السياسية، إلّا انه عارض الحركة العمالية، والاصلاح الزراعي، والدستور التقدمي في ١٩١٧.

أطاحَ به تحالف الإصلاحيين عام ١٩٢٠، الذي قاده ألفارو أوبريغون، وقُتل في منطقة تلاكسكالا نتونغو خلال محاولته الفرار.

٤ ـ ألفارو أوبريغون Obregon, Alvaro

جنرال مكسيكي. ولد عام ١٨٨٠، وتوفي عام ١٩٢٨. كان رئيساً للمكسيك في أوائل العشرينات، معيداً القانون والانضباط للبلاد بعد عشر سنوات من التشوش والاضطراب السياسي الكامل.

تحدّر أوبريغون من عائلة عمالية في شمال المكسيك، واشتغل عاملاً في فترة شبابه. وبعدما تمت الاطاحة بالدكتاتور بورفيريو دياز إثر ثورة ١٩١٠، انضمَ اوبريغون الى الثوّار، وسرعان ما برز وترقى نتيجة لكفاءته العسكرية.

انضم الى فينوستيانو كارانزا في قتاله ضد فكتوريانو هويرتا (١٩١٣ ـ ١٩١٤)، وبات في آخر الأمر الجنرال الأشد تأثيراً والأكثر قوة في معسكر كارانزا. وبعدها، قاد أوبريغون حملة عسكرية ضد قوات بانشو فيللا واميليانو زاباتا ودحرهما، وبذلك هيأ لكرانزا ان يصبح رئيساً للمكسيك عام ١٩١٥.

وخلال الخمس سنوات بعد ذلك، قام أوبريغون، الذي قاوم سياسات كارانزا المحافظة، بتكريس نفسه لتجميع حلف متقدم من العسكريين والمُنادين باعادة توزيع الأراضي توزيعاً عادلاً ومن المنظمات العمالية. وعندما أحبط كارانزا ترشيح أوبريغون للرئاسة، عمل حلف الأخير على الاطاحة بكارانزا، محققاً ذلك في نهاية الأمر في أيار ـ مايو عام ١٩٢٠. وتم انتخابه رئيساً في الأول من أيلول/ سبتمبر من العام نفسه، حيث عمل بعد ذلك على التأثير على عددٍ من المنادين بالاصلاح الزراعي والعمالي، وظل قوة سياسية مهمة بعد تركه لمنصبه عام ١٩٢٤.

أُعيد انتخابه رئيساً عام ١٩٢٨، لكنه أُغتيل قبل تسلمه لمهماته ثانيةً.

٥ ـ إميليانو زاباتا Zapata, Emiliano

ثوري مكسيكي وأحد المنادين بالاصلاح الزراعي. ولد عام ١٨٧٩ (؟) وتوفي عام ١٩١٩. لعب زاباتا دوراً حاسماً في واحدة من أهم مراحل التاريخ المكسيكي عنفاً وهياجاً.

ابنٌ لفلاحين هجينين ثريين، وأمضى سنوات حياته الأولى كسائق بغال، ومدرّب

Twitter: @ketab_n

للخيول، وراعٍ للبقر، ومحاصص في أرض مسقط رأسه في موريلوس More loss.

في العام ١٩٠٩، عندما هُددت قريته بفقدان أراضيها بسبب من مطالبات صاحب المزرعة الكبيرة المجاورة، انتخب المزارعون زاباتا ليقودهم في نضالهم من أجل الاحتفاظ بالأرض. وفي ربيع ١٩١٠ نظّم زاباتا احتلالهم للأراضي المنتزعة منهم. وهكذا انضمّت اليه عدة قرى تنادي بمطالبه وأهدافه، وبعدها وجد نفسه القائد لحركة فلاحية نامية.

تحالف زاباتا مع فرانسيسكو ماديرو عام ١٩١١ للاطاحة بيورفيريو دياز. وما إن بات ماديرو في السلطة، حتى أتهمه زاباتا بخيانة الثورة لفشله في استعادة الأرض لصالح الهنود تحت النظام المكسيكي المشاعي القديم المتمثل بملكية المزارعين لأرض قريتهم المزروعة. ثم نادى زاباتا بـ (خطة أيالا) في ٢٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١١، والتي تضمنتْ الدعوة الى اصلاحات زراعية جذرية، ورفع شعار «الأرض والحرية».

بعد سقوط ماديرو (فبراير/ شباط ١٩١٣) قاتل زاباتا ضد خلفه فكتوريانو هويرتا (أُطيح به في أيار/ مايو ١٩١٤)، ومن ثم تحالف مع قائد حرب العصابات بانشو فيللا ضد الأكثر اعتدالاً فينوستيانو كارانزا.

وفي عام ١٩١٧ هزم كارانزا فيللا وأجبر زاباتا على الإنسحاب الى منطقة موريلوس. ومن هناك شن زاباتا حرب عصابات الى ان تمت خيانته وقُتل عام ١٩١٩.

ورغم الجدل الدائر حول مبادئه ومُثله، فإن زاباتا يُعتبر بطلاً وطنياً في المكسيك. وتمت عملية تبني بعض برامجه حول تقسيم الأرض من قبل الرؤساء اللاحقين.

٦ ـ فرانسيسكو ماديرو Madero, Francisco

هو رجل الدولة المكسيكي المولود في الثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٨٧٣، والمتوفى عام ١٩١٣.

قاد بلاده خلال ثورة ١٩١٠ وأصبح رئيساً لها من ١٩١١ حتى ١٩١٣.

ابن لعائلة ثرية من أصحاب الأراضي. درس في كاليفورنيا وباريس. قام في مستهل حياته بالتخطيط لأن يضع موضع التطبيق مبادىء الادارة العلمية في مزارع عائلته، لكنه سرعان ما أُفْتِتنَ بالسياسة وانجذب اليها.

أصبح بطل التحرر المكسيكي والاصلاح السياسي، كما انه انتقد، بصفته كاتباً سياسياً في المجلة الأسبوعية «الديموقراطية EL Democrat» نظام الدكتاتور المكسيكي بورفيريو دياز.

نادى في كتابه المُعنون بـ «النجاح الرئيسي لـ ١٩١٠» بالعودة الى المبادىء الليبرالية للدستور المكسيكي للعام ١٨٥٧، ورشح نفسه للرئاسة في مواجهة دياز عام ١٩١٠. لكنه خسر بسبب التزييف والاحتيال الانتخابيين. أُسر وفرَّ من أسره عبر الحدود الى تكساس.

Twitter: @ketab_n

ثم أعلن نفسه رئيساً مؤقتاً خلال وجوده في سان أنطونيو في السابع من تشرين الأول، اكتوبر عام ١٩١٠، ونادى في بيانه بقيام ثورة للاطاحة بدياز.

انتصرت الثورة بمساندة كل من بانشو فيللا، واميليانو زاباتا، و باسكوال أوروزكو، في أيار/ مايو عام ١٩١١، وبعد ذلك بعدة أشهر تم انتخاب ماديرو رئيساً للبلاد مُرحباً به على انه «رسول الديموقراطية».

ومع انه حاول التحرك نحو الديمقراطية السياسية، الاّ ان اقتراحاته لم تُرض وتُشبع جوع الناس الى التغيير الاجتماعي والاقتصادي، ثم تحّول زاباتا الى بطل الاصلاح الفلاحي. وبسبب من إحاطته بالقلاقل من جميع الجهات وبالمكائد خلال ولاياته، فلقد أُطيح بماديرو عبر انقلاب عسكري قاده فيكتوريانو هويرتا في شباط/ فبراير عام ١٩١٣. وفي ٢٢ من الشهر نفسه اطلقت النار على ماديرو وقُتِل بينما كان يحاول النجاة (هذا ما هو مُفترض).

وفيما بعد تم تبجيله بوصفه شهيد ورمز الديمقراطية المكسيكية في مواجهة الدكتاتورية.

٧ ـ فيكتوريانو هويرتا Huerta, Victoriano

ولد عام ١٨٥٤ وتوفي عام ١٩١٦.

وكان جنرالاً ورئيساً مؤقتاً للمكسيك خلال الثورة المكسيكية.

من أصل فلاحي. درس في قريته، ومن ثم في الاكاديمية العسكرية الوطنية في تشابولتبك. وبعد تخرجه عام ١٨٧٧، ترقّى الى رتبة جنرال العام ١٩٠٢. وبعد الاطاحة ببروفيريو دياز عام ١٩١١، تسلم هويرتا قيادة القوات التي حاربت اميليانو زاباتا وغيره من الثوار. وخلال تلك المعارك أظهر هويرتا قسوةً ووحشية بحيث بات من الملاحظ انه أكثر جنرالات الجيش المكسيكي تأثيراً وقدرة. وفي فبراير/ شباط عام ١٩١٣ أطاح بحكومة فرانسيسكو ماديرو، ونصَّب نفسه رئيساً مؤقتاً للمكسيك.

تكرست رئاسته في محاولات لاعادة النظام. ولقد وجه اليه اللوم والاتهام في اغتيال ماديرو، كما ان حكمه القاسي والمُفسد أثار وسبب في استمرار التمرد. وعلاوة على ذلك، فلقد عادى السياسة الأميركية لودرو ويلسون، و رسو قوات البحرية الأميركية في فيراكروز في ابريل/ نيسان عام ١٩١٤.

أُجبر هويرتا أخيراً على الاستقالة في يوليو/ تموز ١٩١٤.

فرَّ الى اسبانيا. وفي عام ١٩١٥ توجه الى الولايات المتحدة، حيث تم اعتقاله هناك، وحوكم بتهمة التآمر لانتهاك حصانة الولايات المتحدة.

أطلق سراحه بسبب صحته المتردية، ومات بعدها بقليل.

Twitter: @ketab_n

٨ ـ وودرو ويلسون Woodrow Wilson

رئيس الولايات المتحدة الأميركية الثامن والعشرون (١٩١٣ ـ ١٩٢١). قاد بلاده خلال الحرب العالمية الأولى.

ولد في ستونتون في ٢٨ كانون اول/ ديسمبر عام ١٨٥٦، وتوفي في ٣ شباط/ فبراير عام ١٩٢٤.

فيما يتعلق بسياسته الخارجية الخاصة بالمكسيك، وتطورات الثورة المكسيكية، يمكن ايجاز موقفه كالتالي:

في البداية رفض الاعتراف بالحكم العسكري لفيكتوريانو هويرتا، وحاول اجباره على اجراء انتخابات حرة. وعندما قاوم هويرتا، حاول ويلسون اخضاعه عبر تدخل عسكري محدود في المكسيك، وذلك بعملية انزال في فيراكروز، في نيسان/ ابريل عام ١٩١٤، مسانداً بذلك منافسه فينوستيانو كارانزا. وبعد عملية وساطة قامت بها كل من الأرجنتين و البرازيل وتشيلي للحيلولة دون تفاقم واتساع النزاع، قام هويرتا بالاستقالة في تموز/ يوليو عام ١٩١٤.

بعد ذلك بسنة اعترف ويلسون بحكومة كارانزا. لكنه عاد عام ١٩١٦ ليتدخل من جديد بعد ان قام منافس كارانزا، قائد عصابات الثوار، بانشو فيللا، بالاغارة على بلدةٍ صغيرة في منطقة نيومكسيكو، وقتله لعدد من الأميركيين.

وفي عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ أرسل بقوات عسكرية الى هاييتي وسانتو دومينغو ليؤسس فيهما حاميات أميركية.

٩ ـ أمبروس بيرس Bierce, Ambrose

ولد أمبروس بيرس عام ١٨٤٢

كان كاتباً أميركياً وصحفياً اتسم بعقليته الساخرة الشكاكة في طيبة الدوافع البشرية، وبقصصه الرهيبة عن أمور الحرب والموت، بحيث أدى ذلك كله الى تسميته بـ: بتر Bitter (المرير) بيرس. ولربما بدأ افتتانه بكل ما هو غريب ومغاير لما هو طبيعي أو نموذجي في غمار الحرب الأهلية، عندما قاتل خلالها في شايلوه Shiloh وتشيكاماوغا Chichamauga، وجُرح في معركة جبل كينيسو Kennesaw Mountain. ولقد تم استقاء الكثير من قصصه التذكرية من تجارب تلك الحرب، ومن بينها «حادثة غير متوقعة على جسر أول كريك» و «تشيكاماوغا».

ترك بيرس الجيش عام ١٨٦٥، ورحل الى الغرب، وبدأ بنشر المقالات في نيوزلتر News letter، النشرة التي كانت تصدر في سان فرانسيسكو، والتي أصبح بيرس فيما بعد محررها عام ١٨٦٨.

ظهرت قصته الأولى «الوادي الشبحي» عام ١٨٧١، وتزوج في السنة ذاتها من ماري

Twitter: @ketab_n

ألن واي، وكان زواجاً غير سعيد.

سافر مع زوجته الى انكلترا حيث نشر أولى كتبه الثلاثة: «بهجة الشيطان The Fiend's Delight، و «الكتل الصلبة والغبار المغسولان في كاليفورنيا Nuggets and Dust Panned Outin California ـ نُشر الكتابان عام ١٨٧٢، و «شبكة عناكب من جمجمة فارغة Cobwebs from an Empty Skull، عام ١٨٧٤.

رجع بيرس الى الولايات المتحدة، وعمل في عدة صحف في سان فرانسيسكو، ونشر عام ١٨٩١ أول ثلاثة أعمال باتت ذائعة الصيت اليوم: «في منتصف الحياة In the Midst of Life. وكان العملان الآخران: «هل بالامكان حدوث أشياء كهذه؟ Can Such Things Be? ١٨٩٣. وهو على شكل مختارات من القصص القصيرة، و «معجم الشيطان The Devil's Dictionary عام ١٩٠٦، وهو كتاب تعريفات لاذعة ونقدية ساخرة. ثم رحل الى واشنطن العاصمة في العام ١٨٩٦، ليتابع عمله الصحفي.

في العام ١٩١٣، وبدافع من يأسه من الحياة في الولايات المتحدة، ذهب بيرس الى المكسيك بحجة كتابة تقرير عن ثورة بانشو فيللا، ثم اختفى ولم يعد يُسمع عنه بعد ذلك قط. وربما يكون قد مات في حصار مدينة أوجيناغا Ojinaga في شهر كانون ثاني يناير من العام ١٩١٤.

١٠ ـ ويليام ت. شيرمان Sherman, William Tecumseh

ولد عام ١٨٢٠، وتوفي عام ١٨٩١.

جنرال اتحادي خلال الحرب الأهلية الأميركية. أُطلق عليه لقب أول جنرال حديث لتمسكه بأهمية استراتيجية الابادة الشاملة، والتي لم تقتصر فقط على استنزاف موارد العدو الاقتصادية، بل وتضعف معنويات المدنيين أيضاً. ولقد أظهر وبرهن على هذه الاستراتيجية في مسيرته نحو البحر عبر جورجيا.

١١ ـ جوزيف إي جونستون Johnston, Joseph E.

ولد عام ١٨٠٧، وتوفي عام ١٨٩١.

أُعتبر الجنرال جونستون، بعد روبرت إي. لي، اكثر العسكريين الاستراتيجيين أهمية ضمن جيش الكونفدرالية. قام جونستون بسلسلة انسحابات تنم عن تمرّس ودهاء أمام الجيش الاتحادي كبير الحجم و المجهز أفضل تجهيز، والذي كان يقوده الجنرال ويليام ت. شيرمان. هذا ولقد تم اجباره مع مرور الأيام، على التسليم رسمياً باستسلام جيش تينيسي، آخر جيوش الكونفدرالية الفاعلة في الميدان، وذلك في ٢٦ نيسان/ ابريل عام ١٨٦٥.

١٢ ـ ليلاند ستانفورد Stanford, Leland

هو القطب الأميركي في مجال السكك الحديدية والسياسي المعروف.

Twitter: @ketab_n

ولد عام ١٨٢٤، وتوفي عام ١٨٩٣.

عمل كحاكم جمهوري لكاليفورنيا (١٨٦١ ـ ١٨٦٣) وسيناتور اتحادياً (١٨٨٥ ـ ١٨٩٣) عن كاليفورنيا أيضاً. وعندما سُمِح له بمزاولة مهنة المحاماة عام ١٨٤٨، مارس ستانفورد الحقوق في واشنطن حتى عام ١٨٥٢، ومن ثم التحق باخوته الخمسة في كاليفورنيا واشتغل بالتجارة.

ساعد في بداية الحرب الأهلية على إبقاء ولاية كاليفورنيا ضمن الاتحاد. وفي عام ١٨٦١، وبالمشاركة مع كوليس هنيتنغتون، بدأ ستانفورد بانشاء شركة سكة حديد الباسفيك المركزية (Central Pacific Railroad Company). وفي العام ١٨٧٠ أسس شركة سكة حديد الباسفيك الشمالية (Southern Pacific Railroad Company).

وفي العام ١٨٨٥ أسس ستانفورد جامعة ستانفورد بمنحة مقدارها عشرون مليون دولاراً.

١٣ ـ المصير الواضح Manifest Destiny

بُدء باستعمال مصطلح «المصير الواضح» بين الأميركيين في الاعوام التي تلت ١٨٤٠، كدفاع عن توسع الولايات المتحدة الأقليمي. ومنذ القرن السابع عشر طفق الأميركيون بالامتداد نحو الغرب، كما آمن اميركيون عديدون بأن ثمة ارادة سماوية الهية تكمن وراء توسع المؤسسات الاميركية. ولقد تطورت روح تفاؤلية جديدة مؤمنة بحق الولايات المتحدة بالتوسع في القرن التاسع عشر. وفي عام ١٨٤٥ قام محرر صحفي من نيويورك، هو جون ال. أوسيلفيان، بصياغة عبارة تمثلت تفكيره حين كتب قائلاً بان «خطوة التحقيق الفعلي لمصيرنا الواضح هي في ان ننتشر فوق القارة وقد خصّتنا بذلك العناية الأهية من أجل التطور الحُرّ لملايينا الآخذين بالتوسع سنوياً».

لقد كان اهتمامه الفوري حينذاك يتمثل في ضمّ تكساس، لكنه سرعان ما استخدم مصطلح «المصير الواضح» في النزاع مع بريطانيا العظمى على منطقة اوريجون Oregon.

آمن اوسيلفيان بأن على الولايات المتحدة ان لا تُقيّد طموحاتها الاقليمية ضمن قارة اميركا الشمالية، ولقد تجادل المؤرخون منذ ذلك الحين عمّا اذا كان «المصير الواضح» مرآة للامبريالية.

هذا ولقد استخدم المصطلح لتبرير الحرب المكسيكية (١٨٤٦ ـ ١٨٤٨)، وصفقة الاسكا (١٨٦٧)، والحرب الاسبانية ـ الأميركية (١٨٩٨) ـ وجميعها كانت ضمن محصلات الأهداف الأقليمية للولايات المتحدة.

١٤ ـ بورفيريو دياث Diaz, Porfirio

ولد عام ١٩٣٨، وتوفي عام ١٩١٥.

كان قائداً عسكرياً ثم حاكماً دكتاتوراً للمكسيك منذ ١٨٧٦ حتى ١٩١١.

ابن لعائلة من الفلاحين ضمن نظام الملكية المشاعية للأرض ذات دخل متواضع. درس دياث في الأصل ليكون كاهناً، ثم تحول الى القانون. ترك دراسته عام ١٨٥٤ لينضم الى الثورة التي أطاحت بنظام سانتا أنا Santa Anna. كرّس نفسه، بعد ذلك، للحياة العسكرية، وبرز في صفوف الجيش خلال حرب الاصلاح (١٨٥٨ ـ ١٨٦١)، وأصبح جنرالاً عام ١٨٦١. وفي نفس العام تم

Twitter: @ketab_n

انتخابه نائباً فدرالياً عن ولاية أوكساكا OAXACA. وخلال التدخل الفرنسي (١٨٦١ ـ ١٨٦٧) حارب دياث مع القوات الجمهورية بقيادة بنيتو خواريز Benito Juarez، ليصبح فيما بعد قائداً للجيش، وليلعب دوراً حساساً في النجاح النهائي للجيش الجمهوري، والاطاحة بامبراطورية ماكسمليان Maximilian

عام ١٨٧١ ثار دياث ضد الحكومة ليمنع اعادة انتخاب خواريز، لكنه فشل في ذلك.

عام ١٨٧٦ ثار مرة أخرى معارضاً خليفة خواريز، سباستيان ليردو دي تيجادا Sebastian Lerdo de Tejada، ونجح هذه المرة. وبذلك أصبح رئيساً للجمهورية عام ١٨٧٧ محتفظاً بالرئاسة حتى عام ١٩١١، فيما عدا الفترة ما بين ١٨٨٠ ـ ١٨٨٤.

كان دياث دكتاتوراً مُغالياً في تسلطه. شجع النمو الاقتصادي لكنه تجاهل المشكلات الاجتماعية الناجمة عنه. ولاهتمامه بالأثرياء المكسيكيين ورجال الأعمال الأجانب، قامت حكومة دياث بالمساعدة على انتزاع الأراضي من أيدي جماعات الفلاحين الهنود، كما حاول دياث ان يكتم أنفاس الحركة العمالية النامية.

حاول القضاء على قُطّاع الطُرق باستخدامه قوة شرطة الدولة المدعوة (RURALES). أعلن خلال عام ١٩٠٩ بأنه سيعيد الديمقراطية للبلاد، لكنه عام ١٩١٠ تلاعب مرة ثانية بالانتخابات، عازلاً المكسيكيين بكافة طبقاتهم الاجتماعية، وكانت نتيجة ذلك الثورة التي قادها فرنسيسكو ماديرو Franciseo Madero، والتي أطاحت بحكم دياث عام ١٩١١.

توفي دياث في منفاه في باريس عام ١٩١٥.

١٥ ـ هنري ويلسون Wilson, Henry

سفير الولايات المتحدة الأميركية في المكسيك خلال الثورة المكسيكية (١٩١٠ ـ ١٩٢١).

ناهض نظام حكم الرئيس فرانسيسكو ماديرو، وطالب بتعويضات عن الأضرار التي لحقت بالمواطنين الاميركيين جراء الاضطراب الثوري، كما ضغط على رئيس الولايات المتحدة وليام هـ. تافت لأن يتدخل ضد حكومة ماديرو. قدّم مساعدات فعّالة لانقلاب فكتوريانو هويرتا، وكان الاعتقاد سائداً بضلوعه في التآمر لاغتيال ماديرو ورئيس حكومته بينو خواريز (١٩١٣). وخلال الفترة التي سبقت تولي ودرو ويلسون رئاسة الولايات المتحدة قدّم استقالته من منصبه كسفير لدى المكسيك.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بين شخصيتيّ الواقع التاريخي/ أمبروس بيرس، والفني المُتخيّل/ الغرينغو العجوز، تجيشُ الثورة المكسيكية ١٩١٠ لتقول لنا، عبر العبقري كارلوس فوينتس، أن ثمة حقيقة أكثر ثراءً يبدعها الفن في مزجه الخلاّق للتاريخي والمتخيّل معاً. وهكذا تولدُ رواية ثورية حقاً. رواية تقولُ الثورة لا بالشعار المباشر واللغة التقريرية، إذ (ليست الرواية الثورية هي فقط تلك التي يكون لها «مضمون» ثوري، بل تلك التي تحاول تثوير الرواية ذاتها، تثوير شكل الرواية..)، كما أشار خوليو كورتاثار.

إن فوينتس، الذي بوّأهُ الناقد المكسيكي خوسيه مارتينث مكانة الريادة في سطر الفترة الجديدة للرواية الأمريكية اللاتينية مع كورتاثار، هو الكاتب القائل عن وعي متقدّم: (إننا نحيا في بلاد كلُ ما فيها في انتظار أن يُقال، لكن كذلك في انتظار أن يُكتشف كيف يقال هذا الكل. إذا لم تكن هناك إرادة لغة في رواية أمريكا اللاتينية، فهذه الرواية غير موجودة بالنسبة لي)، وبذلك يكون فوينتس قد أمسك إمساكاً كاملاً بكل من التاريخ والأدب لأنه استوعب، وباقتدار، آلية عمل الاثنين.

«الغرينغو العجوز» واحدة من روايات المكسيكي كارلوس فوينتس، وفيها تتجلّى حنكته الإبداعية في كتابة نص يستقي من التاريخ تفصيلاً صغيراً (اختفاء الكاتب الأميركي الشمالي أمبروس بيرس في المكسيك إبان الثورة)، ليشيد عليه عالماً جاذباً في شخوصه الآخذة بالكشف عن واقعها كلما تصاعدت وتيرة الحالة، بقدر ما تكتشف، هي نفسها، حيواتها المستترة عنها!.

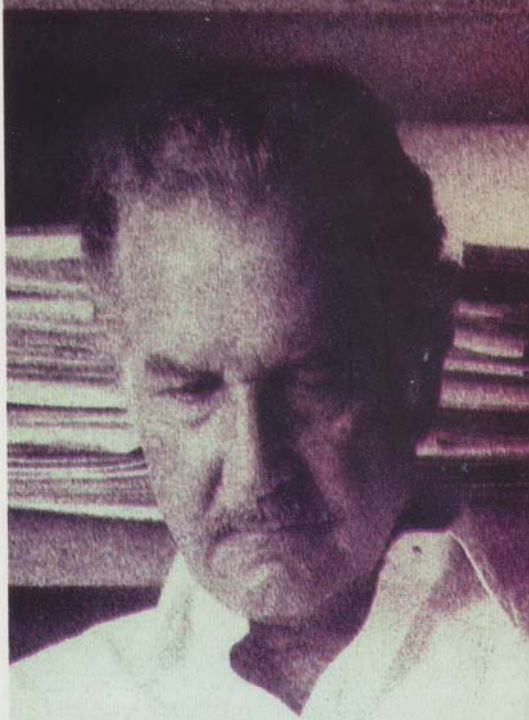

كارلوس فوينتس

الغرينغو العجوز

للنشر والتوزيع
ISBN 9957-09-007-0 (ردمك)